صعلوك على مائدة الملوك

خالد بدوي

رواية

الطبعة الأولى
١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٤

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع
/٢٠٢٤

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
إعداد إدارة الشئون الفنية

بدوي، خالد
صعلوك على مائدة الملوك/ رواية خالد بدوي، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠٢٤
٢٥٤ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: --٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية
أ- العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠
مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف
رائد مجدي

التدقيق اللغوي
أبو السعود السباعي

التنسيق والإخراج
سهير الطويل

الفصل الأول

رسالة إلى صغيري

سأكتب لك في دفتري هذا ولا أعرف ماذا سأكتب؟ ومن أين أبدأ؟ وإلى أين أنتهي؟ لأنها المكاشفة الحمقاء، لا تتعجل أو تقفل الصفحات؛ ومهما تكن النتائج يجب أن أقول لك الحقيقة الكاملة، حتى تملك الحيطة والقدرة على المواصلة، سأقول لك سرا، هل تعلم أن أصدق لحظات الإنسان وهو يحتضر؟!

اليوم أنا أعيش أصدق لحظات حياتي..

1

كما عشت وحيداً في هذه الحياة؛ اليوم أواصل النهج الذي اتبعته مرغما، تم عزلي في هذه الزنزانة منفردا، يبدو أن الوحدة نهج أسلكه مجبرا في الحياة وعند الممات، اليوم ارتديت البدلة الحمراء، منذ أيام حُكِمَ عليَّ بالإعدام بعد إجماع الآراء، ومنذ ذلك الحين وأنا أشعر بتلك الغشاوة التي تغطي عيني، أرى الوميض الأخير من حياتي يكاد أن يخبو، معلق بحبل من رقبتي لا يرحم ضعفي يشنقني بقسوة، رأسي داخل كيس أسود، وقدماي ترتعشان الرعشة الأخيرة.

سكن الجسد، لكن السؤال: هل انتهت الآلام، وأنا ذاهب إلى المثوى الأخير؟ وَمَنْ غيرها سيتسلم جثتي الملعونة من كل البشر؛ على حسب ما أثير في الآونة الأخيرة بأنني قاتل وسارق، هل سيقوم حفار القبور بمساعدة زوجتي ووضع جثتي في تلك الحفرة ثم إهالة التراب عليها، أم لا تذهب هي لتسلم جثتي بعد الشنق، وتنشغل بالبحث عن مصدر رزق لها؟ أظن صغيري جائعا، وعلينا عدد من الفواتير يجب سدادها لكي تستمر حياتهما؛ لأنني لم أترك مالا أو إرثا يعينهما على الحياة، تركتي ما هي إلا بعض المخطوطات الورقية وندبة عار على الجبين، ستظل تطاردك يا صغيري، أخشى أن يأتي اليوم الذي لا تعرف فيه الحقيقة، وتظل تلعنني، إنه شعور مؤلم لي، إن تخلت عني زوجتي فلن ألومها، بل ستتولى الجهات الرسمية أمر لحدي في مقابر الصدقة ومجهولي الهوية، يا إلهي حتى بعد موتى أحمل همَّ جثتي، المشهد بشع لكن لم أشعر بالخوف، حالة الجمود التي أنا عليها منذ أن فارقت قاعة المحكمة تلازمني.

بقاعة المحكمة بعد أن نطق القاضي بالحكم لم أسمع صرخة زوجتي ولا بكاء طفلي، ورأيتُ نظرات بعض الشامتين، ونظرات أخرى باردة، أصحابها غير مبالين سواء بالقاتل أو القتيلة رغم شهرتها؛ لأنهم جاءوا فقط للفرجة، وجاءت إلى مسامعى زغرودة فرح، أظنها من أهل القتيلة، الذين يظنون أنهم انتصروا لضحيتهم، عدت منذ أيام إلى محبسي بتلك السيارة ذات الصندوق الحديدي، أتطلع لشوارع المدينة من هذه الفتحة الصغيرة ذات الشبكة الحديدية، أظن أن هذا آخر عهدي بضجيج المدينة التي أعشقها رغم قسوتها، نسمة هواء باردة تلفح وجهي، شعرت بجمال نسمة الحرية التي ولت عني، لعلي لا أرى هذه المدينة بعد اليوم، بعد أن جئت إليها محملا بأحلامي الوردية، هل خذلتني مدينتي كما خذلني الجميع، بداية بموت أبي الذي نسيت ملامحه، وعندما سألت أمي عنه قالت: انظر للمرآة، إنك تشبهه كثيرا، كما نسيت شوارع ودروب قريتي، وأنا ألهث خلف أحلامي، هل ستنساني القرية؟ جئت لكتابة حكاية جديدة داخل مدينتي العجيبة، للأسف لم

أكتب إلا حكاية خذلان.. مدينتي التي خذلتني ماذا تركتُ لها؟ سوى ابن صغير وقلب زوجة ينفطر من الألم، الحقيقة الوحيدة التي أدركتها اليوم هى أن موعد موتي اقترب، خلال أيام قليلة قادمة لا أعلم عددها، سيتم تنفيذ العقوبة كما نص المشرع، الحياة صعبة ودوما نشتكي قسوتها علينا؛ لكن الأصعب منها هو أن تعلم موعد رحيلك عنها.

الرحيل شيء حتمي عن هذه الحياة؛ لكن أن ترحل وأنت صاحب جرم كبير، هذا هو الرحيل المشين المدنس، أنه يا صغيري رحيل مخزٍ، مثل الحياة التي عشتها، ماذا سترث عني؟ غير السيرة المشوهة كجنين تعرضت أمه للإشعاع النووي، مثل سُكان منطقة رقين بالجزائر؛ نتيجة التجارب النووية الفرنسية في الصحراء جنوب البلاد. لن أبكي اليوم، وبماذا يفيد البكاء على ألواح الزجاج المهشمة؟ سوى شظايا تؤلم أقدامنا كلما قررنا السير في طريق حياتنا، العمر مهدر ضائع كثمار النخيل التي تتساقط ولم يكتمل نضجها، ستتحول مع الوقت لغذاء للمواشي، كما كان يفعل أهل قريتي. هل ستستخدم أحلامي غير المكتملة غذاء للمواشي؟..

البداية يا صغيري، كانت كشمس الصباح، تملأ الدنيا نورا وضياءً، والنهاية غسق يصيب كل الأشياء المحيطة بي، غسقت سمائي وغسقت العين وغسق الجُرح، هذا الجرح الذي أدمى قلبي، اليوم أنا وحيد بين جدران زنزانتي؛ لا أملك سوى دفتر وقلم؛ سأسطر لك يا صغيري، البداية ولا أعرف إن كنت سأصل معك للنهاية؛ إنها الأقدار، ومهما تكن النهاية؛ اليوم أدركت أن العمر قصير جدا، لا وقت لإهدار الفرص، كما أهدرت أنا فرصاً كثيرة خلال رحلتي، تعلم يا بُني كيف تعاش الحياة الحقيقية، لا تحرص على الاستمرار فيها ولا تتشبث بملذاتها، كن كعابر سبيل، تأتي لك الدنيا راكعة.

لا أعرف ماذا سأكتب فى هذا الدفتر؟ ومن أين أبدأ؟ وإلى أين أنتهي؟ لأنها المكاشفة الحمقاء، هنا ارتعش جسدي في حركة غير إرادية، كأنهُ يحذرني بشكل فطري من تبعات دفتري هذا، بعد طول الصمت وأنا حائر وخائف، تعجبت من نفسي وتساءلت: ماذا دهاني؟ ما هذه الكآبة؟ وما هذا الحزن؟ وما هذا الانزعاج؟ أأخاف الموت أم أخاف مما سأكتبه في هذا الدفتر؟ لأن الكتابة في لحظات الاحتضار هي الأصدق، ولماذا لا أكتب؟! هل هناك عقاب أشد من الموت؟ جميعكم تكاتفتم لتطردوني من هذه الحياة، لم يعد لي مكان بينكم أيها الملوك، سأكتفي بهذا القدر من العذاب، وسأكتب لك يا صغيري، ولا أضمن إن كان سيصل لك دفتري هذا، أم مصيره سيكون مصير أوراقي المتكدسة داخل الأدراج؛ لأنهم جردوني من كل شيء حتى من حق الحياة، ومهما تكن النتائج يجب أن أقول لك الحقيقة الكاملة، حتى تملك الحيطة والقدرة على المواصلة..

2

هل الأحلام جريمة، أم السعي لتحقيقها هو الجريمة الكبرى، أم رفض الطرق المتعرجة لتحقيقها هي الحماقة؟ كان يجب عليَّ أن أعي الدرس مبكرا، وأن أضع على إحدى عيني كف يدي؛ كي لا ترى عيني الحقيقة الكاملة، لا تسعَ لمعرفة ما هو خلف الستائر؛ لأنه شيء مشين، ولماذا لا أكون مثلهم؟ أرى العوار مكرمة، ونصف الأشياء هو كمالها.

هل الحبة الزرقاء جعلت منك رجلا أيها الناقد المغوار والدكتور العجوز؟ هل عندما قذفت ماءك على صدرها المتدلي كحبتي كمثرى صرت فحلا، أم تريد أن تتعلق بالومض الأخير من فحولتك التي ولت؟!

صغيري العزيز، لا تتعجل أو تقفل صفحة دفتري هذا؛ لأنني أكره النص الملغز المبهم، هكذا كنت عندما اشتغلت بالأدب، لا تتعجب!.. نعم كتبت الرواية والقصة القصيرة، وكنت ذا باع كبير فيهما بشهادة الصادقين من حولي، وهم الصعاليك الصادقون على الدوام، ستجد داخل غرفتي عديدا من القصاصات والأوراق الحبيسة داخل الأدراج، أو فوق الأرفف، ستجد نصا أدبيا من قصة أو رواية، وستجد نصا سينمائيا، وبعضاً من قصاصات الشعر والخواطر، أجيد ألوانا كثيرة يا صغيري، لتعبر عما يجول بخاطري، كثير من المخطوطات والصفحات التي أصبحت مهترئة بفعل عوامل التعرية، متكدسة بمشاكل الواقع وأحزان البسطاء ومشاعر العشاق، والنظريات الفلسفية للرقي بسلوك المواطن، كل هذا تم وضعه في الحاضنة الكهربائية، وتم قطع التيار الكهربائي عن عمد ففسد، كنت أنتظر أن تفقس معرفة وقيمة يدركها الجميع، سأقول لك سرا، هل تعلم أن أصدق لحظات الإنسان وهو يحتضر؟! اليوم أنا أعيش أصدق لحظات حياتي، لهذا كل ما سأكتبه داخل دفتري هذا؛ أكتبه وأنا أعيش تلك اللحظات..

منذ أعوام كثيرة، لا تهتم بعددها؛ لأنه لن يفيدك إن كانت ألف عام أو مائة أو عشرة، ماتت والدتي في تلك الليلة الباردة من ليالي الشتاء، كانت هي المانع الوحيد للرحيل، شعرت بعد هذا الرحيل بأنني أستطيع التحليق، من الغد سأحمل حقيبتي، سأسافر للمدينة الكبرى القاهرة؛ عاصمة الفن والأدب لبلاد العرب، ودعت خلفي دارنا القديمة وكل ذكريات القرية، وتركت رُفات جسد أبي وأمي، بالتأكيد روحهما تنعمان في الجنة، مررت على المقابر أستودعهما. يقولون إن أرواح الموتى تشاهد ما يدور في الحياة، هذا الوداع كان آخر الأشياء الصادقة التي مارستها قبل الرحيل، ذهبت مبكرا في ساعة الفجر، كأنني لص يخشى أن يراه أحد وهو يحمل أحلاما تثقل كاهله، سائرا بخطوات أتعجل دقات الساعة، أتحسس بين الحين والآخر تلك الحافظة الجلدية

الصغيرة، داخل حقيبة سفري؛ فقدَ وضعت بداخلها نقود بيع القراريط الخمس، كنت قد ورثتهم عن والدي، لا قدرة ولا خبرة لي بممارسة الزراعة، بعد أن انتهيت من دراستي الجامعية، قررت حمل القلم بديلا عن الفأس، كلاهما مرهق جدا ويحتاج لعزيمة قوية، كنت أنتوي الرحيل بعد الدراسة، ولكن كانت أمي لا ترغب في ذلك، لدي أحلام داخل رأسي تسلب مني راحة البال، السعي لتحقيقها واجب مقدس، هدفي من الرحيل ليس البحث عن المال بل أريد ترك رسالة ما؛ إرثاً للبشرية، سأعمل داعية دينيا أو مفكرا كبيرا أو ممثلاً صاحب رسالة وهدف، وها هي أمواج الصبا المتلاطمة، تصعد وتهبط وأنا سعيد بكل ما هو قادم، الذي ينتظرني وأنتظره بشغف، تأتيني الفكرة أهيم بها، تذهب عني وتأتي الأخرى، أتشبث بها بكل غبطة، تأتي موجة أخرى ترفعني لعنان من النشوة، هكذا كانت سنوات طفولتي وشبابي، التي قضيتها بين الدراسة والحلم، لأنني وحيد أمي بعد رحيل أبي مبكرًا رحل دون الثلاثين عاما؛ كانت تخاف عليَّ خوفا مبالغا فيه، لذلك لم تتركني كثيرا للشارع، كى ألهو فيه مع أترابي، وكان هذا الأمر عائدا عليَّ بالنفع المطلق، فصار الكتاب صديقي.

قرأتُ كثيراً في الأدب وعلم النفس ومختلف العلوم، حتى كتبت ذات ليلة قصة حبي الأولى في قصة قصيرة، منذ هذا الحين قررت أن أمارس الأدب، في تلك الليلة البعيدة وأنا داخل القطار جالساً وحيدا، مشغول الفكر متطلعا للمستقبل، كان القطار يواصل الضجيج، يقطع القرى والمدن نحو الشمال، كلما زاد من سرعته زادت نبضات قلبي الحالم، وكما قلت من قبل: البداية كانت كشمس الصباح، لم يمر سوى شهر واحد، وكنت أحمل أوراقي وقصاصاتي إلى الناقد الكبير لكي أعرضها عليه، كنت قد رأيته في إحدى الندوات يصول ويجول، ويوضح ويشرح، كما شاهدته من قبل على شاشات التليفزيون، وتلك الندوة قد توصلت إليها عن طريق الصدفة البحتة، كان هناك إعلان صغير داخل مجلة أدبية عبارة عن سطرين، بأن الدكتور "شكري عبادة" سيوقع على كتابه الجديد في صالونه الشهري الذي يقام في العنوان التالي... اليوم أقف أمامه وجها لوجه، شعرت بالفرح الشديد يشوبه بعض من القلق، مثلما فعلت أثناء الندوة؛ قاطعته عندما أخطأ سهوا وهو يتحدث عن "نظرية النظم"، التي حاولت الخروج من عباءة الجزئية إلى ثوب النص المتكامل، وقد ذكر أن "حازم القرطاجني" هو صاحبها، لكن همست بصوت مسموع بأن "عبد القادر الجرجاني" هو صاحب هذه النظرية، نظر نحوي مبتسما يواصل حديثه مؤمناً على كلامي، عند نهاية الندوة بدأ طرح الأسئلة من الحاضرين، وجاء الدور عليَّ لطرح سؤال، الجميع ينظرون نحوي:

– لماذا لا نملك نظرية نقدية عربية متكاملة؟.

تبسم وقال ضاحكا:

– هل هذه الندوة عن كوميديا أفلام إسماعيل ياسين، هل قرأت كتابي؟.

– لا.

ساخرا مني وهو يدور بعينه بين الجالسين:

– عندما تقرأ كتابي الأخير ستجد به جواباً لسؤالك.

هنا ضجت القاعة بالضحك، عندما انفرجت شفتاه كأنه أَذنَ لهم جميعا.

بوجه حاد وجدية واصلت حديثي:

– لو نملك نظرية نقدية لماذا تستشهد حضرتك بالنقاد الغربيين؟.

هنا أسكتني منظم الندوة عندما قال بصوت حازم "لو سمحت يا أستاذ، لكل ضيف سؤال واحد فقط" هنا كان يجب علىَّ أن أجلس، عندما رفع يده لسائل آخر يجلس بجواري يمنحه الإذن بالحديث، بعد أن انتهت الندوة؛ حاولت الاقتراب من الدكتور الناقد، وجدت لفيفا من المعجبين والمعجبات حوله، ظللت واقفا مترددا بين الاقتراب والرحيل، أخشى مما حدث داخل الندوة أن يقف حائلا بيننا، ويصدني أو يرفض التوقيع على كتابه؛ الذي اشتريته من هذا الفتى الذي يجلس فى نهاية القاعة، اشتريته كما اشتراه كل الحاضرين، هأنذا أقف مترددا بين الخوف والرغبة حتى ظهرت هي، ظهورها اختطفني، يشبه أحلامي كشمس الصباح.

كأننا على سابق معرفة وجدتها تنظر نحوي بقوة تلك الفتاة الجميلة، وبين حيرتي ودهشتي أجدها تشق الصفوف نحوي تقترب، عطرها نفذ إلى قلبي قبل أنفي، وقفت أمامي هزت رأسها ثم رفعت خصلات شعرها الأصفر للخلف، وجهها صبوح أبيض مستدير شقته الحمرة، ذات أنف مسحوب متناسق، شفتاها الحمراوان تضع عليهما أحمر شفاه زادهما جمالاً، لها عينان نجلاوان، لكنني شعرت أنها تملك نظرات تعكس تحديا واضحا للحياة، جسدها ممشوق متناسق، وملابسها تزيدها أناقة تجيد الاختيار، والحقيقة لم يخب ظني كثيرا، دون خجل أو تريث كأنها كانت تبحث عني، أمسكت بي من معصم يدي تبعدني عن هذا الزحام، ثم قالت وهي تبتسم:

– لا تزاحم هؤلاء الغوغاء فإنهم كالحشرات المتطفلة مصيرها الهلاك، يسيرون كقطيع إن هلك أولهم يتبعه آخرهم، إنهم يفكرون بآذانهم.

صمت مندهشاً من تلك الجراءة وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة:

– إذا كنت تريد أن تلتقي مع الدكتور شكري للتوقيع على كتابك. فدع الأمر لي.

لا أدري حينها لماذا صدَّقتها وانقدت خلفها، كذيل تابع لصاحبه؟ هل لما تتمتع به من ثقة بالحديث، أم لأنني فُتنت بها منذ النظرة الأولى، أم هي كانت الفرصة الوحيدة داخل هذا المكان؟ لم يهتم بي أو يتحدث لي أحد سواها، بعد مداخلتي واصلت الصمت، وكان هذا الحضور لأول ندوة ثقافية في حياتي، قالت وهي ترسم نفس الابتسامة السابقة:

– لماذا أنت صامت؟.

– لا أدري ماذا أقول لكِ، على العموم شكرا لاهتمامك بحيرتي.

– ما سبب حيرتك؟

– كل شيء هنا مثير للحيرة.

ضحكت بقوة، ارتفع صوت ضحكتها أعلى من ضجيج المعجبين حول الدكتور، الذين يواصلون الصراع نحو الفوز بتوقيع المؤلف على كتابه النقدي الجديد، ثم ألقت نظرة عابرة حيث الزحام الذي نقف خلفه ببضعة أمتار، مدت يدها نحو الكتاب الذي بيدي، وهذا الكتاب قد اشتريته منذ دقائق معدودة، مثل معظم الحاضرين، لكي أكون مثلهم أفوز بتوقيع المؤلف، تركت لها الكتاب، قالت وهي تفض بكارة الكتاب بإزالة الغلاف البلاستيكى الشفاف من عليه: أتريد توقيع كتابك؟.

– نعم، لكن أكره الزحام.

– ما اسمك؟.

– صلاح سنجاب.

ضحكت وهي تضع يدها على فمها تحاول أن تداري ضحكتها، تهمهم بشيء من الدهشة "سنجاب" تتجه نحو الدكتور "شكري" ومعجبيه، تهمهم بشيء من السخرية "ماشي يا عم سنجاب" تختفي وسطهم، بينما ظللت في مكاني لا أحرك ساكنا، بعد برهة نظرت إلى هيئتي أضبط القميص داخل السروال، وأشد الحزام الجلدي جيدا على وسطي الرفيع، أمسح وجه حذائي الجلدي في أرجل بنطلوني من الخلف، قدمي اليمنى في ظهر رجلي اليسرى والعكس صحيح، سعيد بهذه البداية التي تمنحني التفاؤل، تتفتح داخل رأسي نوافذ أحلامي المشرقة. جاءت نحوي مدت يدها بالكتاب: تفضل كتابك موقعا عليه من الدكتور.

– شكرا لكِ يا أستاذة؟.

قاطعتني وهي تمد يدها تصافحني:

– اسمي ياسمين جعفر، أعمل موظفة استقبال في أحد الفنادق، وأعشق الأدب ولي محاولات في الكتابة أتمنى أن أوفق في ذلك.

بهذا التعريف السريع، رسمت لي جسرا ممتدا لكي أبدأ علاقة جديدة.

"ياسمين جعفر" بداية محيرة ومثيرة للدهشة في تلك المدينة، رغم سعادتي الكبرى، لكن عندما اقتربت منها أكثر زادت دهشتي وحيرتي، فأحيانا أصفها بالسفالة لقبح الألفاظ التي تقولها، فكلماتها لا تخلو من النهود والأرداف وما بينهما، وهي مثقفة لحد ما، عندما نتناقش يكون الحوار مثمرا بيننا، بعد الندوة طلبت مني أن نذهب معا إلى مقهى بوسط البلد، هي تعتاد الجلوس عليه ولديها بعض الأصدقاء تلتقي بهم بشكل شبه يومي، قالت وهي تتقدم خطوات للخارج بعد أن انتهت من حديثها الجانبي مع الدكتور الناقد: سوف أقدمك لأصدقائي الليلة. سرنا معا وأنا مازلت منقادا تحت سلطان جرأتها، وكيف اقتحمت حياتي رغم أنفي، وعندما سألتها لماذا تفعلين معي هذا الأمر، هزت كتفها كأن ما حدث من طبائع الأمور:

– عادي عندما رأيتك مترددًا وخائفا، مثل الطفل أردت أن أساعدك.

هززت رأسي وصمت، أواصل التحديق في زحام المدينة ولافتات دور العرض، وبعض المسارح التي كنت أهتم بها جدا، وأقرأ اسم العمل والأبطال سريعا والمؤلف والمخرج، بنظرات متتابعة متعاقبة، لم أهتم كثيرا بواجهات الحوانيت، كان اهتمامي الأكبر بالمكتبات ودور عرض السينما والمسارح، وبعد أن واصلنا السير من شارع (26) يوليو انعطفنا جانبا نحو شارع طلعت حرب، وجدت بائع كتب على الرصيف؛ طلبت منها أن تتوقف، ألقيت نظرة على بعض العناوين، أريد أن أقتني بعضها، ردت على بحزم يجب أن أواصل السير، وسوف تأخذني لمتاجر كتب كثيرة، وظلت تذكر لي بعض أسماء المكتبات الشهيرة، واختتمت حديثها بأنها إن رغبت في شراء بعض الكتب، فمكانها المفضل هو سور الأزبكية، قبلة محبي القراءة، الغني والفقير، وظلت تذكر مميزات هذا المكان. همست لها وأنا أشعر بقلة الحيلة:

– تنقصني أشياء كثيرة هنا، يجب معرفة دروب وشوارع ومعالم المدينة.

– أترك لي نفسك وسوف تعرف كل شيء عنها.

كأنها تذكرت شيئا ما، قالت باهتمام شديد:

– ماذا تكتب؟

– أكتب الرواية والقصة القصيرة، ولهذا جئت من بلدتي البعيدة.

هزت رأسها بإعجاب، تريد مواصلة الحديث في هذا الشأن، أظن أنه أسعدها:

– هل نشر لك كتاب من قبل؟.

– قلت لكِ من قبل؛ لهذا السبب خصيصا جئت للقاهرة، لدي روايتان ومجموعة قصصية.

– ثلاثة إبداعات شيء جيد.

– لكن لا أعرف كيف أبدأ وأيا من الطرق أسلك؟ حتى أستطيع النشر.

– يجب عرض أعمالك على متخصص لتقييمها أولا؛ قبل عرضها على دار النشر، لأن لجان القراءة بدور النشر صنفان، أولهما متخصص جدا ودقيق جدا، يبحث عن الفكرة الجديدة والسرد المتميز، ولكن للأسف لا يهتم بالأسماء المغمورة، والثاني حمار جدا لا تذهب إليه؛ لأنه لا يعرف عن الكتاب إلا شكله، ولا يهتم بالأدب؛ بل كل اهتمامه ماذا ستدفع له مقابل النشر؟.

ضحكت من طريقة وصفها للجان القراءة، واصلت:

– أزيدك من الشعر بيتا، هناك صنف ثالث وهم أصحاب الأجندات، هم يعتزون بمنهجهم جدا، ولا يهتمون بشيء في الأدب سوى الذي يخدم فكرتهم، وهؤلاء شر على الإبداع؛ لأن بوصلتهم ومقاييسهم منتقصة ومشوهة، على العموم هذا ليس كلامي إنما هو كلام الدكتور "شكري عبادة" وهذا الرأي سمعته منه.

– ما مدى علاقتك بالدكتور شكري.

أحسست بتوتر قليل شاب وجهها لكن تماسكت:

– أي علاقة تقصد، هل سمعت شيئا؟.

– لا لم أسمع شيئا ولم أتحدث إلى أحد، كما قلت لكِ من قبل أنا جئت إلى المدينة منذ أيام لم تتجاوز الشهر.

لم نكف عن الثرثرة في طريقنا، وجدت ماسح أحذية يجلس على الرصيف بجوار صندوقه الخشبي، طلبت منها أن تتوقف وتنتظرني لتلميع حذائي، واصلت السير دون اهتمام، بأننا اقتربنا من المكان، الوقت داهمنا وأصدقائي ينتظرونني، هكذا كان رد فعلها بكل صرامة أو دون اهتمام برغباتي، واصلت السير بجوارها وأنا أواصل الالتفات حولي، كأنني فقدت حاجتي وسط شوارع المدينة المزدحمة. تبسمت وانفرجت أسارير وجهها، ثم أشارت بيدها نحو المقهى، قرأت لافتة عتيقة على واجهة المكان باللغة العربية والإنجليزية، وجدنا فتاتين جالستين اقتربت منهما "ياسمين"، وهي تكيل لهما السباب واللعنات، ما فهمته إنهما خذلاها في موعد اليوم، لم تحضرا الندوة، وبعد وصلة السباب التي تخللتها أحضان وقبلات وابتسامات، وهمز ولمز، أنها الفتاة المدللة للدكتور "يا بختها وسعدها وهناها" جلسن الثلاث وأنا أقف على بعد بضع خطوات منهن، كأنهن تفاجأن بوجودي، أشارت ياسمين نحوي بيدها: صديقنا الجديد "صلاح"، لم تتذكر ما تبقي من الاسم ظلت تذم على شفتيها، كأنها تتذكر وأنا واصلت الصمت، ثم قالت "صلاح سنجاري".

هنا كان يجب على التدخل وقاطعتها، شعرت بعدم أهميتي لها، وكأنها تعاملني بدونية عن قصد، عندما رأيت نظرات الفتاتين نحوي، قلت كأنني أدافع عن نفسي:

– "سنجاري" هذا نوع سمك يا ياسمين، اسمي صلاح سنجاب.

كانت ليلة سعيدة لو انتهت على النحو الذي بدأت عليه، لكن بعد مرور الوقت وأنا جالس رابعهن، أشعر بأن الجميع يراقبني، شاب وحيد وسط ثلاث بنات جميلات، أظن الجميع يحسدني على هذه الجلسة، ولكن المحسود لا يشعر بالنعمة، جالس رغم الرفاهية التي تحيطني، ولكن أشعر بالوحدة، صمتٌ كثيرا وهن يمارسن ثرثرتهن على الدوام، هل هن يشعرن بأن الكرسي الذي أجلس عليه شاغرا، لماذا جاءت بي إلى هنا؟ ولماذا أنا منقاد خلفها؟ وهي منغمسة في الحديث عن مواضيع سابقة بينهن، يجب أن أقوم وأنصرف، لكن ياسمين نظرت نحوي بعد أن أخرجت ورقتين من حقيبة يدها، مدت يدها لي وقالت:

– أريد سماع رأيك في قصتي الجديدة ممكن أن نتدارسها الآن.

نظرت نحوها بدهشة؛ لثقتها بأنني سوف ألبي طلبها، لأنني منذ أن التقينا لم أخالفها الرأي، الآن فقد فهمت لماذا استدعتني إلى هذا المكان، وقررت صحبتي؛ كان هذا ظني السيء بها، ولكن دوما أضع قوالب الثلج من الظنون تجاه الآخرين بقدْر ماء ساخن لتذوب، هل كانت تعلم أنني أمارس الكتابة؟ وهل رأيي مفيد لها، أم مداخلتي أثناء الندوة تركت هذا الانطباع عني؟ بين الدهشة والتردد مددت يدي أمسك بالورقتين وهما من المقاس الكبير، قرأت العنوان ثم توقفت:

– يجب أن أنصرف الآن عندي موعد مهم.

يبدو أنني لم أتخلص من حالة الضيق التي انتابتني، طلبت منها إرجاء الأمر لوقت آخر، لكن كان رد فعلها مباغتا، دع القصة معك وأنتظر تقييمك لها، إذن لا مفر من الأمر، ابتسمت ابتسامة مجاملة في وجوههن، وقمت من مكاني تقدمت بضع خطوات، استوقفني صوتها وجاءت خلفي اقتربت مني تسألني عن سر انصرافي مبكرا، لم تتغير حجتي بأنني مرتبط بموعد، والحقيقة ليس هناك أي موعد، اقتربت مني أكثر كأنها تهمس في أذني:

– سوف أواصل فعل الخير معك، اختر أفضل أعمالك التي كتبتها، وأطبعها على نسخة ورقية مخطوطة، وسأحدد لك موعداً مع الدكتور شكري في منزله، الخميس القادم، هل هذا مناسب لك؟

هززت رأسي بالموافقة، مدت يدها تصافحني وعينيها تراقب عينيَّ اللتين تشعران بالخجل:

– ستجدني هنا في تمام الساعة الثامنة، هو يسكن قريبا من هنا، هيا استعد جيدا أيها الأديب.

3

وعدت وأوفت "ياسمين جعفر"، أنا الليلة أحمل تلك النسخة من روايتي "رحلة بلا ثمن"، التي تتحدث عن عاشق يظل بجوار حبيبته سنوات، يحبها في صمت، رواية عاطفية رومانسية جدا، يوجد بها بعض من الإسقاط السياسي، جئت مهندم الثياب أرتدي بدلة جميلة رمادية اللون، مازلت أملك نقود بيع الأرض، تساعدني في نفقات المعيشة، رغم أنني أصرف في حدود المعقول؛ لكن ماذا بعد أن تنفد نقودي التي أوشكت فعلا على النفاد، مر أسبوع منذ لقائي الأول مع ياسمين وصديقتيها، هذا الأسبوع كنت أستعد فيه استعداد الجندي للحرب، الذي يشحذ كل همته ويعيد التدريبات القتالية مرة بعد مرة، ويذاكر خطط الحرب، لم أخرج من الشقة التي استأجرتها إلا لأمر ضروري، أبتاع حاجتي وأعود مسرعا، لأكمل ما بدأت؛ تلك الشقة كانت غرفتي نوم وغرفة استقبال، وحمام ومطبخ بالطابق السادس وهو الأخير في تلك البناية، رغم عشوائية المنطقة والضجيج المستمر؛ لكن الطابق السادس مؤمن تماما ضد هذا الضجيج، لم أتعرف على أحد بهذه المنطقة، والجميع لا يراني إلا قادما للشقة أو خارجا منها، لم أقف أتسكع على ناصية الشارع الذي أسكنه أو المقهى الكائن على أول الشارع، أو عند صاحب محل البقالة الذي كلما ذهبت إليه يريد التحدث معي، فأرد عليه باقتضاب، ولم أقف على الرصيف أراقب بعض النسوة اللاتي يذهبن ويجئن من السوق، محملات بأكياس مليئة بالخضار والفاكهة واللحوم، ومنهن من تعود ببقايا السوق؛ لسد رمق صغارها الجوعى. في النهاية المكان بالنسبة لي مأوى جيد، أعدت كتابة بعض المقاطع من الرواية وغيرت صياغة العديد من الجمل، ثم ذهبت بها لطباعتها كما قالت لي "ياسمين" في مكان رخيص الثمن، خلف جامعة القاهرة؛ تلك المكتبات الكثيرة التي تخدم الطلبة والطالبات؛ منطقة بين السرايات، وكذلك لم أنس قصتها، التي أعدت كتابتها من جديد فطبعت لها نسختين على الكمبيوتر، فرحت جدا بما فعلت لقصتها، أسلوبها ركيك وضعيف، الموضوع الذي تتناوله جيد، لكن القصة مليئة بكثير من الهنات والأخطاء اللغوية، وجمل كثيرة تحتاج لإعادة صياغة أفضل، في النهاية فعلت ما يجب أو أراه صحيحا، هو إعادة صياغة القصة كاملة بعد أن فشلت في التصويب، شكرتني جدا على هذا الفعل، جلسنا وحيدين نرتشف بعض المشروبات قبل أن يحين الموعد مع الناقد، عقبت بعد ضحكتها الجميلة على أناقة البدلة وحسن اختياري، ثم بدأت تقرأ القصة في صمت، بعد الانتهاء أجد دموعا في عينيها تحاول أن تخفيها، شعرت بالقلق هل أسلوبي لم يعجبها؟، هل أفسدت مضمون القصة؟، سألتها هذين السؤالين بقلق شديد. قالت وهي تحاول أن تداري دموعها خلف ابتسامة مصطنعة:

– أسلوبك رائع في السرد، تملك حساً مرهفاً في التعبير عن المشاعر، أنت كنز ثمين، جعلت من الشخبطة التي شخبطتها قصة تقرأ بفخر، إنني فخورة بك، ولم يخب ظني منذ أن رأيتك تجادل الدكتور بالندوة، ظننت بك الخير وكنت أكبر مما ظننت، إنك لكاتب كبير.

اعتلت وجهي حمرة الخجل، تحاول شفتاي أن تنفرجا عن ابتسامة الثقة، ولكن تماسكت وضممتهما بحزم، حاولت كبح لجام غروري، وهمست لها مجاملة: قصتك هي الجيدة.

تبسمت في صمت كأنها تعرف أنني أجاملها؛ لأنها ذكية، لم تصدني وتركتني أواصل الاسترسال، وظللت أقدم لها النصح، بأنه يجب عليها أن تتخلى عن التقريرية في بعض الجمل، وأن تضع في قصتها بعضا من التشبيهات البليغة التي تضيف للنص متعة، كنت ثرثارا جدا، أنا أشعر بمتعة دور المعلم لهذه الفتاة الجميلة، التي تجلس أمامي فاغرة فاها، أشعر بأنني أفضل منها، أنانية المبدع تسيطر على شخصي، لكن بحدود حتى لا تشعر هي بغروري فتهجرني، كنت حريصا على ألا تهجرني، نعم يا صغيري، كنت حريصا جدا على ذلك، أضفت لها بعض الآراء النقدية من مدارس مختلفة، غربية وشرقية، وظللت أستعرض معلوماتي، واختتمت حديثي بهذه الكلمات، أن النص الأدبي كالبرقية التي يحذف منها الكلمات الزائدة اختصارا للتكلفة.

هنا قاطعتني ضاحكة: هذا درس جديد في كتابة القصة وهو التكثيف.

كان اللقاء ممتعا، تعودت عليها ونحن نتبادل الحديث وبين شفتيها سيجارة، بعد أن جلست المرة الفائتة على المقهى، وأخرجت صندوق سجائرها الورقي المستورد وأمسكت بواحدة تشعلها وتزفر دخانها بقوة، نظرت إليها حينها فاغرا فاهي؛ لأنها أول مرة أرى فيها فتاة تدخن سيجارة وهي جليستي، كنت قد رأيت هذا المشهد في أفلام كثيرة، ورأيت بعضهن في أماكن مختلفة وعابرة، ولكن لم تربطني بهن علاقة، وقد رسخت السينما في رأسي هذا الانطباع، لا تدخن السجائر سوى سيدات المجتمع أو العاهرات، هل صديقتي من الصنف الثاني أم الأول؟.

لا أدري.. حينها كنت لا أستطيع تقييم هذا العالم الجديد الذي ولجته يا صغيري، فنصيحتي لك لا تصدق كل ما تشاهده أو تسمع عنه، هم يدعونك للتقشف ويسبحون في بحار النعم، يقولون لك كن زاهدا عن ملذات الحياة، وهم يمارسون الإباحية والتهتك والخلاعة على الملأ، صغيري، لا تصدقهم ولا تفكر بعقل أحدهم، للتجرِبة قيمة كبرى لا يعرفها سوى الباحثين عن الحق، التجرِبة ثم التجرِبة..

4

شقة الدكتور "شكري" أثاثها جيد وبه لمسة من البهرجة، بعض من الشهادات والتكريمات والصور تزين جدران هذا البهو الذي جلسنا فيه، البهو كبير وبجواره ردهة مفتوحة عليه، به مكتبة كبرى، ثم ممر نحو الغرف الداخلية، ولا أدري حينها كم عددها، لكن بعد ذلك عندما أصبحت من رواد المكان عرفت كل التفاصيل، الشقة بها ثلاث غرف وحمامان ومطبخ كبير وبهو وردهة، جلسنا ننتظر الدكتور "شكري عبادة" أنا أنتظر بشغف حالما متطلعا للمستقبل الجيد الذي سيبدأ من هذا المكان، بعد أن استجلسنا دخل يستبدل ملابسه، وهو يقول لنا البيت بيتكما، هو لا يستقبل ضيوفا، ولكن كل من يلج هنا هم أصحاب مكان، كنا قد أيقظناه من النوم، عندما ظلت "ياسمين" تضغط على جرس الباب، بطريقة متواصلة وجريئة، شعرت بالخجل؛ لأن زيارتنا تسببت في إزعاج للرجل، رغم هذه البهرجة التي تشعر بها منذ الوهلة الأولى، لكن الشقة ساكنة بلا روح، سعدت بتلك المكتبة التي تحوي أمهات الكتب، عندما ظللت أتفحص بعض العناوين عن بُعد، قالت لي صديقتي اقترب واستعر ما تريد منها، يسعد الدكتور بمن يقرأ ويشجعه، لم تأخذني الجرأة لعمل ذلك والتقدم نحو المكتبة، بل عدت للجلوس في مكاني، أنتظر قدومه من الداخل، جاء إلينا على وجهه آثار النوم، ثم أشار بيده نحوها:

– معلهش يا ياسمينتي ممكن كوب قهوة سادة.

– من عيني يا دكتور، وأنت تشرب إيه يا صلاح؟.

شاي.. همهمت بها وأنا أراقبها وهي تتوجه نحو المطبخ، خلعت عنها معطفها الصيفي الجميل، كشفت عن ذراعين كألواح الثلج، تصرفت وكأنها عاملة بالبيت، تعرف كل تفاصيل كل شيء ومكانه، أشعل الدكتور سيجارة ثم بادرني بسؤال:

– صلاح، أنا سمعت عنك سمع خير، "ياسمينتي" بتقول إنك كاتب جيد.

يسمينته هو اللقب المحبب للدكتور، ينادي عليها بتهتك وميوعة تكاد تصيبني بالغثيان، تذكرت صديقتيها وهما يصفانها بأنها حبيبته وخليلته.

تبسمت مما يقول الرجل، وأنا أهمس في سريرتي، هي لم تقرأ لي؛ وما قرأته لها ينبئ بأنها ليست مؤهلة للحكم على الأعمال الجيدة من الرديئة، فكيف يقول الرجل هذا الكلام، هنا كان يجب علىَّ مجاراته في الحديث، تبسمت بشيء من الخجل:

– أتمنى من الله أن تلاقي إعجاب حضرتك.

– لن أتعجل الحكم، لكن الجواب يعرف من عنوانه، يجب قراءتها أولا.

انتهزت الفرصة ومددت يدي إليه بالنسخة التي قد كنت جهزتها خصيصا لهذه المقابلة، أمسك بها ووضعها أمامه على المنضدة التي تقع بيننا، وهو يتفحص العنوان دون تعليق إلا أنه سيقرؤها، ثم أشعل سيجارة ثانية، بعد الأولى بمدة بسيطة، ومال بظهره إلى الخلف:

– لماذا تكتب؟.

– لدي رسالة يجب أن تصل للجميع، وأحب الكتابة جدا.

– الحب وحده لا يكفي هناك مؤهلات أخرى، جميعهم يرغبون فى أن يشار لهم على أنهم كُتَّاب، لكن من يجيد الكتابة هم قلة، والمتميزون قلة القلة.

– لا أدري يا دكتور من أي فئة أنا؟.

هز رأسه دون اكتراث، ثم رفعها تجاه دبيب أقدام ياسمين؛ التي حضرت تحمل المشروبات، ثلاثة أكواب مختلفة، قهوة وشاي وعصير ليمون، جلست بجواري على المقعد الآخر، وهي تعيد معطفها الصيفي على جسدها، اختلست نظرة عابرة إلى نهديها المحشورتين تحت قميصها الداخلي. ارتشف أول رشفة من قدح قهوته، ثم رفع بصره تجاهها:

– هل انتهيتِ من كتابة قصتك؟

تبسمت، ثم واصلت حديثها وهي تمد يدها بأوراق قصتها، التي أعطيتها لها على المقهى ووضعتها داخل حقيبة يدها الجلدية، التي تشبه لون معطفها الصيفي وحذائها:

– ها قد انتهيت أريد سماع رأيك.

أمسك بالورقة وبدأ يقرأ بصوت مسموع قصة قصيرة بعنوان "تسريحتك حلوة"

"صُرفت أمس المكافآت التشجيعية لجميع موظفي المكتب، ومنهم سعيد الموظف الجديد؛ شاب في مقتبل العمر، حلو اللسان والخُلق، تشعر بالسعادة عند دخوله إلى المكتب، تحركتْ مشاعر الأنثى داخلها، وكأنه لمس بأنامله الرقيقة أحاسيس تحتضر تحت ركام سنين مضت، حوَّلها من آلةٍ معطلة خربه إلى آلةٍ تعزف.

سعيد: تسريحتك حلوة يا سحر.

الجملة التي اعتادت أن تسمعها منه كل صباح، تمنحها الغبطة والأمان، بنفس الوقت الذي تشد من أزرها لمواصلة عملها في المصلحة الحكومية، بل امتد الأمر إلى ما بعد أوقات العمل، مرت عدة أيام والقمر يتوسط سماءهما، اكتمل حتى صار بدرًا أضاء بنوره درب الأمنيات لكليهما.

ظل يفكر في صمت، مَارّ بحر الظنون برأسه يبحث له عن مرسى، حتى ذلك اليوم الذي عتم فيه ذلك النور؛ ليزداد المد على جزيرة الجفاء، عندما قابلها سعيد بوجه مختلف تمامًا، ناقمًا على هيئتها، رآها متبرجة مبالغة في الماكياج وكأنها دمية في نظره.

سحر لم تُعِر لرأيه وغضبه اهتمامًا، جلس بعيدًا قابعًا فى مكتبه يختلس النظرات، هي ما زالت منغمسة في عملها على مكتبها بنظارتها الطبية سميكة العدسات، تسريحتها التي أثنى عليها ذات يوم أصبحت حائلًا بينهما، يلوم نفسه لأنه أطلق مارد أنوثتها من قمقمه، ولم يستطع السيطرة على جموحه، مرات كثيرة كانت تحكي له عن هذا السمج الثقيل، اليوم يراها تداعبه ويداعبها، وهو ينظر إلى شق نهديها، يضع يده على يدها يقهقهان معا.

مرت أيام ظل فيها حبيسًا خلف جدران الصمت والظنون، عزم أن لا يعود ويتودد إليها رغم الاحتياج، تقدم بطلب نقل من المصلحة وأرفقه بورقة مكتوب عليها:

– ما الفرق بين قلب العاشق والدُّب الذي قتل صاحبه"..

انتهى الدكتور من القراءة، رفع بصره نحوها يثني على قصتها، إنها تحمل معنى جيدا يطلب منها الاستمرار، واختتم حديثه بجملة ماكرة، يريد أن يخبرها أنه يفهم ما دار في الكواليس، يظن أنها قد غيرت نوعية القلم الذي كانت تكتب به في الماضي، هذا القلم جيد ويجب المحافظة على هذه الماركة؛ لأنها نادرة، ضحكنا جميعا مما قاله الناقد الكبير.

كانت الليلة في مجملها جيدة، تبادلنا الحوار أنا والدكتور في شتى مجالات الإبداع، وكنت له ندا نتبادل المعلومات، هو يملك حضورا متميزا كعادته، لا أقاطعه لكنني أتركه ينتهي مما يسرد ثم أضيف ما نساه أو يجهله، يهز رأسه مؤيدا لما أقول، أعدت لنا "ياسمين" قهوة مرة أخرى، على مذاقها الجيد نسترسل الكلمات ونلتهم الحكايات والمواضيع، ثم اختتم حديثه لي بجملة أو بنصيحة يظن أنها جيدة، لكن قالها كأنه يكشف سرا خطيرا، من كنز خبراته المتراكم، قال:

– لا تطلب من إنسان لا يقدر قيمة الكلمة أن يقرأ عملك، وكذلك لا تعطي عملك لأديب مثلك، ولا تكتب إلا عندما تشعر بآلام شخصياتك، وإن لم تشعر بها فعليك خلق آلامها، عندما تكتب تشعر بقيمة الحياة، وعندما تقرأ تصل إلى فضائل الحياة، وقبل أن تكتب عليك المعايشة حتى تكون صادقا.

تبسمت من هذه الكلمات المسترسلة، التي ساقها إلينا الدكتور، طال بنا الحديث نلتهم الكلمات والنظريات ونستدل بهذا العمل، ثم هذه الرواية المحلية وأيضا العالمية، وأخذ الحديث منعطفا آخر عندما سألني عن حياتي الشخصية، لم أتحدث كثيرا عن نفسي؛ إنني جئت هنا لتحقيق أحلامي،

هز رأسه يحذرني من الوسط الأدبي، وما يحدث فيه من الشِلالية، والصفقات الخبيثة التي يديرها بعض أشباه المثقفين، الذين يتعلقون بأحبال الإبداع وهم أبعد ما يكونون عنه، ولا أكون يوما ما رقما مجهولا داخل ندوة ثقافية، أي ستجدهم يبحثون عنك لملء مقعد شاغر، لا يهمهم ماذا تكتب بقدر اهتمامهم بحضورك، البعض يشبه دمية في حانوت عرض الدُمَى، هو ارتضى ذلك لنفسه ليدفع ثمن هذا الاختيار، ثم اختتم حديثه بأن طريق الإبداع صعب جدا، وهناك ضريبة ستدفعها عاجلا أم آجلا، لكن الاستمرارية هي الطريق الوحيد للنجاح، اختتم حديثه بجملة تحذيرية لي قالها وهو يبتسم:

– لا تتعجلني في قراءة نصوصك، لأنني لا أقرأ إلا النص الجيد الذي يستحق القراءة، ولو أكملت نصك فاعلم أن نصك جيد، رغم ملاحظاتي التي سأقولها لك حينها، ومن الممكن أن أكون قاسيا عليك فهذا لصالحك.

أمسك بصندوق سجائره يشعل السيجارة الأخيرة، ثم يحطمه بقسوة ويلقيه في سلة المهملات، الموضوعة بجوار مقعده، جرس الهاتف يواصل رنينه، لا يهتم ولا يرد، وهي كذلك لا تبلغه برنين الهاتف ولم تتقدم نحوه لرفع سماعته؛ ليكف عن هذا الضجيج، كأن هناك اتفاقًا مسبقاً على ممارسة التجاهل للمتصل، يبدو أنه لا يهتم بمن المتصل، أو يعرفه ولا يريد التحدث إليه، أو عنده ثقة بأن المتصل سيعاود التواصل مرة ثانية، ثم هز رأسه مستاء:

– هذا ثمن الشهرة، اللعنة عليها.

طلب منها أن تذهب لتحضر له علبة سجائر وطلبات أخرى، كان قد كتبها في ورقة صغيرة، هنا كان يجب أن تتحرك مروءتي، رجل مسن وفتاة جميلة وشاب معهما، من أولى بأن يكون سيد القوم وخادمهم، قمت من مكاني طواعية، أخذت ورقة الطلبات التي يريدها الدكتور من يدها، وخرجت من الباب دون تردد، وللأسف بهذه الفعلة وضعت منهجا جديدا لعلاقتي بهذا الرجل الأكاديمي والناقد الكبير، هي علاقة التبعية، هل يعلم الفأر نتيجة دخوله المصيدة لتناول قطعة الجبن، هكذا يا صغيري، دخل والدك المصيدة بقدميه دون أن يدري، نصيحتي لك لا تتخذ قرارا دون دراسة نتائجه، فطعم الجبن جميل، ولكن الخروج من المصيدة دون خسائر شيء محال، ولا تكن كريما مع لئيم الطباع، وابتعد عمن يستغلك، وابتعد عن النساء اللاتي طبائعهن مثل أم عامر:

ومنْ يصنع المعروفَ في غير أهله يلاقي الذي لاقَى مجيرُ أمِّ عامرِ

مر عام، والجميع يواصلون الركض نحو مقاصدهم، إلا أنا أمارس الانبطاح بحرفية عالية، لا أمارس الهرولة إلا لقضاء حوائجهم، حالي لم يتغير كثيرا، أصبحت عاملا بالفندق بفضل "ياسمين"، أعمل بعقد مؤقت يجدد كل مدة، وكتبت رواية جديدة وواظبت على حضور الندوات، أصبحت على دراية بشوارع المدينة، من الممكن أن أتجول بها ليلاً وحيدا دون "ياسمين"، التي أصبحت علاقتي بها متقلبة حسب حالتها المزاجية، أحيانا أشعر أنني أقرب شخص لها في هذه الدنيا، لن أنسى طعم أول قبلة كانت بيننا، نعم يا صغيري، قبلتها داخل المصعد الكهربائي بالفندق، ثم قبلتها مرات عديدة، عندما أعطيتها القصة العشرين التي راجعتها لها، احتضنتني وهي تشكرني على هذا المجهود المثمن لديها، حينها لم أستطع أن أمنع نفسي من التقام شفتيها الناعمتين، لم تغضب بل تركتني أفعل بها هذا الأمر، أعطتني ثمرة من طبق الفاكهة، وتلك الثمرة لم تشبعني، مرت الأيام ونحن نلتقي بالعمل وأحيانا نلتقي على المقهى، نذهب نتناول أحيانا وجبة الغداء معا، أو نرتاد دار عرض السينما عندما يسمع أحدنا بأن هناك فيلما جيدا يعرض بها، الأيام بصحبتها كانت جيدة وممتعة، أو نلتقي عند الدكتور "شكري عبادة" هي تواصل الكتابة الركيكة، وأنا أقوم بدوري تجاهها، إعادة الصياغة والظاهر تنقيح القصة، هكذا مرت الأيام بين الانبهار والاكتشاف والسقوط دون وعي.

ما هذا العالم الذي ولجته؟ أكتشفه بمشاعر مبهجة، قروى يدخل إلى عالم المدينة، كطفل ولج مدينة الألعاب لأول مرة، "ياسمين" تعودت أن تأخذ مني فقط، وعندما أعطيتها مسودة روايتي الجديدة لم تقرأها إلى الآن، كلما سألتها عنها قالت حجة مختلفة عن التي سبقتها، حتى توقفت عن سؤالها؛ لأنها لن تضيف لي شيئا متميزا، أعرف ذلك جيدا، لكن كنت بهذه الفعلة أبغي الاقتراب أكثر، لم أغضب منها بل تسعدني علاقتها، وعندما تلاقيني أقبلها على الخدين كصديق غائب عني، قربي منها كطعم الشوكولاتة عندما تناولتها أول مرة، و"ياسمين" قطعة من نوع "ويسبان" الشوكولاتة الذهبية، التي تساعد على تنشيط الدورة الدموية، وتزيد من القدرة الجنسية للرجل، فالقرب منها يزيد من ثقتي بنفسي؛ عندما أجد المحيطين بي ينظرون نحوي بشيء من الحسد.

ذات يوم حدث شجار كبير بيني وبين صديقتها، عندما رفضت أن أخذ قصتها، وكانت هذه الصديقة مواظبة على الجلوس معنا على المقهى، لم أتيقن من أنها كانت تراقب وترصد جيدا إلا عندما حدث هذا الأمر، كان سبب رفضي؛ لأنني مشغول وهذه حقيقة، كنت أكتب روايتي الجديدة، لذلك لن أستطيع أن أكون أمينا معها، تلك الفتاة لم تتقبل الأمر وتبرمت من حجتي،

وقالت ساخرة مني "لو أنا ياسمين جعفر" كنت فعلت لي ذلك، وربتت على كتفي في سخرية، علىَّ أن أستفيق من هذا الوهم، هي تستغلك، والجميع يعلم ذلك، ثم أشارت تواصل سخريتها يطلقون عليك "صبي الكاتبة"، رغم مرارة ما تقوله بررت ذلك لنفسي بأنها مشاعر غيرة وحقد، لا تستحق أن أقف أمامها كثيرا، ولكن ما كان يجب علىَّ أن أتوقف أمامه هو علاقتي بياسمين، التي تتحول وتتبدل كطقس ليل خريف، تتجاهلني وتبتعد عني عن قصد عدة أيام، ثم تعود لي فاتحة ذراعيها، وعندما سألتها عن هذا الغموض بين القرب والبعد، قالت وهي ساخرة من حالها هكذا حال النساء، أنت تفتقد إلى الخبرة في التعامل معهن، وبعض النساء لهن أمزجة متقلبة أكثر من طقس فصل الخريف، مرت الأيام وحالي لم يتبدل كثيرا.

طيلة عمري أكره الذيول من البشر، أصبحت كالذيل للناقد الدكتور "شكري"، مازلت أحمل تحذيره لي على محمل الجد، بأني لا أتعجل وأعطيه الفرصة التي يريدها لقراءة نصي، وأترك له الوقت كيفما يشاء، مرت الأيام وتلتها الأشهر، ولم أتغيب أو أتأخر عن الناقد.. حضور دائم بصحبته، عندما يطلبني يجدني بجواره، حتى حدث هذا الأمر الذي أثار ريبتي تجاهه، بعد انتهاء ندوة الليلة الماضية، وأنا أحمل عنه حقيبته إلى سيارته الخاصة، طلب مني الحضور إلى شقته الليلة القادمة وحيدا دون أن أخبر "ياسمين"، وهذه المرة الأولى التي أذهب إليه وحيدا، ماذا يخبئ لي القدر أيها الناقد الكبير، وما الشيء الذي تخفيه داخل جعبتك وتريد أن تمنحني إياه دون أن تراني العيون، هل بعد طول الصبر واقتراب فقدان الأمل، انتهى من قراءة العمل وسنتناقش في مضمونه الليلة؟ وهو لا يريد أن يقاطعنا أحد، بالأخص ياسمين وصوتها المرتفع، وهي المدللة التي دوما تثير الفوضى في كل مكان تلجه، سواء كانت فوضى حركية، أو فوضى غرائزية للمتطلعين نحو جمالها، ارتفع سقف طموحي وأحلامي؛ هل هي مفاجأة من العيار الثقيل التي أتمناها؟ أعلم جيدا أن الدكتور الناقد يعمل مستشارا ثقافيا لبعض دور النشر الكبرى الخاصة منها، هل أحضر عقدا لي لتوقيعه لنشر روايتي، أو بصفته موظفا كبيرا في إحدى الهيئات الثقافية الحكومية، سوف يبلغني أنه تمت الموافقة على النشر، هل انبهر بها وبأسلوبي الخاص ولغتي المتفردة، كما يقول عني بعض من الصعاليك مما يقرؤون لي، الليلة رأسي لا يتوقف عن التفكير ماذا تخبئ لي قارئة الفنجان، وهل الأمر يحتمل ضربا من ضروب التنجيم.

انصرفت من مقر العمل مبكرا؛ حتى لا تراني ياسمين، طلبت من مديري المسؤول عن خدمة الغرف، أن أنصرف ساعة مبكرا، وهذه كانت أول مرة أطلب فيها الإذن بالانصراف قبل أن ينتهي موعد العمل الرسمي، منذ أن توظفت داخل الفندق الذي سيكون بقائي به مرهون بظروف قاسية،

هل سأستطيع المقاومة؟! أم الانحناء ليتبدد هو الآخر، هذا ما سأقصه عليك في القادم يا صغيري.

وصلت إلى شقة الدكتور وكان المكان كعادته خاليا إلا من هذا الكهل، ورائحة الورق الذى غلب عليه الاصفرار المحببة لي هي التي تسيطر على المكان، طيلة عمري أحلم بشقة شبيهة بشقة الدكتور، الذي جلس بجواري بعد أن أعددتُ لنا كوبين من القهوة، فقد علمتني "ياسمين" كيف أقوم بإعداد القهوة له، وكيف أقوم بغسيل بعض الأواني الملقاة داخل حوض المطبخ وبها بقايا الطعام، هذا الفعل مروءة وليس أمرا؛ هي قالت لي ذلك وصدقتها، أراقبه وهو يرتشف قهوته الفرنسية بنكهتها المعروفة فهي تحسن من مزاجه، وأنا أرتشف رشفة بعد رشفة، مر مذاقها كمرارة انتظاري منذ ليلة أمس، قال وهو يراقب تلك الحيرة التي ترتسم على وجهي منذ ليلة أمس:

– ماذا تعرف عن الدكتور طه حسين؟.

– أعرف عنه الكثير والكثير، قرأت كتابه الأيام أكثر من مرة، وكثير من الدراسات التي كتبت عنه وعن مشوار حياته المشرف، وكثير من مؤلفاته.

هز رأسه، أشعر بشيء من الراحة ارتسمت على وجهه، الذي وضحت عليه التجاعيد، رغم شعره المصبوغ بالأسود، ذو وجه حليق اللحية والشارب يلمع على ضوء ثُريّا متدلية فوق رؤوسنا، عجبت عندما رأيت لها مستويات عدة من الإضاءة، ترسل نورها بقوة على المكان، لا أعلم سر علامات الرضا التي وضحت عليه، ثم كأنه تذكر شيئا ما:

– قد بدأت القراءة في روايتك، معذرة على التأخير، تعلم أن لدي أعمالاً وأشغالاً كثيرة، لكن بدايتها جيدة وأحببت شخصية البطل رغم سلبيته، لكن دوره في الحياة حتمي لكي تستمر، هناك بشر كالظل لا تستمر الحياة إلا بوجودهم، مثل رجال الظل لأي حاكم، في الحقيقة هم ليسوا ظلالا بل هم الحكام الحقيقيون، لكن يكتفون بهذا الدور أو مجبرين عليه، لولا وجودهم في الحياة لكنا شاهدنا الكثير من الأراجوزات تعتلي كراسي الحكم.

أنهى جملة حديثه بأنه سوف ينتهي منها عما قريب، ويكون بيننا جلسة أخرى لتدارسها، أشعل سيجارة وهو يقول، في صيغة رجاء لكن نبرته تكسوها العجرفة المفتعلة:

– لي صديق جيد جدا وأحبه ويحبني، طلب مني أمرًا، ولا أريد أن أخيب رجاءه فيَّ، يريد كتابة بحث عن الدكتور طه حسين، يقدمه لجهة ما، سأدفع لك مبلغا من النقود، كما تريد، ولكن له شرطا وحيدا، لا تبحث فى الإنترنت عن مصادر ومعلومات، بل تعتمد على الكتب والمقالات النقدية، والبحث لا يقل عن عشرين صفحة. ماذا قلت يا "صلاح"؟.

– هل سأكتب اسمي على البحث؟.

– عهدي بك الذكاء والفطنة، هل عندما تهدي صديقك هدية تكتب اسمك عليها؟

هززت رأسي، لا أعرف بماذا أجيبه؟ هل أرفض وتضيع الفرصة من يدي، أقصد فرصة نشر بكارة أعمالي، هنا كنت لا أفكر إلا في روايتي الحبيسة لديه، أو أوافقه الرأي وهنا أنتهج ذات النهج الذي اتبعته مع "ياسمين"، للأسف تم الاتفاق وتحديد المدة التي أستطيع إنجاز تلك المهمة خلالها، كان الاتفاق على مدة عشرين يوما، وسأتيه بأسطوانة مدمجة عليها البحث ونسخة ورقية مطبوعة، خرجت من عند الدكتور أعصر رأسي بقوة، فتتزف حزنا وغضبا، لماذا أنا دون غيري، هم يجيدون الرسم والتحايل، يستبدلون جلود وجوههم بمساحيق براقة، متنوعة لا نعرف هويتهم الحقيقية، لماذا يعتصر الندم ضلوعي الآن؟ الجبن الذي يوجد داخل المصيدة، بدأت أشعر بتغير طعمه، بل أجده داخل فمي لاذعًا.

ارحموا من يذوب رأس ماله، كان صوت تاجر الثلج وسط السوق في تلك القصة المعروفة للجميع، عندما اشتدت الحرارة في هذا النهار، وبدأت تذوب قوالب الثلج، فصرخ في الجميع بهذه الجملة يطلب من الناس أن ترحمه وتشتري بضاعته، وما سقط من قطرات الماء هو نادم عليها، لكن أراد أن ينقذ نفسه من خسارة كل رأس ماله، هل أستطيع أن أحذو حذوه، وأقول لياسمين هيا ابتعدي عني، وأقول نفس الأمر للدكتور:

– مر عامان وأنا كذيل لك، لم أستفد منك شيئا، هل صحبتكم سيدي الناقد، وحمل حقيبتكم وإعداد القهوة لكم، هو الأمل المنشود؟.

كدت أن أنساك يا صغيري، لأنني أشعر بالضيق قبل أن أنتقل لصفحة وأحداث جديدة:

– صغيري، عندما يجور عليك الزمان؛ كن كبائع الثلج، ولا تكن كبائع الكلام، الأول شجاع، والثاني ارتضى لنفسه أن يكون جسرا لتطأه النعال، إياك أن تكون شمعة تتصهر لأجلهم، اعلم يا صغيري، أن البكاء على القبور لن يحررنا من ربقة ذل النهايات.

6

ما الذي جعلني أحزن وهي سعيدة، أنا الذي اخترت هذا الطريق، قد زفت لي البشرى وهي تمد يدها نحوي بنسخة مطبوعة من مجموعتها القصصية الأولى، ها قد جاءت من المطبعة بعد طول الانتظار على حد قولِها، "ياسمين جعفر" تستطيع طباعة العمل الأول، سعيدة تتقافز كطفلة تمسك بيدها لعبة تحبها، تريد أن تشارك الجميع فرحتها، أعطت أصدقاءها نسخا من كتابها الجديد، ثم نسخة للنادل الذي هنأها ثم شكرها، أخذها منها وهو ينظر لصورتها التي تزين ظهر الغلاف، صورتها الجميلة تزيد نسبة المبيعات، جلست توقع للجميع وتتمنى لهم أجمل الأمنيات، ثم تختتم توقيعها باسم الكاتبة "ياسمين جعفر"، لم أكن أعلم بأنني أضع لبنات لبناء جدار غيري، ولم أنتبه للأمر إلا الليلة، صبي الأديبة لماذا يشعر بالحزن؟.

جلست على مقعدي باهت الوجه، أراقب ما يحدث من حولي، العرس قائم والجميع سعداء وبعضهم يتصنع الفرحة، وأنا صامت مصدوم مما يحدث، هن تقام لهن الأفراح والحفلات ويتلقين الإعجاب كزخات المطر، ونحن الصعاليك للمآتم خلان، تنهشني الظنون وتأكل نار الحسد قلبي، تراقبني بنصف عين صديقتها التي رفضت مراجعة عملها، تبتسم ابتسامة كالخنجر تطعنني في قلبي.. يزداد وجهي اكفهراراً، في محاولة يائسة مني لعدم ترك المجال للشامتين، أمسكت نسخة من مجموعتها القصصية، أنظر إلى الصفحات لا أستطيع قراءة حرف واحد، حتى عندما حاولت الهروب اخترت طريقها، لا أدري هذا غباء أم حماقة أم كلاهما معا؛ أتنهد وألقي بالكتاب بقوة على المنضدة أمامي دون أن أنتبه لعيونهم التي تترصدني، تلاحظ ياسمين ما يحدث اقتربت مني، ربتت بيدها على كتفي، قالت لي وهي مبتسمة:

– الفضل الأول إليك يا صديقي العزيز.

هل تكفيني هذه الكلمات منها، وهل هذا هو الجزاء الذي أستحقه، اليوم تنعتني بالصديق، وهل أنا صديقها كعديد من الأصدقاء، هل جميعهم يقبلونها كما فعلت، أم أنا حبيبها؟ هناك فرق شاسع بين الصديق والحبيب يا أيتها الأديبة المفتعلة، الصديق يعيش بجوارك، لكن الحبيب يعيش بداخلك، والزوج يفعل الأمرين معا، كانت بيننا أحلام وقبلات مشتركة، هي الرابحة بكل تأكيد في ميزان التقييم، رابحة ومبدعة في عيون الجميع، تاج العُلا يزين مفرقها، وأنا أخذت ثمن جهدي داخل المصعد الكهربائي، بعض التنهيدات ونار الشهوة التي كادت أن تحرقني، هدأت بمجرد أن ارتعش جسدي بتلك اللذة الباطشة الزائلة الفانية، عندما انتهيت كان قد وصل المصعد إلى النهاية،

لماذا لا أتعلم الدرس إلا عند النهايات فقط، هي بلا مشاعر وأنا صرت صاحب بلاهة، لا أنتبه للإشارة ولا تحذرني العبارة، هل ستستمر الأمور على هذا النحو، أحتاج إلى ثورة لكسر قيد استسلامي الذي يكبلني، تذكرت موقفها السخيف منذ أيام عندما كنت في حاجة للمال، راتبي وقدره ألف ومائتا جنيه لا يكاد يكفي احتياجاتي، فضلا عن ثمن إيجار الشقة والفواتير والطعام، كان ينفد قبل نهاية الشهر بأيام؛ كما نفدت نقود بيع أرضي، وجاءت لي هي وصديقتها تطلب مني أن أراجع عملاً لصديقتها، وأفعل له كما فعلت لمجموعتها القصصية تصحيحا لغويا فقط؛ هي تصر على تأكيد أنه تصحيح فقط قالتها أكثر من مرة، كأنها تريد أن تنفي تهمة عن نفسها، أو ما أقوم به من إعادة صياغة لأعمالها، فهذا حق مكتسب لها هي فقط، وأنني سآخذ مبلغ قدره خمسمائة جنيه نظير هذه المراجعة، كانت البداية مع هذا البحث الذي كتبته عن الدكتور طه حسين، وقد اكتشفت بعد ذلك أن صاحبه تقدم به لأخذ منحة من الدولة لعمل مشروع أدبي كبير عن العميد، إنهم ظلموك سيدي العميد، عميان القلوب يكتبون عن حياة مبصر، بعد ذلك راجعت عملا آخر لصديق ثانٍ للدكتور، ثم الثالث والرابع... إلخ. وكانت البداية. ولكن لا أعرف متى ينتهي هذا الأمر المهين لي، صرت مثل رجال الظل، ولكن ليس أنا الحاكم الحقيقي، جعلوا لي طوقا حول عنقي، مثل طوق العاهرات الذي كان يوضع حول رقبتهن في العصور القديمة، طعم الجبن يا صغيري، داخل المصيدة صار نتنا.

ليلتها قصدت شقة الدكتور "شكري عبادة"، أحمل بين يدي نسخة من مجموعتها القصصية، تركت الكاتبة "ياسمين جعفر" تواصل احتفالها داخل هذا المقهى، لم تهتم بي أثناء الحضور وكذلك عندما قررت الانصراف تجاهلتني، ذهبت أحمل أحزاني على عاتقي وحيدا، ذهبت إليه دون سابق موعد، بل كنت أشعر بأن براح الدنيا ضاق بي، ذاهبا أحمل الكثير من الندم والألم، الذي لا يشعر به إلا إنسان جريح كسير القلب، أجرجر قدميَّ؛ نعم اليوم أجرجرها كأني صاحب عاهة، أتذكر عندما رحلت من قريتي كانت أقدامي لا تلمس الأرض، من فرط الهرولة وتعجل الرحيل، يجب أن أضع النقاط فوق الحروف، يجب عليَّ ألا أرهق نفسي في انتظار هدفي؛ بل أعمل من أجله، الانتظار مذلة، الحياة تعطي بقدر المكافحة، والنجاح لا يأتي للجالسين على أرصفة الطرقات يستجدونه، قد أضعت من عمري عامين وأكثر، وأنا داخل مصيدة الدكتور الناقد، ياسمين فتحت لي باب المصيدة، والناقد أحكم غلقها، يجب أن أعلن تمردي عليهما، القاهرة مليئة بدور النشر والمنتديات الثقافية الجيدة، التي إن ذهبت إليها سأكون مشاركا لا مشاهدا فقط، لماذا لا أجرب دروبًا أخرى أسلكها، كنت ظمآن، فشربت أول كوب ماء منحني إياه القدر، شربت حتى

ارتويت، ولكن اكتشفت أنه ماء ملوث، كلهم ملوثون يا صغيري، شعارهم الشرف وأفعالهم سفول وانحطاط، كل هذه الظنون والأفكار تراودني وأنا أسير نحو شقته، مدفوعًا بنار الغيرة والحسد.

– أريد روايتي التي عندك.

قلتها بحزم للناقد الكبير.

تبسم ساخرا من وجهي الحزين، قال دون اهتمام:

– قم أبحث عنها بين تلك الأعمال المتراكمة ستجدها.

قمت فتحت درفة الخزانة الخشبية، وجدت أكثر من مائة عمل موضوع على أرففها، وكلها مخطوطات أصحابها جميعهم يستجدون النجاح وينتظرون على رصيف الأمل، هنا أكثر من مائة حلم مدفونة بين أدراجها، كساها غبار اليأس، أمسكت بمخطوطتي نفضت التراب عنها، وتيقنت أن الدكتور لم يقرأ منها شيئا، وما قاله عنها المرة الفائتة ما هو إلا استنتاج عندما حدثته عنها وقتما أحضرتها إليه، قرأت العنوان بصوت مرتفع.

– رواية رحلة بلا ثمن.

نظر الناقد إلى نظرة ثقة:

– لا شيء يضيع عندي.

هززت رأسي دون اكتراث بما يقول، أحتضن مخطوطتي أرفع أنفي إلى أعلى، ثم أعيد غلق درفة الخزانة محاولاً الانصراف، جاءني صوته وهو واثق بنفسه:

– أين ستذهب بها، هل تريد سماع رأيي فيها؟، أظنك اليوم لا تهتم بذلك، قد فقدت الأمل.

هنا توقفت معطيا ظهري له.. هو يجيد لعبة العصا والجزرة، يمارسها بحرفية عالية، لا أعرف بماذا سأجيب عليه ولكن صمتي الطويل، جعله يواصل حديثه:

– قلت لك من قبل لا تتعجل وهذا كان شرطي، عندما أنتهي من قراءتها سأقول لك ملاحظاتي إنها أمانة يا بُني، قد وثقت بك وأدخلتك بيتي، وجعلتك أمينا على حياتي الخاصة، هل هذا جزائي منك، أن تعلن تمردك عليَّ مبكرا، قبل أن تجني ثمار إخلاصك، أحبك وأحب قلمك وأنك مشروع أديب جيد، ينقصك القليل، ومع بعض التوجيهات ستصل لهدفك، أعلم أنك تشعر بالقهر والحزن؛ لأن من تكتب لها قد استطاعت أن تطبع عملها الأول، لنرَ بعد بضعة أشهر! وراقب نتيجة عملها بعين رأسك، هشيم تذروه الرياح، هي تملك النقود، وأنت تعلم أن راتبها أضعاف راتبك، هي دفعت قيمة منتجها، البعض يشترى نجاحه ولا يعمل من أجله، وهو نجاح وهمي وهم يعلمون ذلك، لكن هل سيعيش منتجها الأدبي وسيضيف شيئا جديدا لدى القارئ، أنت تعلم جيدا أنه يوجد أديب

مفتعل وأديب مطبوع، أنت أديب مطبوع تملك القدرة على الخلود؛ فتريث حتى تستطيع أن تطلق أول سهامك وتصيب الهدف، كثيرون يطلقون سهاما كثيرة مدفوعة بقوة المال والمحسوبية ولكن كلها تخطئ، كلما تأخر النجاح جاء كبيرا، والحقيقة التي يجب أن أقولها لك، لا مقارنة بين من يملك المال ومن يملك الموهبة.

عدت للجلوس على مقعدي، منزويًا على نفسي متقهقرا، ناظرا إلى الأرض، سمعت صوت قداحته يشعل سيجارة، يصل دخانها إلى أنفاسي يشعرني بالاختناق، ثم واصل الحديث:

– هيا أرحل بهذا العمل، أذهب به كما فعلت مع عملك الثاني لصاحب دار النشر، النتيجة والجواب معلومان ومكرران وسخيفان، كمزحة سمجة، يبدأ قوله وهو ينظر إلى وجهك مبتسما ابتسامة مفتعلة؛ "عملك جيد" تنفرج أسارير وجهك وتشعر ببارقة الأمل، يأتيك النصف الآخر من الجملة وهو ناظر إلى الأرض "لكنهُ لا يتوافق مع سياسة الدار" هنا تذهب عنك كل الأمنيات أدراج الرياح، ينتهي هذا المشهد العبثي بإسدال الستارة السوداء. لكن الحقيقة يا بُني هذا تخريف وهذيان لا يتناسبان مع مثقف مبدع حقيقي مثلك، لا يوجد إلا عمل جيد وعمل آخر رديء، أما سياسة الدار هذه لا علاقة لها بالأدب، بل هي رفض بطريقة دبلوماسية، نلبس الأشياء لباساً غير مناسب، كما هو حال المسئولين عند وقوع الكوارث في العالم الثالث، عندما تحدث حادثة قطار سكة حديد، يخرج علينا رئيس الأرصاد الجوية يحدثنا عن سوء حالة الجو، إنها سياسة رأس المال الجبان، عندما يتحكم رأس المال في الإبداع فإننا نعالج الجرح بالبكتيريا القيحية، هل رأيت غباء أكثر من هذا، هيا اذهب وأرسل عملك إلى إحدى المسابقات، إما أن يقتسم معك أحد حكام اللجنة قيمة الجائزة، كنوع رخيص من المساومة، أو تنتظر عاما كاملا، وفي النهاية تستيقظ على كابوس الفشل، هناك اعتبارات كثيرة غير جودة العمل تتحكم في الأمر، عندما يتقدم إلى جائزة عربية ألف عمل، أليس من بينهم مائة أو مائتان تستحق الجائزة، الأمر معقد وصعب جدا، من الممكن أن يكون عملك جيداً، لكن لا يتناسب مع ذائقة المحكمين، ومن الممكن أن يكون عملك جيداً، ولكن الوقت لا يسعف لجنة التحكيم لقراءة كل الأعمال، هو جيد لكن به عوار سياسي أو عرقي أو ديني، هو مثير للفتنة، وهم يدركون جيدا أننا أمة لا تقرأ أي عمل هذا الذي يؤجج الفتنة، وأفعال سادتهم الساسة تخمد الفتن، يديرون ظهورهم عنك ويبحثون عن أصحاب الأقلام المشهورة، حقيقي الأمر غير مفهوم، عندما نقرأ بعض الأعمال الفائزة مقارنة بينها وبين بعض من التى لم يحالفها الحظ، نجد الأمر به عوار كبير، فاز من له نصيب في الفوز، هكذا عندما نفشل نسلم الأشياء للقدر.

أشعر بالصدق فيما يقوله الرجل، وهو يضع نفسه بين هؤلاء دون خوف، يقف على ميزان التقييم دون خوف من النتائج، ألم يكن هو أحد أعضاء لجان إحدى هذه الجوائز؟، الرجل يعرف كيف يعزف بأنامل رقيقة على لحن العوز والحاجة، شعرت أنني مذنب في حقه، أجل أنا متهور ومتحمس همست بها في سريرتي، يجب أن أسلم له مقاليد الأمور، وأن أضع يدي على إحدى عيني، تبسم وهو يأخذ من يدي روايتي مرة أخرى:

– لا تتعجل، يجب أن تكتسب الخبرة داخل هذا الوسط، عاجلا أم آجلا ستأتيك الفرصة، خذ هذا المفتاح.

– ما هذا المفتاح؟.

عقد جبينه، يواصل حالة الجدية التي يتحدث بها:

– هذا مفتاح شقتي، أنت الوحيد في هذا العالم الذي تملك نسخة منه، أخشى أن أموت وحيدا بهذه الشقة، هيا، اذهب واكتب، ولا ترحل بعيدا عني، يجب أن تتواصل معي كل أربع وعشرين ساعة إن لم ترني، هناك أشياء لا يدرك قيمتها المرء إلا في النهايات، وأنا رجل تجاوزت الخمسة والستين عاما، أدركت الآن قيمة أشياء تجاوزتها من أجل الهدف، يجب علينا أن لا نخالف فطرتنا من أجل أن ندرك ملذاتنا، حينها تذهب نشوة الملذات ويبقى الندم يحاصرنا.

حملت هذا المفتاح وتركت الرجل وحيدا وعيناه دامعتان، يشعر بمزاج سيِّئ ؛ نعم تركته على هذه الحالة المزرية، يبدو أني دون قصد نكأت جروحاً قديمة، كان يخفيها خلف بريق الشهرة، تركته وحيدا وكذلك ذهبتُ وحيدا، الوحدة شيء محبب للمبدعين، لكن عندما يجبرون عليها تكون عبئاً جديداً فوق همومهم، سرت في شوارع المدينة التي أمست أجمل ليلا، السيارات تمر بجواري مسرعة، الجميع لا يبالي بهذا السائر على قدميه، ماذا يحمل على عاتقه، أتنقل بين الأرصفة وواجهات الحوانيت، أعيد شريطاً من الأحداث مررت بها، وكيف للرجل القوي الضعيف هذا الناقد المغوار، يخاف الوحدة رغم شهرته، هنا يجب عليَّ مراجعة النفس ومحاسبتها، وأن ليس كل ما يلمع ذهبا، الشهرة بريق مزيف ولمعان خادع للأبصار.

هنا يا صغيري، تعلمت درساً جديداً في هذه الحياة، عليَّ تجاوز حزني وحيدا إن استطعت فعل ذلك، لا يوجد على وجه الأرض شخص ينال مني، لا أنتظر من الكتابة نعمة، ممارستها بين جدران غرفتي وحيدا هي نعمة كبرى، دون ذلك فهي أشياء ثانوية تأتي أو لا تأتي، ولا أكتب إلا الشيء الذي يجعلني سعيدا، الكتابة للنفس متعة حقيقية لا يشعر بها إلا أسوياء النفوس من

المبدعين، عندما تكتب ما تحب سيحب الجميع ما تكتبه، عندما يعجز لسان الكاتب عن القول يكون قلمه هو لسانه.

لا أعرف إلى أين تأخذني قدماي الهزيلتان، مررت بتمثال الأديب نجيب محفوظ، تمثال الرجل يقف شامخا، صنع التمثال من البرونز ارتفاعه ثلاثة أمتار، يحمل الجرائد وبيده عصا يتوكأ عليها، كساه التراب والإهمال والقاعدة الحجرية متسخة من فرط الإهمال وعوامل التعرية، يجلس شابان على الحشائش المحيطة يبدو على هيئتهما التسول، أو يرتديان زي العمل ملابس قديمة، يتبادلان السجائر، انصرفت عنهما إلى الجانب الآخر، وضعت كتاب المجموعة القصصية للكاتبة "ياسمين جعفر" تحت مؤخرتي وجلست عليه، هذا فعل سيِّئ مني لكن كانت الجلسة عليه مريحة، خصوصا أني أعاني من اضطرابات في القولون العصبي، الذي يسبب خروج الغازات بكثرة، لملمت أشلاء الذكريات أجتر كلمات الناقد، أردد ما حفظته منها، تذكرت رواياتي والشخصيات التي رسمتها وتحاورت معها كثيرا، أعتصر العقل ليخرج لي عبارات ومشاعر خطتها أناملي على الورق، هل أنا ظلمتهم عندما أخرجتهم من عقلي، ومنحتهم الحياة، هل جنيت عليهم بهذا الفعل المشين، كما جنيت على نفسي عندما هرولت خلف أحلامي، التي أثقلت جسدي النحيل بهذا الحمل الذي أحنى ظهري، أشعر أن روحي حطموها عمدا، لكن لماذا عمدا ولم يكن بيننا صراع مباشر، إنهم يجيدون الحرب بالوكالة، تسيطر عليَّ مشاعر انهزامية، هل أصبحت أتقن دور الضحية؟، ولم أكن يوما حاقدا أو حاسدا، لكن الحقيقة أنهم يصنعون لعبة اليانصيب، يروجون لها ببعض الدعاية البراقة، نحن نشترى تلك الأرقام المتسلسلة، وقبل عملية السحب يوصون الفائز بإتقان دوره، أن تتساقط دموع الفرح من عينيه، أن يحسن أداء دور المتفاجيء، ثم بعد الحفل يجتمعون مرة أخرى لتقسيم نقود الجائزة، هذه حقيقتهم وهذه حقيقتي، هم يعرفون كيف يتلاعبون بالأحلام، ويجعلون منا عرائس ماريونيت.

يا صغيري، لا تجعل مستقبلك مرهوناً بهم، بل حاول أنت أن تصنعه بقوة ساعدك.

شعرت برجفة شديدة تجتاح جسدي، لم أستطع القيام والذهاب إلى شقتي، نظرت إلى تمثال الأديب نظرات عتاب واستجداء، الخوف كل الخوف من هذا المستقبل المجهول، وهذا الظلام المحيط بي من كل جانب، رغم أنفي واصلت البكاء، ولا أعلم سر بكائي حينها.

صغيري، لا تنتظر مني النصح هنا، لأن دموع المرء هي أكبر عظة وعبرة..

7

لماذا جاءت؟ ما الذي دفعها أن تقوم بهذه الخطوة؟، "ياسمين" داخل شقتي ها هي جاءت في الواقع وكانت منذ دقائق سيدة أحلامي الجنسية، كنت أَقْبَلُهَا والأمر امتد إلى أكثر من ذلك، هل كانت تعلم أني كنت أضاجعها منذ لحظات، اللعنة على هواجسي وعلى عقلي الباطن الذي سيدمر كل الثوابت، هل تحول الأمر إلى علة لا أستطيع الخلاص منها، الخيال لدى الجميع نعمة، لكن في حالتي نقمة، كيف الخلاص يا إلهي، وهي تقف أمامي، رغم الألم الذي أصابني جراء أفعالها، لكن كطبيعة عشاق هذا الزمان من أشباه الرجال، لوم الحبيب غزل، وضرب الحبيب على القفا دلال، والبصق على وجهه كماء الورد يرطب البشرة، أتنهد بقوة من هذا الخنوع الذي أمارسه دون حياء ونخوة، اللعنة على شبه الرجل الذي يضع كرامته تحت حذاء جميلة من الجميلات، إن خذل رجولته فقد أضاع الفطرة الإنسانية السوية، وعندئذٍ لا يلومنَّ إلا نفسه.

مر أسبوع وأنا أتعافى مما حدث معي منذ أن جلست وحيدا عند تمثال الأديب، أشكو له حالي وحالنا، لماذا رحل ولم يضع نهجا نسير عليه، حتى الراحلون لا يسلمون من حالة النقم التي أعيشها، هل "ياسمين" تعرف حقيقة ما دار بيني وبين الناقد، يا ليتها تعرف! يا ليتها تدرك حقيقة الأمر! لكن أصحاب الجلود السميكة لا يهتمون بهذه الأشياء، ويعتبرونها من صغائر الأمور، هم يعتقدون أن الشمس تشرق لأجلهم، هي تعلم أني أحبها، وللأسف لا أريد أن أعلم أنها لا تحبني، شيء مقيت أن تهرب من الحقيقة الواضحة أمام عينيك، ما أفعله دربا من دروب الخنوع والمذلة، تذكرت قول الشاعر في محبوبته التي يحبها:

أحبها ولا تحبني لكنها دائماً تمتدح صبري
ولا تعرف أن برودة أعصابها تحرقني
تقول إني أعدل ابتسامتها بمنطقيتي
ولا تعرف أنها ألغت بابتسامتها منطقيتي
تشكرني لأني أرتب الأوراق
وهي التي علمتني فن اللامبالاة(**)

كنت قد تغيبت عن العمل، الذي كنت أنتوي تركه بمحض إرادتي، جاءت هي بالخبر اليقين بأنني سأتركه رغم أنفي، بعد أن بيع الفندق لمستثمر عربي كبير، بيع بحفنة دولارات، رغم انبهاري بهذا المبنى القديم، الذي يشبه القصر المنيف الذي يتمتع بروح التراث والأصالة، يوم أن أخذتني من

(**): شعر نزار القباني.

يدي كطفل يحبو أولى خطواته، وعرفتني برئيسي في العمل، أوصته بأن يهتم بي لأني قريب لها، هز الرجل رأسه بابتسامة تمنِّي ورغبة رأيتها في عينيه تجاهها، وهو مسكين كحال كل الرجال الذين ينكبون على وجوههم أمام الجميلات، يا حبذا لو كانت هذه الجميلة ليست زوجته، إننا ضعفاء أمامهن لأنهن يمثلن قوى الشر على وجه الأرض، منذ أن سمحنا لهن بترك مقاعدهن ومعدل الجريمة ارتفع، والحروب كثرت والكوارث الطبيعية والبشرية في ارتفاع متزايد، لا أمل في الإصلاح، فلننتظر النهاية البشعة لنا جميعا، واليوم يجب علينا أن نعترف بكل شجاعة؛ أن المرأة هي سيدة العالم والرجل تابع لها، لأنها تملك مفاتيح كل الأبواب الموصدة، وللأسف الرجل يظن أنه هو السجان، ولكن منذ أكل أبونا من تلك الشجرة وقد دفع بنا داخل سجن الحياة، وهن السجانات اللاتي يملكن مفاتيح أبواب المتعة في هذه الدنيا، لو رفض أبونا أن يأكل من الشجرة كنا رفضنا جميعا التبعية، لكن هذه إرادة الله أعطانا القوامة لخدمتهن، وأعطاهن من الحماقة قدرًا لا ينتهي، نفضت عن رأسي هذه الأفكار السوداوية العدوانية.

جاءت "ياسمين" تحمل بعض الأخبار، قالت وهي تشعر بالأسف: بأن المستثمر سيبني كتلة خرسانية من أربعين طابقاً أمام هذا المبنى التحفة المعمارية، ثم واصلت على مضض بأن العمل مستمر في المبنى القديم حتى الانتهاء من بناء الفندق الجديد، لكن الخبر السيِّئ الذي يخصك، أنهم سيتخلصون من كل العمالة المؤقتة التي هي بعقود محددة المدة؛ لأن الفندق سوف يقلل النزلاء إلى النصف، هذا هو الكلام المتداول بين مديري الأقسام، وقد أكد لها أكثر من مدير حقيقة الأمر، وهذا الأمر سيتم تنفيذه في نهاية هذا الشهر، ثم انتهت جملة أخبارها السيئة، بهذا السؤال:

– أين أنت؟ منذ أسبوع لم أرك، أصابني القلق عليك.

قلت ساخرا منها ومن مشاعرها التي ظننت أنها مفتعلة:

– كنت أشعر ببعض التعب، وأنهيت عمل صديقتك ها هو.

مددت لها يدي بالمسودة المنقحة، أمسكتها بغضب ووضعتها بجوارها على المنضدة، ثم هدأت قليلاً، وتبسمت ابتسامة لا أعرف حقيقتها إن كانت صادقة أم لا:

– أنا أريد أن أطمئن عليك.

هززت رأسي بدون اكتراث بما تقول، إنني بخير والحمد لله، كعادتها تتدلل عندما تريد مني شيئا، سألتها ماذا تشربين؟ لم تجب عليَّ، وظلت صامتة، هل تفاجأت بعدم اهتمامي بزيارتها، رؤيتها أصبحت شيئا عاديا، لم أقابلها بشغف أتطلع لعينيها، وسيل متواصل من كلمات الغزل كما اعتادت ذلك مني، هل انتهى طعم الشوكولاتة من فمي أم اعتدت على هذا الطعم المثير فلم يعد

مثيرا؟ بدأ القلق على وجهها، هل هي شعرت بأني لم أعد ملكية خاصة لها، لذلك خافت أن أتمرد عليها، هكذا النساء يتمردن عندما يمتلكن الرجال، وتتوقف عن عطائها، وتقفل باب جنتها في وجهه، فنصيحتي لك يا صغيري، لا تُشعر المرأة بأنك ملكية خاصة لها، هنا ستدفع الثمن باهظا.
ظللت على موقفي كأنني جلمود صخر، كنت متكئا على أريكة للخلف، رافعا يدي خلف رأسي وقد شبكت أصابعي، أنا لم أتحرك قيد أنملة ناظرا للأمام، أتحاشى نظرات عينيها وأهرب منها بعيدا.
اقتربت مني جلست بجواري، ووضعت يدها على فخذي، تتحدث كأنها تتأوه من فرط اللذة، قالت وهي تتنهد بقوة:
– آه منك يا صلاح عندما تضع على وجهك القناع الخشبي، الحقيقة دمك ثقيل جدا، جئت لأطمئن عليك تعاملني هذه المعاملة القاسية، ماذا فعلت لك؟.
هنا ارتعش جسدي وشعرت برغبة في أن أقبلها، لكن تماسكت وظللت على موقفي، لم أفطن إلى أن غريزتي الحيوانية تحركت رغم أنفي، بعد أن لفحت أنفاسها وجهي وعطرها داعب وجداني، إنها سيدة الكون ولديها من الأسلحة ما يدمرني، ومن الممكن أن تجعلني أتلاشى بعيدا، أو أتحول من حالتي الحجرية إلى قطعة من العجين، أخرجت من حقيبتها قدَّاحتها، لا أعلم إن كانت أسقطتها على حجري بقصد أو بدون قصد، أخذتها بسرعة قبل أن أمد يدي إليها، ولا أعلم أيضا إن كان بقصد أو بدون قصد، مررت أناملها على عضوي في حركة سريعة جدا، أخشي أن يكون ما أشعر به هذيان مصاحب للحالة المرضية التي أعيشها، لكنه للأسف حقيقة، اعتدلت في جلستي من بعد أن كنت متكئاً بظهري للخلف، ألملم ما تبقي مني من صرح مقاومتي لهذه الجميلة، هذا الصرح مثل الكثبان الرملية في مقاومة الماء ينهار بسرعة، كما انهرت عندما التقمت شفتيها الناعمتين، قبلة طويلة وعميقة، ما تضعه من أحمر شفاه كان طعمه لذيذا ومثيرا، مددت يدي إلى نهديها، ونحن نختلس لحظات المتعة من هذا الزمن البغيض، سيدتي فتحت أبواب جنتها لي، العبد المسكين دخل مهرولا ينكب على وجهه، يعلن أنه تاب عن كل الظنون السيئة بهذه السيدة ذات القلب الرحيم.
ولأنها سيدة هذا الزمان، قفلت الباب الأخير قبل أن ألجه، وقالت بصوت حازم توقف وإلا.. كان يجب أن أتوقف وتوقفت مجبرا على ذلك، لملمت بقايا كرامتي مع ملابسي التي أعيد هندامها، وهندمت هي الأخرى ملابسها دون النظر إلي وجهي المصفر، وَيَدِي المرتعشتين وقلبي المحترق شوقا، غريزتي تكاد تفقدني القدرة على السيطرة على نفسي، أحاول ضبط النفس، هي سريعة التحول لها قدرة عجيبة على التحكم في مشاعرها، ومن قال لي إنها تفعل هذا الأمر بمشاعر،

أشعر أنها كممرضة غرزت سن حقنتها بجلدي، وأخرجتها دون الإحساس بمقدار الألم الذي أصابني، أدت وظيفتها ولكن لم تعطني قطعة من القطن أضمد بها الجرح الذي تركته بعد ذلك، رفعت وجهها مبتسمة ثم قالت:

– أشعر بالجوع ماذا يوجد داخل الثلاجة أو بالمطبخ ممكن أن نأكله.

حياة الرجل العزب فوضوية، وهذه الفوضى تعرفها عند دخول المطبخ، تجد الأواني ملقاة داخل حوض الغسيل، كميت داخل ثلاجة الموت، ينتظر من يحمله لمثواه الأخير، وأكواب الشاي المتسخة شاهد عيان على حالة الفوضى، هززت رأسي كي استفيق من نشوة المتعة، همهمت بصوت أقرب للهمس: يوجد قطع دجاج.

– هل يوجد عندك مكرونة؟.

هززت رأسي بنعم، خلعت عنها قميصها، ثم طلبت مني أن أريها مكان هذه الأشياء، دخلت إلى المطبخ وهي تتبعني، مشيرا إلى مكان الزيت والملح وما تبقى من أشياء على هذه الأرفف، ثم قالت بحزم أن أترك المكان لها لمدة نصف ساعة، هذا المطبخ الضيق لا يسعنا معا، وهي ستصلح هذه الفوضى، قالتها وهي تتأفف، وقفت مكاني رفضت معللا بأني أنا من سيطهو لها، هزت رأسها بالرفض ضاحكة:

– أنها غير مستعدة لعملية غسيل معدة، ألم تشتق لطعام من يد امرأة؟.

تحركت ببطء شديد مترددا، اقتربت ضاحكة ثم ضربتني على مؤخرتي، وأن علىَّ الإسراع في الخروج، ما فعلته جعلني أهرول إلى صالة الشقة، وبعد ساعة بالتمام كنت قد أخذت حمامي اليومي، وتناولنا طعامنا معا، هي قليلة الأكل كثيرة الكلام، عندما سألتها عن ذلك، أنها تحافظ على رشاقتها، أما كثرة الكلام فهي لا تتحدث كثيرا إلا مع من تحبهم، هنا التقطت طرف الخيط، هل تحبينني يا "ياسمين"؟، صمتت ولم تجب على سؤالي، ثم أرادت تغيير مجرى الحديث:

– ماذا ستفعل الآن إن طردوك من العمل؟.

قلت بصوت شجاع:

– إن لم يطردوني كنت سوف أرحل عنهم، كنت أنتوى فعل ذلك منذ فترة، سوف أبحث عن عمل جديد، وإلى أن يأتي هذا العمل الجديد، عندي بعض الأعمال التي سوف أنقحها، أقتات منها، بعد أن ذاع صيتي وسط المجموعة، بأنني مصحح لغوي جيد، لن أذهب للعمل مرة أخرى.

قالت ضاحكة:

– تنقيح فقط أم إعادة صياغة.

– أنا لا أكتب لأحد، بل تنقيح فقط، والكاتب أو الكاتبة اللذان يبحثان عن أحد يعيد صياغة أعمالهما فهما لصان وليسا بكاتبين.

امتقع وجهها، وتجاوزت عن النصف الثاني من الجملة، ثم وضعت كوب الشاي أمامي على المنضدة، كاد ثديها يلاصق وجهي، ثم قالت بدلال:

– هل تقصد أني حرامية.

– طبعا أنتِ لصة كبيرة.

أصابتها الدهشة، ولكني تراجعت بأقصى سرعة، مازحتها:

– طبعا لصة قلوب! سرقتِ قلبي منذ أن رأيتكِ في الندوة تقتربين مني.

قمت من مكاني حاولت تقبيلها، ابتعدت عني بدلال، أمسكت بقميصها الذي خلعته قبل إعداد الطعام، وقالت إنها تأخرت ويجب عليها الذهاب، ثم مدت يدها داخل حقيبتها الخاصة أخرجت حزمة أوراق، مشيرة إليها أنها مجموعتها القصصية الثانية، تريدني أن أفعل بها كما فعلت مع مجموعتها الأولى، هنا شعرت أنها أهانتني! هي تستبدل القبلات بالصفعات المتواصلة، بل بصقت على وجهي، الآن فقط أدركت حقيقة مجيئها، الثمن بخس جدا يا "ياسمين"، تجيدين اللعب بي ككرة تركلينها بقدمك دون رحمة، وعندك يقين أنها ستعود من الاتجاه الذي ركلت منه؛ لأن القدم التي ركلتها تجيد التسديد، أخرجت مبلغا من النقود ووضعته على المنضدة مع الأوراق، وانصرفت وهي تبتسم لي كممثلة مشهورة، تبتسم لجمهورها ابتسامة متكلفة دون مشاعر، لم أسمع شيئا بعد ذلك سوى صرير الباب يقفل خلفها، لم أستطع التقدم للخروج معها إلى أول الشارع، كأن قدمي شلت، والحقيقة كرامتي هي التي تلاشت، كل الأشياء يا صغيري، من الممكن أن نشحذها إلا الحب.

نصيحتي لك، لا تغرك المقدمات؛ لأن بعض البشر يضعون على لسانهم العسل، وبأيديهم الخنجر المسموم، فلا تتفاءل بالبدايات حتى تصل إلي النهاية، عندما تصل لا يحتاج الأمر منك لتقييم، النتائج وحدها ستكفيك، إنهم يراوغون كما يراوغ الثعلب، فاحذر ولا تكن سريع الحكم، حتى لا تسقط أو تكون ضحية داخل المصيدة.

8

كما قلت يا صغيري، لا تفرح بالبدايات، مرت أيام قلائل كانت صعبة جدا بعد أن تركت العمل، وأصبحت دائم البقاء داخل البيت، لا أخرج إلا لقضاء أمر مهم، تسليم عمل لصاحبه أو صاحبته، أو شراء بعض الضروريات، كنت قد استغنيت عن الرفاهيات، يجب أن أمارس التقشف، كنت في حاجة شديدة للنقود، ومن يكن في احتياج دوما، فهو صاحب قدم مرتجفة وثقيلة، شعر صاحب الشقة بالملل من كثرة الحجج؛ لأنني توقفت عن دفع الإيجار منذ شهرين، وكل مرة أخبره بحجة أو عذر مختلف عن الذي سبقه، كنت أخشى أحيانا أن أكرر بعض الحجج، لذلك اقترحت كلما دق الرجل الباب، وتحدثت إليه بعذر جديد، أسرع إلى تلك المسودة أكتب فيها عذر اليوم، ينصرف وهو مستاء بعد أن يسمع منى بعضا من الشكوى؛ أصبحت أجيد فعل ذلك، ينصرف وهو يوجه لي بعض التحذيرات، الدرب يضيق بي والحياة تثأر مني، كأننا أنا والحياة كنا في الماضي عدوين، وشريعة الأعداء هي الانتقام، لم أعد زبوناً على المقهى، ولم يحضر أحد يسأل عني منذ أن جاءت "ياسمين"، حتى الدكتور الناقد لم تَتُقْ نفسي للذهاب إليه لمعرفة آخر تطورات عملي الأدبي، رأيته على إحدى القنوات أمس، ضغطت على زر الريموت، وجدت على قناة أخرى مقدم برنامج عن فن الطهو، واصلت البحث وجدت إعلاناً عن حبوب تقوية العملية الجنسية، وبعد الإعلان جاءت راقصة تتمايع بجسدها كأنها حية؛ كانت قناة مخصصة للرقص، هنا تساءلت هل وجد التليفزيون في عالمنا العربي لسد حاجة الفرج والمعدة، كل الإعلانات لا تهتم إلا بشهوتي البطن والفرج، ضغطت على الزر الأحمر منفعلا، أغلقته لكي أريح وأستريح، كان همي البحث عن عمل جديد، لأن مهنة الأدب في بلادنا لا تطعم فأرا، عصر ذلك اليوم ذهبت على وجه السرعة إلى أحدهم أقدم له عمله المخطوط، كانت رواية انتهيت منها لتوي، وقد تواعدنا على المقهى الذي كنت أجلس عليه من قبل، تبادلنا بعض الكلمات عن العمل والسرد والبنية، قدمت له النصح بقدر معرفتي بهذه الأمور، استجاب على الفور وكان سعيدا بهذا الحوار، بين الحين والآخر أنظر إلى يده أتمنى أن يمدها إلى حافظة نقوده، يخرج لي قيمة عملي الذي أديته بحب.

بعد نصف ساعة من الحوار، أعلن الشاب رحيله قام بعد أن منحني النقود ثم دفع قيمة المشاريب ورحل، ظللت جالسا وحيدا، أفكر في حالي، هل سأظل على هذه الحالة، أبحث عن مستقبلي أريد وضع منهج أسير عليه، الأيام تسرقني وتواصل الهرولة والانقضاء، وأنا لم أحقق خطوة واحدة مما جئت من أجله، أيام قليلة تفصلني عن عامي الخامس والعشرين، فما هو جديدي الذي أسعى

لتحقيقه. ولماذا أبحث عن الجديد من الأحلام، وحقيبة الأحلام ملأى بكثير لم أحققه، صوت صاحب البيت في أذني يطالب بقيمة الإيجار، صوت الناقد وهو يقدم نصائحه لي، يشعرني أنه كالطبيب الفاشل الذي أعطاني دواء خطأ؛ لأن التشخيص كان خطأ، لذلك البحث عن البداية الحقيقية التي تقربك من الوصول تحتاج بحثاً مضنياً، المشهد أمام عيني ضبابي، لا أهتم بضجيج المقهى، دخلت غرفة الأنا وأحكمت غلق بابها على نفسي جيدا، سمعت نقراً بأصابع على المنضدة التي أمامي، رفعت رأسي المثقل ووجهي العبوس، إحدى فتيات المجموعة "سها المليجي"، صافحتني باحترام وتستأذن:

– ممكن أقعد؟ أراك منذ وقت طويل تجلس وحيدا.

تبسمت بابتسامة باهتة فلتتفضلي بالجلوس هذا يسعدني، كنت قد التقيت بها عدة مرات مع المجموعة، نتبادل الحوارات الجماعية ونتناقش حول مواضيع مختلفة، وفي كثير من النقاشات كنا نتفق على رأي واحد وسط المجموعة، لكن رغم هذا لم ألاحظ الجانب الآخر منها، كانت "ياسمين" تمثل جداراً خرسانياً بيني وبينهن، لم أتطلع أو أبحث عن طبيعة إحداهن لم يكن عندي فضول لفعل ذلك، كنت أشعر بالاكتفاء عنهن جميعا بوجودها في حياتي. جلست بهدوء، اشتمت أنفي عطرها المريح للنفس، قالت دون مقدمات: المجموعة تفتقد وجودك، وهي لا تعرف لي طريقاً وإلا لكانت أتت لزيارتي، أو رقم هاتفي لتواصلت معي، ولم تستطع سؤال "ياسمين" عني؛ لأنها لا تعرف رد فعلها، هي تعلم أنها حمقاء، ثم سألتني عن حالي. تنهدت بضيق أني أبحث عن عمل، أشعلت سيجارة من علبتها مبتسمة:

– أعرض عليك العمل محرراً في الجريدة التي أعمل بها.

هززت رأسي بدون مبالاة، لعلمي بما يكسبه الصحفي تحت التمرين، لا يقل بؤسا عن كاتب يحاول نشر عمله، أو شاعر يحاول نشر ديوانه من قوت أولاده، أو مثقف أخرسه ارتفاع صوت رويبضة†† هذا الزمان، وما أكثرهم تلك الأيام، رفعت عينيَّ منزوعة الفرحة:

– صحفي تحت التمرين.

– أعلم أن أسلوبك جيد وتملك لغة جيدة، قرأت روايتك التي أهديتها إلى "ياسمين" لكي تسمع رأيها فيها، لم أتطفل عليها وعليك، هل تتذكر تلك الليلة التي كنا جالسين فيها هنا في نفس المكان، أحضرت ليلتها نسخة مخطوطة لها، وبعدها انصرفت مبكرا، وظلت "ياسمين" جالسة بعدك بعض الوقت، ثم قامت في عجالة تحمل حقيبة يدها، وانصرفت وتركت الرواية مكانها، أمسكت صفحاتها

---

††الرجل التافه السفيه يتحدث في أمور العامة

وبدأت أقلبها، أدركت حينها لماذا "ياسمين" تحتويك كأم تحتوي أطفالها الصغار، أخذتها معي للبيت وسهرت عليها لقراءتها بسرعة قبل أن تطلبها ياسمين، لكن للأسف إلى الآن ظلت معي ولم يطلبها أحد..

نظرت إليها منبهرا بما أسمع، قلت وأنا أراقب صفحة وجهها، الذي يبدو جاداً جدا وصارماً، رغم ملامحها الجميلة لكن "ياسمين" أجمل، رموش "سها" طويلة وكثيفة، عيناها متوسطتا الحدقة لكن جميلتان، والعنق طويل وبشرتها ناعمة عندما صافحتها، أنفها مائل للكبر بعض الشيء، بشرتها رائقة بيضاء، ابتسامتها القليلة جميلة، ما شدني أكثر أنها لا تضع أدوات تجميل، جسدها نحيف طويلة القامة ترتدي بنطلون جينز وقميص نصف كم، شعرها طويل وناعم نسمة الصيف تداعبه، وجهها متوسط الجمال، لكن أعجبتني جدا، لذلك سألتها باهتمام شديد:

– هل أعجبتك الرواية بالفعل.

– لا مجاملة في الإبداع، العمل جيد ويستحق الخروج للنور، لغتك متفردة ومنطقة بكر تكتب عنها، رغم سوداوية الأحداث.

تبسمت في وجهها، شعرت بالقلق قالت مستاءة:

– لماذا تضحك؟ هل هذه ابتسامة سخرية أم إعجاب؟

– ترينها ماذا؟

– لا يعلم ما في القلوب سوى من خلقها.

– حقيقي يا "سها" ما تتفوهين به عن روايتي؟.

– قلت لك من قبل لا مجاملة في الإبداع.

– لو يعلم الدكتور شكري ما قلتِه عن العمل.

– لا تهتم برأي الدكتور شكري كثيرا، هو رجل، كل الطرق التي يسلكها غير مريحة، لا يعطي دون مقابل؛ وهذا الصنف من البشر أظن أنك سوف تتعب وتشقى بالقرب منهم.

– وماذا بعد؟

انقبض وجهها مندهشة من سؤالي:

– ماذا تقصد؟.

– لا أقصد شيئا، لكن أول مرة أسمع كلاماً أشعر بالصدق في مجمله، رغم ما تعلمينه عن علاقتي بالدكتور، ألا تخشين الوشاية.

هزت رأسها، تنفرج شفتاها عن ابتسامة سخرية:

– أنت لا تعرف شيئا مما يحاك حولك، أنا التي أخذت "ياسمين" من يدها وعرفتها بالدكتور شكري، بعد أن ألحت عليَّ كثيرا، لكن يا صديقي الوضع كما ترى، وغدًا سوف تكون هي رقماً من أرقام كثيرات دخلن هذه الشقة، وأنت نفسك رقم من أرقام الدكتور الناقد.

– وماذا حدث؟

– لم يحدث شيء. دعك من هذا الأمر، وإن كنت تريد النجاح فابتعد عن طريق الدكتور الناقد، ثم همهمت كأنها تريد أن تصمت لكن تفوهت رغم أنفها: وطريق ياسمين جعفر لا يختلف كثيرا عن طريق أستاذها.

– ممكن تتحدثين معي بصراحة أكثر.

– قلت لك دعك من هذا وانتبه جيدا لمستقبلك، أمامك طريق طويل وصعب، وإن أقحمت نفسك في هذه المهاترات الجانبية لن تتقدم خطوة واحدة.

قامت بعد أن نظرت إلى ساعة يدها:

– سعدتُ بالحوار معك، مضطرة للانصراف.

نهضت من على مقعدي، أطلب منها مرافقتها، فأنا أيضا أريد الانصراف، قالت بثقة إن طريقنا ليس واحدا، أنت أديب وأنا صحفية مبتدئة، مازحتها ونحن نواصل الخطوات على الرصيف المزدحم، بشارع 26 يوليو، نحو محطة الإسعاف لكي يقلها مترو الأنفاق، ولكي أخذ سيارة أجرة من نفس المكان، قلت ضاحكا:

– بالعكس طريقنا واحد أنتِ تنقلين عن الناس أخبارهم، وأنا أكتب عن أحوالهم، وكلانا لا يملك إلا قلماً في يده وحلماً داخل رأسه.

وقفنا أمام سلم محطة المترو، الذي ستنزل درجاته، مددت يدي بورقة عليها رقم تليفون صاحب البيت: هذا رقم تليفون الشقة الكائنة تحت شقتي لا تطلبيني إلا للضرورة، سوف أشترى عما قريب هذا الاختراع الجديد الذي يسمى المحمول، وغدا تمام الساعة الثامنة موعدنا هنا في نفس المكان.

تبسمت زاد وجهها ألقا، قالت وهي تنظر إلى عيني:

– مستحيل أن نلتقي في هذا الوقت المحدد، الساعة الثامنة.

انقبض قلبي وشعرت بالحرج، نظرت للأرض، أسمعها تتحدث بصوت ممزوج بالضحكة:

– ممكن أحضر لك الساعة التاسعة بعد أن أنتهي من عملي مباشرة.

مددت يدي صافحتها، ثم تبسمت لها وهي تبادلني الابتسام تفوهت بكلمة واحدة: شكرا يا "سها"، وانصرفت أشعر بالراحة النفسية، كان لقاء بغير موعد خير من ألف لقاء بموعد مسبق، صعدت

للسيارة جلست على المقعد منفردا، ملت برأسي للخلف أجتر ما كان بيننا منذ لحظات داخل المقهى، هناك أشياء أخرى من الممكن أن تشغل فكري غير الدكتور الناقد وياسمين.

"سها المليجي" شعرت بأنها طيبة القلب، لا تحمل داخل صدرها سوى الخير للجميع، ولا تشعر بأن نجاح من حولها يؤثر فيها أو يقلل من شأنها، لذلك هي تسعى دوما إن سنحت لها الفرصة تقديم الخير ولا تنتظر مقابلا، تعددت مقابلاتنا كثيرا، رفضت عرضها أن أعمل معها في الصحافة، لا رغبة عندي بممارسة هذه المهنة، لكن لأنها طيبة لم تتوان لحظة حتى أوجدت فرصة عمل لي داخل الجريدة، عملا أمارسه بإتقان، مصحح لغوي، وفي موعدنا الثاني جئت لها بنسخة مخطوطة من روايتي "رحلة بلا ثمن" سعدت جدا بها، وأنا سعدت بالإيجابية التي تتعامل بها معي، الفراغ الكبير الذي كان بداخلي يتلاشى رويدا فرويدا، بدخول "سها" حياتي يوما بعد يوم، في يوم جلسنا معا على المقهى كالمعتاد، مر قرابة شهرين التقينا فيهما عدة مرات، في هذه الليلة الموعودة جاءت "ياسمين جعفر" التي انشغلت عنها منذ أيام، جلست بجوارنا، تبادلنا بعض الكلمات باقتضاب، وجدت رد فعلي غير مريح بالنسبة لها، تسألني عن مجموعتها الثانية، قلت لها دون اهتمام "لم أنته منها بعد" ثم التفت نحو "سها" أواصل حديثي، الذي كنا بدأناه قبل مجيئها، هزت رأسها وشعرت بالإهانة؛ لأننى أتجاهلها، قالت بصوت ناغج:

– سوف أحضر لأنام عندك الليلة، فقد تشاجرت مع أمي.

– لا يصح هذا الأمر، أنا رجل أعيش وحيدا ومن الممكن أن يتسبب الأمر في فضيحة لي، ويطردني بعدها صاحب البيت.

أدركت أنني قد سقطت في الفخ الذي نصبته لي، زاد وجهها غضبا، قالت بلغة عدائية:

– هل عندما جئت إليك المرة السابقة وقد فعلنا ما فعلناه معا كان هذا مباحاً، هل نسيت طعم الفراخ والمكرونة، أم نسيت طعم شفتيَّ.

أحمر وجه "سها" خجلا هنا قررت الانصراف، حقيقي يجب أن تتصرف لوضعي المخجل، قامت تحمل حقيبتها وولت دون أن تودعنا، ضحكت "ياسمين" مشيرة نحوها:

– في ستين داهية دعها تغور.

– لماذا تفعلين معي هذه الأفاعيل التافهة التي ليس لها معنى؟

بصوت حازم وصارم قالت وهي تقرب وجهها مني حتى شعرت بوهج أنفاسها الدافئة يلفح وجهي:

– أنت تخصني أنا فقط؛ أكره المتطفلات مثل الذباب.

ملت بظهري للخلف، أشعر بنشوة الانتصار، أخيرا وجدت نقطة ضعف لها، هل هذه غيرة؟ هل "ياسمين" تحبني فهي تغار عليَّ، أم لديها مرض حب الامتلاك كالأطفال الأنانيين؟ هنا تحدثتُ بلهفة وبصوت أقرب للرجاء:

– هل ستأتين معي إلى الشقة.

ضحكت ضحكة عالية، ثم ارتسمت على وجهها الجدية وقالت:

– هل أنت مجنون يا "صلاح"؟! أنت لئيم جدا، كيف أذهب إليك وأنت تعيش لوحدك، هل ترضاها لأختك أيها القروي الشهم؟ للأسف لم تفهمني ولن تستطيع أن تفهمني، أنا أذهب وقتما أريد وأعود عندما أرغب في العودة، دع هذه الخرافات لحالها وحاول أن تنتهي من مجموعتي القصصية الثانية، وأظن أنك قبضت الثمن مادياً وأشياء أخرى أنت تعرفها جيدا، سال لعابك يا صاحب الفضيلة وأصبحت أهطل مثلهم.

القروي الساذج كل مرة يتعلم درسا جديدا عن كيفية ممارسة النذالة، هم يا صغيري، يصفون والدك بالقروي الساذج، ليس عنصرية لكنهم يرونها مزحة؛ لكنها سمجة مثلهم، وياسمين تعلم أن جمالها نقطة ضعفي، انصرفت بعد أن انتهت من تلك الصفعات المتواصلة على وجهي، ضربتني دون رحمة وأهانتني كثيرا، شعرتُ بالدونية، حقيقي أنا حقير مثلها ومثل الدكتور، كلنا نمارس الهطل لكن بطرق مختلفة، إياك يا صغيري، من مغبة السعي خلف الملذات، تنهدت بعمق شديد وبحرقة تكاد أن تحرق أحشائي، "ياسمين" رحلت بعد أن قالتها صريحة، أنت دمية أنت لا شيء، لكن بماذا هي تقدر قيمة الإنسان؟

ورد بداخلي سؤال قاتل، أبحث به عن مخرج من هذا المأزق، دوما أصحاب العزائم الضعيفة يبحثون عن مخرج لهم يتوارون خلفه وليس عن حلول، تجدهم دوما شكائين وبكائين يلعنون الواقع والنصيب، وهم من يشكلون واقعهم، ويبحثون عن القيمة وهم يفتقدون عزيمة البحث، قيم بلا عزيمة تحميها كالذي يغتسل بماء قذر، هنا السؤال التواكلي أو المهرب من عذاب الضمير:

– ما قيمة شخص يحلم بالجمال وهو مطموس كنجم خلف الغيوم السوداء، ومنغرس حتى أذنيه في خراء الواقع.

إياك يا صغيري، من مغبة السعي خلف الملذات، لن تجني منها شيئا سوى هوان للنفس، وسقوط متتابع في بئر سحيقة من المذلة، مع مرور الأيام تكرس لمبدأ أنك صرت من أصحاب الجلود السميكة.

9

توقفت "سها" عن مقابلتي، ورفضت كل الضمانات التي قدمتها إليها، جميع المبررات التي سقتها لم تغير من قناعتها، ظللت أسترسل أن ما فعلته "ياسمين" على المقهى هو عبارة عن كيد نساء، وهو بعيد عن الواقع، رغم كل هذا لم تقتنع، كنا إذا التقينا في الجريدة، تتجاهلني عن عمد، وتتعامل معي كزميل لا كصديق مقرب، كانت حازمة، وإن ذهبت إلى المقهى ووجدتني بينهم، صافحتني مثلهم وحدثتني كذلك مثلهم، إلى أن جاءت إلى المقهى "ياسمين" في تلك الليلة، تبلغني أن يوم الجمعة القادم هو موعد حفل توزيع جوائز المسابقة الأدبية الكبرى، وهي تنتظر مثل الكثيرين، لأنها قدمت مجموعتها القصصية في فرع القصة، وهي واثقة بالفوز على حد قولها، هززت رأسي متمنيا لها الفوز، أمنية كاذبة كحقيقة حبي لها، الوضع لم يتغير كثيرا بيني وبينها، رغم أنني أبلغتها أنى لم أنته بعد من مجموعتها الثانية، هذه المرة لاقت الأمر بترحاب ودلال مصطنع، أعرف خبايا نفسها المهم والأهم، هو الدكتور الناقد، وبعد حديثنا معا قالت تريد الذهاب، لديها أمر مهم يجب أن ترحل الآن، رحلت وهي تبتسم لي، أصبحت أكره ابتسامتها المجانية، التي توزعها على الجميع دون مشاعر صادقة، بعد أن ذهبت جلست وحيدا، لكن السؤال الذي ورد بخاطري أين ذهبت؟ هل لصديق جديد لتقبله، أو لصاحب دار النشر لعقد اتفاق معه، أو ذهبت للدكتور الناقد ترقد على فراشه، كما يشاع عنها وعنه، الذي كان مرشحا لمنصب وزير الثقافة في التغيير الوزاري الأخير، بعض الأقاويل التي كانت تروج عنه، سمعت معظمها على المقهى، ولا أعرف مدى حقيقتها، لم أذهب إلا مرة وحيدة منذ أن أعطاني الدكتور نسخة من مفتاح باب شقته، كانت الليلة رتيبة مملة لم تضف جديدا، وقبل الانصراف طلب مني حمل هذا المظروف المقفل غدا لجريدة شمس الإبداع، وهو مقال نقدي عن مدرسة الحداثة في النقد، ثم قال معتذرا إن كان من الممكن شراء هذه الأشياء له قبل رحيلى، ما حدث معي من قبل وما يحدث في هذه الليلة يؤكد الفكرة القديمة، إن أردت النجاح عليَّ البحث عن طريق بعيد عن هذا الرجل، وهذه كانت نصيحة "سها" قبل أيام القطيعة، الجميع رحل عني غير آسف على أحد، جميعهم يريدون مني أن أكون تابعا لهم، أو فاتحاً للشهية أو حمارا للمشاوير، أو جثمان موضوعاً على مقعد في الندوات، رقم بين الأرقام يصفق بإذن وكذلك يضحك ويتفاعل، كل منهم له نواقص مختلفة على أساسها يضعني في المكان الذي يراه مناسبا؛ حتى تكتمل الصورة.

لم أتحرك، ظللت جالسا على المقهى، يبدو أني لم أملك ذكريات أجترها، قد بعت كل شيء عندما بعت أرضي، ظللت أفتش في الذاكرة لم أتوقف عند شيء مهم في طفولتي، لم أجد إلا ذكرى

باهتة قاربت على التلاشى، ذكرى الحب الأول الذى عشته في صمت، ما هو إلا عبارة عن أحلام عالية تناطح السحاب، وواقع هلامي عبارة عن نظرات وابتسامات كانت في خجل، وعديد من الرسائل الغرامية التي لم تصل إلى محبوبتي الأولى، كنت أمزقها بعد الكتابة خوفا من أن تقع في يد أحدهم، في قريتي هناك أعراف تبيح القتل إن تعلق الأمر بالحب العذري، لكن كتبت حالة العشق هذه في قصة قصيرة، وجعلت النهاية تشبه الواقع، البطل العاشق يقف وحيدا في الظلام، يخفي دموعه وهو يودع حبيبته وهي تجلس في الكوشة تتلقي التهاني بمناسبة زفافها، أحببتها في صمت وكذلك ودعتها في صمت ممزوج بالدموع والأنين، الصمت أو التواري نهج انتهجته منذ الصغر، خوف أمي عليَّ حرمني من أشياء كثيرة، وجعلني أعيش في بوتقة كانت تظنها بوتقة السلام، ولكن هي في الحقيقة بوتقة الخوف والخِذْلان، من الطبيعي أن تكون للإنسان ذكريات طفولة، سواء سعيدة أو حزينة، لتدفعه للأمام أو يركن إليها في لحظات الانكسار، لكي يستطيع القيام والمواصلة، الماضي نتعلم منه والتجارب هي خلاصة رحلة العمر، أنت إنسان بلا ذكريات وبلا تجارب كطفل لم يتعلم الحبو.

عاد بي الفكر إلى "سها المليجي"، التي رغم حالة شبه القطيعة بيننا؛ أخبرتني أنها أعطت مسودة روايتي التي نسيتها ياسمين لصاحب دار نشر، كان في زيارة للجريدة وقد تعرفت عليه حينها، ولم تتأخر في التقاط طرف خيط الفرصة التي سنحت، رغم أنها زفت إليّ هذه الأخبار بوجه جامد، كأنها جندي مدفوع لحرب لاناقة له فيها ولا جمل، لكنه مجبر على خوضها بدافع الشرف والأمانة، هززت رأسي وشكرتها، حاولت أن أستوقفها للحديث وتبرير موقفي، قالت بحزم:

– هذه حياتك وأنت حر فيها، أرجوك لا تدفعني للابتعاد عنك كليا، لا تتحدث معي عن شيء مضى، أترك لنا مساحة من الممكن أن نتعامل فيها، لا تبذر أرض صداقتنا ببذور الصبار، حتى لا تصاب أقدامنا بشوك الكيد والمكايدة من ضعاف النفوس.

وانصرفت تقصد طريقها دون الالتفات خلفها، كان لها عادة بعد أن تنتهي من عملها تجيء إلى المقهى تشرب قهوتها وتحرق عدداً من السجائر وترحل، ذات ليلة مررت ليلا بجوار المقهى وجدتها تجلس وحيدة، وليلتها كنت صاحب مزاج سيء جدا، فانصرفت عنها دون أن تبصرني، رغم أني كنت في حاجة إليها، أريد الثرثرة في أي شيء، "سها" أكبر مني بثلاث سنوات، عمرها ثمانية وعشرون عاما وتمتلك من الخبرة في حياة المدينة أكثر مني، لا أقول هذا مقارنة بل لتعلم يا صغيري، كيف كانت بداية علاقتي بها، وأظن أن علاقتي بها تمثل قدراً كبيراً من الأهمية لك أنت بالأخص. مرت الأيام كلها متشابهة لا جديد بها، سوى القراءة والتصحيح والجلوس على

المقهى للمسامرة، كطفل ضائع في مولد كبير، حوله ضجيج وأناس تواصل اللهو والضحك، ولا تبالي بدموع هذا الصغير، منذ فترة لا أعلم متى بدأت، أصبحت أرضى بأي شيء من كل شيء متاح، سواء كان هذا الشيء قليلا أو كثيرا، الحد الأدنى يرضيني، أخشى أن أصل إلى الشعور بأن أدنى الأدنى هو نعمة، الحد الأدنى يا صغيري من نعم الحياة لا يقلقني لكن الحد الأقصى من الكتابة لا يشبع أحلامي الثائرة.

رغم بارقة الأمل التي لاحت في الأفق، لكن اختطفها بسرعة غراب البين، عندما ذهبت إلى صاحب دار النشر من طرف "سُها"، ظل يثني على عملي وأن الدار ستكون رابحة إن تعاملت مع كاتب مثلي، ظل الرجل يسترسل ببعض الكلمات التي سعدت بها جدا، وأشكره لأنه منحنى لقب كاتب، وبعد أن أشعل سيجارته دفعني دفعا إلى هذا النفق المظلم، الدار سوف تميزني عن الكُتاب الآخرين، فهى تتقاضى منهم جميعا قيمة نشر العمل كاملاً، ولكن لتميزي سوف أدفع نصف قيمة تكلفة نشر العمل، وبعد هذه الكلمات أصيبت أذني بالصمم لم تسمع ما قيل بعدها، عن بعض الأرباح التي سوف نتقاسمها معا، بعد النشر وبيع هذا العدد من النسخ، شعرت حينها مثل المزارع الخائب، الذي يبذر البذور في الأرض الصخرية، حملت نسختي للبيت، أشعر بإهانة؛ ما أكتبه ليس سلعة لأدفع عليها نقوداً مقابل النشر، الأدب قيمة وليس سلعة يا أهل الثقافة، شعرت بخيبة الأمل تثقل جسدي، عند أول صندوق قمامة ألقيت بتلك النسخة المخطوطة، وأنا ألعن أحلامي التي تحولت إلى كابوس يجثم على صدري، يكاد يخنقني، أريد أن أشرب خمراً أو أذهب إلى أحد بيوت الدعارة التي لا أعرفها، أريد ممارسة المجون في وضح النهار، وعلى قارعة الطرقات في جوف الليل، شعور الثور الهائج يسيطر عليَّ، اليوم الحياة ترفضني ونفد صبري، معادلة صعبة يا صغيري، عندما تبحث عن الزهرة وتشتاق لعبيرها، للأسف كل الزهور التي حولي تربت على المزابل، أشعر بأني وسط غابات من الشياطين، شياطين الإنس هم سادة القرارات، وهم الملوك؛ دون ذلك فهم صعاليك على موائدهم، صعاليك ينتظرون فتات الفرص وبقايا هبات داستها نعال الزمن، ويمدحون سادتهم عندما يحصلون على ابتسامة من شفاههم التي لا تخرج إلا أنفاسا عفنة.

لم أذهب للعمل في اليوم التالي وكان الخميس، كنت حينها صاحب عود لين تتلاعب به رياح الواقع كيفما تشاء، ولم أنحنِ فطنة مني بل أجبرتني الظروف للانحناء، كما للنجاح متعة، أيضا للفشل متعة؛ هذا الأمر حقيقي يا صغيري، متعة البكاء والاستسلام، للشكوى لذة عند أصحاب العزائم الضعيفة، وأنا كنت أحدهم، حينها مارست المجون داخل شقتي وحيدا، عندما قررت الفرجة على فيلم إباحي، فذهبت للبيت وأنا أحمل جهاز فيديو إيجار لليلة واحدة، وشريط الفيلم الإباحي

يرقد داخله، وليكن ما يكون، جلست إلى الساعات الأولى من الفجر أمام التليفزيون، أشاهد وأوهم النفس بأنني بائس يجب عليه خلع ثوب العفة، كما كنا نرى في الأفلام العربية، البطل عند الصدمة الأولى يتحول إلى متهتك فاجر يمارس كل أنواع المجون، بحجة الهروب من الواقع، هل الهروب حل؟ ظللت أحدق في تلك الأجساد الرخيصة، التي هي عبارة عن سلعة رديئة، تشبه السيجارة عندما ننتهي منها نطأها بنعالنا، أو نلقيها في سلة القمامة، نمت وفي رأسي صراع شديد بين ما أريد وبين ما فُرِضَ عليّ، أخشى يا صغيري أن يأتي يوم ما أرضى فيه بشبه العدم.

عند الساعة السابعة مساءً دق جرس الباب بقوة، لا أدري من القادم، قمت متثاقلا نحوه أفتش ملابسي وأهندمها جيدا، وأنظر في كل ركن من أركان الشقة، خشية أن تلك الأمريكية الشقراء التي كان يضاجعها هذا الزنجي الفحل ليلة أمس، خرجت من شاشة التلفاز، هربت من فحولته جاءت تختبىء عندي، تبسمت من حالي البائس، صاحب العلة يظن أن الجميع ترك كل الدنيا وما فيها وينظر إلي علته، وأنا علتي الخوف من هذا الشيطان الذي يكمن بداخلي، شيطان الرذيلة الذي همس في أذني وأوهمني أن "ياسمين" من الممكن والجائز أنها تنام عندي ذات ليلة، وهذا الشيطان الذي يشعرني بالخوف كلما حاولت الابتعاد عن جلادي، إن فارقت الدرب سأجد السياف ينتظرني على أول طريق أقصده، أعود لأدراجي أتشبث بجلادي، أتلذذ بسياطه عندما ينزل على جسدي، فهو الناصح الأمين الذي يعلمني كيف تعاش الحياة، والحقيقة يا صغيري، أنني كنت خائفا من خوض المغامرة، كفي أوهاما جرس الباب يواصل الرنين بإلحاح مفرط، فتحت الباب بعينين مرهقتين كانت "ياسمين" تقف أمامي، لماذا جاءت؟ هل اشتاقت لقبلاتي، أم تريد عقد صفقة جديدة من صفقاتها القذرة، إنها تجيد هذا النوع من الصفقات، تجعل من نفسها سلعة للحصول على أهدافها، كالرأسماليين عندما يجتهدون لتحويل القيم إلى سلع، والبرجوازيين عندما يؤمنون بأن الانتهازية فرص منحها الله لهم، هي تعرف وتجيد المناورة، وتعرف من أين تؤكل الكتف، تجاربي معها كثيرة، رأيت منها أشياء برؤية العين، والبعض الآخر كنت أنا شريكاً فيه، قالت وهي تجلس دون أن أدعوها للجلوس:

– ذهبت إليك في مقر الجريدة أخبروني بأنك لم تحضر للعمل اليوم، جئت لكي أطمئن عليك، وأقدم لك الدعوة.

ظلت تسترسل أن غدا الجمعة سيقام حفل إعلان نتائج جوائز المسابقة الأدبية، وبصفتي شخصاً قريباَ منها يجب أن أحضر الحفل لمؤازرتها، ثم أعادت الجملة في سياق آخر، هي تحب أن أكون

معها وبجوارها في هذا اليوم، لأنني شريك نجاحها، هي تنتظر النتائج بفارغ الصبر وتتمنى الفوز، بل لديها شعور كبير بأنها رابحة، اقتربت مني أمسكت بيدي، ونظرت في عيني.

هنا تذكرت هذا الفحل الزنجي والمومس الشقراء الأمريكية، لكن الجزء الصغير المتبقي من كرامتي جعلني أسحب يدي ببطء، ثم أعطيتها ظهري وأسترسلت ببعض الكلمات التي ليس لها معنى، بأني أتمنى لها الفوز والنجاح الدائم. هي أشعلت سيجارة، وزفرت الدخان بكثافة:

– أنا تلميذتك يا صلاح.

ابتسامتها غير مريحة وحضورها كذلك، أشعر أنها تكتم على أنفاسي، تمنيت رحيلها، لماذا أرفض هذا الجمال، أم هي التي تضعني على مائدتها استعدادا لالتهامي حد الشراهة، لن أكون لقمة مستساغة في فمها، همس شيطاني في أذني، بتلك الفكرة إن نالت "ياسمين" تلك الجائزة، سوف أخلف وعدي في مجموعتها الثانية، لن أدعها تصعد على أكتافي.

يا صغيري، هم يرون الباطل حقاً والحق تزمتاً، ولا يلائم هذا الزمن، هي تعتقد أن ما تفعله من طبائع الأمور، وهذا الاعتقاد بذور سامة تم نثرها على أرض المعرفة، ضاع البرزخ فصرنا لا نفرق بين المالح والعذب، يتشدق سادتنا بأن كليهما ماء، مجتمع بلا قيم، الناس صنفان، سارق ومسْروق.

عليك يا صغيري أن تقف دوما على شاطئ العلاقات النفعية، حتى لا تغرق؛ لأن المجتمع النفعي مصيره الطوفان.

10

يصرخ بحرقة وفخر في مكبر صوت يعلن أن الفائزة بجائزة القصة هذا العام، الكاتبة المبدعة "ياسمين جعفر" دوت القاعة بالتصفيق، هي من الصنف الأول من المجتمع الذي بلا قيم، السارقة أقصد الفائزة قامت ترفع يديها تشير للحضور إشارات سعيدة، تقبل يدها ثم تنثر القبلات على الحضور، كانت أمس تمنح الجميع ضحكات مجانية واليوم تمنحهم قبلات مجانية أيضا، صعدت إلى المسرح ترتدي فستان سواريه كاشفا عن ذراعيها وشق نهديها، هذه من المرات القلائل التي أراها تتخلى عن بنطالها الجينز، صافحها الدكتور الناقد ثم منحها درع المسابقة مصحوبة بظرف صغير به شيك بقيمة الجائزة، ثم شهادة تقدير مدون فيها اسمها لفوزها بالمركز الأول، صافحت السادة الذين يقفون على خشبة المسرح، وكانوا أربعة شخصيات، ثلاثة منهم شخصيات عامة الجميع يعرفهم، وجميعهم أكاديميون متواجدون بشكل شبه دائم على الشاشات المصرية والعربية، والمجلات الثقافية والجرائد، الجميع يتخذهم الآباء الروحيين للثقافة، وقبل أن تلفظ اسم أحدهم تضع عدداً من المسميات لوظائف كثيرة يشغلها هذا أو ذاك، وقفت تلتقط بعض الصور معهم، الجميع يرسم ابتسامات أغلبها يفتقد إلى المشاعر الصادقة، لأننا اعتدنا جميعا أمام الكاميرا أن نتخلى عن أنفسنا، أمسك الدكتور "شكري عبادة" بمكبر الصوت، يطلب من الجميع الهدوء، ثم قال بصوت رخيم وكلمات مبروزة بشكل أنيق:

– أبارك لتلميذتي ياسمين جعفر، التي منذ أن رأيت إبداعها، توسمت فيها الإبداع المتفرد.

ضجت القاعة بالتصفيق وللصفوف الأمامية النصيب الأكبر، همهم الذي يجلس خلفي بلهجة انتقام وسخرية: "منذ أن رأيت نهديها أم كتابتها أيها المتحذلق" هنا تبسمت من هذا التعليق الذي يبدو لي أن صاحبه قريب من الكواليس، التعليق أعجبني، جاء مواكبا لما يدور داخل نفسي، بعد عاصفة التصفيق واصل الدكتور الكلمات:

– يعلم الجميع أن الإبداع ليس به محاباة، والجوائز لا تعطي إلا لمن يستحقها، وعمل ياسمين يا سادة أدعوكم لقراءته، ستجدون أن الله حبا هذا البلد بمواهب عديدة، أنا دوما عندي يقين بأن معين المواهب لا ينضب، علينا نحن أن نأخذ بأيديهم، لنضعهم على الطريق الصحيح.

ضجت القاعة بالتصفيق، هذا الشاب سليط اللسان خفيف الظل همهم "يجب عليكم رفع أفخاذهن على أكتافكم، وتأخذون نهودهن بين أيديكم، حتى تتمكنوا من وضعهن على السرير المريح هذا هو الطريق الصحيح أيها الثعلب الماكر" هنا كان يجب على أن ألتفت للخلف حتى أرى وجهه، كان

شاباً ذا وجه نحيف يضع على وجهه نظارة طبية، نظر نحوي ولم أرَ على وجهه أي تعبيرات، سوى الصرامة والحسرة وخيبة الرجاء، قد رأيته في المقهى من قبل، ولكن لم نتحدث معا، كعادتي السيئة لا أمد يدي بالصداقة لأحد، دوما أنا رد فعل وليس الفعل وهذا الأمر حجْم من علاقتي الإنسانية بالمدينة، التفت إلى الدكتور الذي يواصل كلماته، لكن هذه المرة في صيغة مزاح:

– نون النسوة ماذا فعلت بجمع المذكر السالم، أنا سعيد بالنتائج سواء في القصة أو الرواية أو الشعر، لنون النسوة الحظ الأوفر، وهذا دليل قاطع أن للمرأة عطاء وإبداعاً لا ينتهي، وأنا ضد القول الذي يقول، إن الإبداع ذكوري في المقام الأول، فهنيئا للمكتبة العربية بالمبدعات الجديدات ونتمنى لهن التوفيق والسداد، وهنيئا لنا كلجان تحكيم نشعر بضمير مستريح، وسنرقد الليلة بطمأنينة لإتمام هذا المنجز على خير.

أنهى الدكتور كلمته وصفق الحضور كالعادة، وسليط لسان يواصل قال "سترقدون حضراتكم وسنرقد جميعا، أنتم ترقدون عليهن، ونحن نرقد على بطوننا نجهل مصير مؤخراتنا" هنا لم أتمالك نفسي من الضحك، نظرت حولي أجد "سها المليجي" جالسة بجواري تنظر نحوي بدهشة، واصلت الضحك بطريقة شبه هستيرية، انتهى الحفل ولم تنتهِ ضحكتي إلا بسقوط دموع الحسرة من عينيَّ، وقفت مكاني أشعر بضيق في التنفس، أخرجت منديلاً من جيب بنطالي، أجفف دموعي التي غلبتني رغم أنفي، أجدها تقترب مني "سُها" وقفت أمامي لا تتحدث معي بل تراقبني في صمت، أشعر بتعاطف في عينيها، وبنظرة الشفقة تواصل النظر نحوي، كان يجب عليَّ الهروب من هذا المكان، لكن أين المفر يا صغيري؟ وكل الطرق تؤدي إلى الهاوية وإلى السقوط المزري، اختلت القيم والموازين، وأصبحت سلعة توضع في برطمانات زجاجية، نجيد القفل عليها ثم عرضها في حوانيت الكلام، نراها ولا نستطيع أن نلسمها، ألا تصدقني يا صغيري؟ نعم، يوجد حوانيت لبيع الكلام، والشاطر من يعرض سلعته الكلامية جيدا، الاستعراض ببعض المعلومات في الندوات هذه سلعة، أو التشهير بفضائح البعض على الشاشات هو عرض جيد، وعندما تمسك بيدك ببعض الأوراق والملفات، وتصرخ بأعلى صوتك أمام الكاميرا هذا هو الدليل، هنا يصفق لك المشاهدون والمستمعون وكل من يجلس خلف الكواليس يصفقون، نحن أمة علمونا منذ الصغر كيف نصفق، ولكنهم لم يعلمونا لمن نصفق، وعندما كبرنا اختلط علينا الأمر نصفق لمن يستحق الرجم، ونرجم من يستحق التصفيق.

أجرجر ذيول الخيبة على أرصفة الطرقات، العاصمة المبهرة لم تعد كذلك، المدينة الكبرى المزدحمة لم تعد كذلك، أشعر أن هذا العالم خلا على شخصي الضعيف، أمواج الحسرة تحيط بي

من كل جانب، أركل بقدمي الهواء وأعيد الركل مرة أخرى، في حركة هزلية لا الهواء يتأثر بركلي ولكن قدمي تتأثر، هكذا الباحث عن تحقيق حلمه بجوار الدكتور الناقد وياسمين، كلاهما لا يشعران بركلي، أنا بالنسبة إليهما ظل، هل تؤثر الظلال في الأشياء المادية، هم ملوك الأشياء المادية ونحن الصعاليك ظلال، لا أدري كم مر من الوقت وأنا جالس بجوار تمثال الأديب، كلما ضاقت بي الدنيا أجِئ إليه أبث شكواي، يجب إعادة قراءة أعماله، أكيد سأجد رسالة أو رسائل بين سطورها، وهو القائل لمن حاول اغتياله في قاعة المحكمة "إلى من يخالفنى الرأى أهدى سطورًا كتبتها لمصلحة مجتمع لن ينصلح حاله إلا بالثقافة" انتفضت.. كفى حديثاً للتماثيل التي لن تجيبني، كان لهم زمن ونحن في زمن آخر، لكل زمن معطياته، سأتوقف عن قص أظافري، حتي يكون لي مخالب أدافع بها عن نفسي، يجب علىَّ أن أخطو خطوة واقعية، كفي بث الشكوى، أخشى أن يأتي اليوم يا صغيري، الذى يجف فيه نبع الإبداع، في البداية يكون الإبداع كشلال متدفق، ولكن مع مرور الأيام يصبح كقناة صغيرة يمر منها الماء بصعوبة، حتى تصل إلى النهاية؛ فتصبح الفكرة شيئا عزيزاً جدا ونادراً، فعليك دوما استغلال الشلال المتدفق، إن أردت أن تصبح كاتبا فعليك أن تكتب فقط، ولا تشغل بالك بالنشر، لأنه حتما سيأتي، لا تهدر الفرص تباعا، وأعظم الفرص هي إيجاد وقت للكتابة، نصيحتي لك يا صغيري، أقولها اليوم وأنا حبيس بين جدران سجني، أنتظر السجان الذي سينفذ حكم الإعدام، أقولها لك بعد المرور بتجارب عدة هي، اكتب ثم اكتب وعليك بكتابة الكتابة.

في تلك الليلة البعيدة قررت الذهاب للدكتور الناقد ووضع النقاط على الحروف، ما النقاط التي يجب أن أضعها على الحروف؟ هل سأطلب منه أن يساعدني كما ساعدها، لو لديه الرغبة لكان فعلها من تلقاء نفسه، صمت كثيرا حائرا، الحل الأمثل أن أتسلل إلى الشقة في صمت، لأخذ روايتي المخطوطة السجينة عنده، لكي أحررها. منذ أن وعدته ألا يطلع عليها أحد حتى ينتهي منها، وهي تحت رحمته، اليوم حان موعد إطلاق سراحها وسراحي، تذكرت يوم أن جئت بها منتشيا أشعر بالفخر، اليوم سأتسلل كاللص وآخذها، أتمنى ألا يراني ولا أرى وجهه القبيح ذا القناع المزيف، هو ينطبق عليه قول القاضي "كلاب القرية أصدق من رجالها" لا أريده سأبحث عن عالم جديد، أفض به بكارة أحلامي، أنا أثق بما أكتبه، ولكن هل سيثق العالم بما أكتبه؟، المعادلة صعبة، لكن ليست مستحيلة، بعد حفل الليلة وأن تفوز مجموعة "ياسمين" بالجائزة الكبرى، هذا الحدث جعلني أتوقف مع نفسي كثيرا، تلك مجموعة أنا كتبتها وأحفظ كل حرف فيها، كل تشبيه بلاغي أو جملة حوارية أو حدث زاد من جمالها، هو جزء مني، هل سأرضى بهذا المصير أكتب

في الظل، وهي تتصدر المشهد وتجني الجوائز والمجد، لن تفلت من العقاب، الذي تستحقه، أواصل السير وحيدا ألتهم الأفكار وحالة من النقم تسيطر على شخصي، المشاهد تتكرر أمام عيني مشهد الفائزة وهي تلوح للجالسين في القاعة، "سُها" عندما تبادلنا النظرات في صمت، قرأتُ في عينيها الكثير من الأسئلة، التي أعرفها.. مثل، لماذا ترضى بالهوان لنفسك؟ صرت ممسحة لأحذيتهم ومعطفا يستر عوراتهم، النظرات الخاطفة من الدكتور الناقد أثناء الحفل لم تغير كثيراً من حقدي عليه، نظرات تحمل العتاب، لأنني توقفت عن الذهاب لشقته، وعندما أرسل مع ياسمينته يطلبني، كنت حينها مثل أحايين كثيرة صاحب مزاج سيِّئ ، فلم أذهب إليه بحجة الشغل أو تصحيح بعض الأعمال المتأخرة عندي، لأن أصحابها يتعجلون أعمالهم، والحقيقة هي أنني لا أريد الذهاب إليه، في آخر زيارة إليه شعرت بالندم، أجده يطلب مني طلبات سخيفة، يرسلني لأحدهم أو يرسلني أبتاع له أشياء، أو يوصيني بالحضور مبكرا أمام القاعة أو المسرح الذي سيتواجد هو فيه غدا، لديه ندوة يريدني ذيلا أتبعه أينما ولَّى أو تحرك، أحمل حقيبته عنه أو أحمل بقايا أشيائه التي يفعلها الخدام لدى أسيادهم، أنت لست بالسيد وأنا لن أكون يوما خادما لأحد، إن كنت تنازلت أو فعلت بعض الأفاعيل فهي بدافع المروءة، يجب أن يدرك المرء الفرق بين العبد المطيع وبين الطيب صاحب المروءة، كفي أفكاراً وصراعاً مع النفس، يجب التحرك أو القدوم لفعل هذه الخطوة التي تأخرت كثيرا، قطع علاقتي بهذا الرجل قرار حتمي ومصيري.

وصلت إلى الشقة فتحت الباب بالمفتاح الذي أعطاني إياه، الجو ساكن هادئ إلا من أضواء خفيفة، وموسيقى هادئة تنبعث من غرفة نوم الدكتور، كذلك أنا حريص على الهدوء لا أريد أن ألتقي به، تسللت نحو خزانة الكتب أعرف مكان عملي جيدا، وقبل أن أصل نحو الخزانة سمعت صوت تأوهات، مختلطة مع صوت الموسيقى الصادرة من غرفة النوم، شقة الدكتور تتجاوز المائتي متر، بمعدل أربعة أضعاف جحري أقصد شقتي، أواصل التسلل في هذه الطرقة الصغيرة نحو مصدر الصوت، غرفة نوم الدكتور عند نهايتها، وقفت أمام الباب متردداً ماذا أفعل، أنحني أنظر من ثقب الباب، أجد "ياسمين" جاثية على ركبتيها، تتأوه من فرط اللذة، لا أعرف هل هي حقيقي تشعر بالمتعة، أم تمنح الدكتور العجوز الشعور بأنه مازال رجلا، صوت تأوهاتها يرتفع إنها تؤدي دورها بإتقان شديد، الدكتور كمصاب بالشلل الرعاش، وجدته يمرر قضيبه بين نهديها، كاشفا عن ساقين كفرعين صغيرين من شجرة لكنهما جافان، والعرق يتفصد من جبهته، ولسانه يلهث كالكلب في نهار قائظ، أو كطفل يتعلم أولى خطواته، يفعل الأشياء بصعوبة، ظللت أنظر إليهما بعضاً من الوقت.

وبين التردد والإقدام لم أتخذ قرارًا، أأقتحم المكان أو أهرب؟ تراجعت خطوات للخلف، وقفت مصدوماً مندهشاً من هول الصدمة، أأقبل الهزيمة وانصرف في هدوء، أم أقلب الدنيا رأساً على عقب وأرتدي ثوب الحماقة، وأصرخ فيهما وأجعل الأمر على المشاع، أم أمارس الانتهازية وأشارك الدكتور في عملية الممارسة؟ للأسف كالعادة قررت أن أعود لخزانة الكتب ولهذا البهو وآخذ مخطوطتي وأرحل دون رجعة، وبأيدي مرتعشة أقلب بين الأعمال المخطوطة الكثيرة، حتى حصلت على مخطوطتي، أمسكت بها وقفلت درفتي الخزانة بهدوء وعندما حاولت الانصراف، وجدت "ياسمين" تقف خلفي بوجه باهت مندهشة، أول مرة منذ أن عرفتها أرى الخوف في عينيها، جسدها يرتعش قلبها يتقافز داخل صدرها، حمالة صدرها لم تكن في مكانها الصحيح، لأنها ستعود لغرفة الدكتور مرة أخرى، نصف جسدها من أعلى شبه عاري تماما، يبدو أنها ستدفع الثمن من النصف العاري فقط، لم تلفظ ببنت شفة، توجهت صوب الثلاجة أخرجت زجاجة لا أعرف ما بداخلها، هل هي خمر أم ماء أو نوع من العصائر، وعادت للغرفة في صمت، يقينا أنها لن تبلغ الدكتور بوجودي، هذا ما أتوقعه، لا أدري هل هي ذكية أم جريئة، أم أنا بالنسبة لها ظل لا يؤثر في الأحداث، أو كومبارس إن غاب أو حضر لن يتأثر العرض المسرحي الهزيل، لهذه الدرجة أنا مُهان مُحقَّر، قالتها بوضوح ما أفعله مع الدكتور فعلته معك من قبل، فلتصمت ونصمت جميعا على مَخَازِينَا، لم أستطع أن أقف مكاني كثيرا رحلت.

أجل رحلت.. وتركتها بين أحضان الدكتور الناقد، الذي يكفيه نصف جسدها، أتدري يا صغيري، أنها مازالت عذراء، للأسف شرفهم ملوث وحياتهم كذلك، لا تغرك بعض الأشياء المادية، لأنهم يملكون القدرة على تحويل الأشياء، الخيانة نزوة، والمداهنة سلوك قويم، والسرقة فهلوة، والنصف الأعلى من الجسد ككف اليد نصافح به كلما اقتضى الأمر ذلك، والنصف السفلي هو رمز الطهارة والشرف، المضحكات المبكيات يا صغيري، نعيش في عالم يتلذذ بأنصاف الأشياء، نصف مبدع ونصف ناقد ونصف عاهرة، أنصاف الأشياء هو كمالها.

سرت في الشارع أمسك بمخطوطتي، في حالة يرثى لها، أريد البكاء ولكن لم أستطع فعل ذلك، فكرت في الانتحار ولكن كنت أجبن من أن أفعلها، كنت أريد أشياء كثيرة ولكن لم أقدم على شيء سوى الرحيل والصمت، هما الشيئان الوحيدان اللذان أستطيع فعلهما دون ريب، في حالة الشعور بالظلم الصمت والرحيل هما لغة الجبناء، الظبية عندما تسقط تحت مخالب الأسد، لا تستسلم وتتباكي على حالها بل تقاوم حتى الرمق الأخير، هكذا إنسان العصر الذي يبحث عن العيش، يجب أن ينتهج نهج الظبية، ورد بداخلي إحساس أقرب للمنطق، جعلني أتساءل:

– لماذا كل هذا الحزن على ما رأيت؟

لم أجد جواباً واحداً يكشف الحقيقة، لكنها استنتاجات، هل أنا حزين على "ياسمين" لأني أحببتها، أم حزين على منحها الجائزة، أم حزين على حال الأدب الذي يُدار بهذا النمط السيء، أم على حالي البائس؟ دوما لا أستطيع التغلب على شيطاني، الذي همس في أذني بصوت ساخر:

– عندما قبلْتها لم تكن حزيناً بل كنت تشعر بالنشوة، هل هو حلال لك وحرام على الدكتور الناقد؟!

ارتعش جسدي من حقيقة الأمر، ولكن دافعت بكل المبررات الواهية، قبلاتي لها كانت بدافع الحب، سخر مني ثانية: وهو يفعل ما يفعل في نصف جسدها العلوي بدافع الحب أيضا، بنفس المنطق وبنفس المقاييس، أنا مثلهم بل أكثر منهم حقارة، لأنهم يعرفون أنهم حقراء، ويتعاملون بمنطق الأقنعة، لكني أنا جبان لم أستطع حتى مواجهة نفسي، بل أتاجر بالفضيلة، وفضيلتي هي العجز وليس التعفف، عندما يتاح لي الأمر فأنا مثلهم بل أكثر منهم، لن أعفي نفسي وأرتدي ثوب العفة والشرف، ما يفعله الدكتور فعلته أنا من قبل، وإن جاءت لي غدا سأعيد الأمر معها بضمير مستريح، في تلك الليلة يا صغيري، اكتشفت حينها أني مثلهم، أملك بعضاً من البرطمانات الزجاجية، أضع فيها بعضاً من مكارم الأخلاق للمتاجرة، حتى يراها الجميع ولا أستعملها.

أقطع الشوارع كمجذوب القرية، سمعت دبيب أقدامها تطاردني كظلي، نظرت للخلف، وجدتها تسير خلفي، أستوقفني صوتها:

– أدركت الحقيقة الكاملة الآن يا "صلاح"، وكيف تدار الأمور خلف ستائر قاتمة، ألم أقل لك لا تتعجل الحقائق وتبحث عنها هي ستتكشف أمامك.

نظرتُ إلى "سُها" مندهشا من تواجدها في هذا المكان، في تلك الساعة المتأخرة من الليل، قالت:

– لا تتعجب.. منذ أن رأيتك حزينا داخل الحفل وأنا أسير خلفك، وكنت أعرف أنها سوف تذهب للدكتور لدفع الثمن، ولم أحذرك من الصعود إلى شقته حتى ترى الأشياء بعين رأسك، تركتك تصعد وكنت على يقين بأنك ستنزل بسرعة، هل فهمت شيئا الآن يا صلاح؟

همهمت بحزن شديد ببعض الأشعار التي كنت أحفظها

فكم شجاعٍ أضاع الناسُ هيبتَهُ * * * وكمْ جبانٍ مُهابٍ هيبةَ الأسَدِ

وكم فصيحٍ أمات الجهلُ حُجَّتَهُ * * * وكم صفيقٍ لهُ الأسماعُ في رَغَدِ

اقتربت مني "سها" وقبضت على راحة يدي وسرنا معا، نواجه زحام المدينة، وبهرجتها الخادعة، لم التفت للخلف نحو شقة الدكتور، بل واصلت السير أسمع كلماتها عما سنفعله معا في الغد القريب.

الفصل الثاني

1

تشاركنا أنا وهي في نشر روايتي الأولى "رحلة بلا ثمن" كما تشاركنا الحياة، تزوجت "سُها المليجي" بعد أشهر قليلة منذ أن صفعتُ "ياسمين" على وجهها في المقهى، أحداث كثيرة مرت يا صغيري، خلال العامين السابقين، قلت لك من قبل أكره النص الملغز، لن أطيل عليك بطرح هذه الألغاز، سأذكر لك تفاصيلها، وكما قلت لك من قبل أيضا، يجب أن تعرف كل كبيرة وصغيرة بعلاقتي بـ"سها المليجي"، أكيد أدركت الآن لماذا كنت أوصيك، عليك أن تعرف حقيقة الأشياء، أحبتني والدتك بكل جوارحها، ولكن للأسف أحببتُ الكتابة أكثر منها بل أكثر من نفسي، كل الأشياء تأتي في المرتبة الثانية، لا شيء يهمني في هذا العالم عند الجلوس على مقعدي لأكتب، لذلك يا صغيري، لدي القدرة الآن لأقول لك إنها أخذت مني أكثر مما أعطتني بكثير، ورغم ذلك لم أحزن يوما بأني مارست الكتابة، لأن الكتابة مهنة شرف ورسالة، وأصحاب الرسائل الصادقة لا ينتظرون مقابلا نظير رسالتهم، نعم راودني كثيرا هذا الشعور السخيف، بأني مثل بائع الكتب في مدينة العميان، لكن كان يجب علي الاستمرار، سأعود بك للأحداث، منذ أن تشبثت بيدي "سُها" وقذف الدكتور الناقد ماءه على صدر "ياسمين" في تلك الليلة الغابرة..

كان أول لقاء بيني وبين "ياسمين" في المقهى بعد أسبوع تقريبا، ولم تتغير بل هي بنفس الضحكات المجانية التي توزعها على الجميع، وكلامها القبيح الذي دوما ترده دون خجل، لم تستحِ مني، أيقنت منذ هذا الحين أن لديها جلداً سميكاً، منذ أن حصلت هي على الجائزة وأنا قررت فعل ذلك، كنت وأنا صغير أراقب البناء الذي كان يبني جداراً قد تهدم في دارنا، وعندما يضع لبنة غير مستوية أو معوجة يقوم برفعها على الفور، ثم يلقي بها بعيدا، سألته لماذا لا تتركها وتضع عليها الأسمنت سوف يثبتها، رد ضاحكا، من الممكن نداري بعض الأشياء الخارجية من العيوب، لكن الشيء العطب من الداخل يجب إزالته حتي لا تتصدع الجدران، كان يجب علىَّ أن أزيل طبقة الأسمنت التي وضعتها على "ياسمين"، فبانت للجميع على هيئة غير حقيقتها، بعد شهرين مما حدث بينها وبين الدكتور سلمتها مجموعتها الثانية، وقد تناقشت معي "سُها" حينها أن أردها إليها دون تصحيح، لكن كانت مشاعر الانتقام تسيطر علىَّ لذلك قررت أن أنفذ خطتي للنهاية.

لا أعرف إن كان قراراً حكيماً أم أحمق، لكن انتويت فعله بمشاعر انتقامية، كنت أظن أني أستطيع أن ألقي بها خارج الوسط الثقافي كما أدخلتها، عبثت بالقصص كطفل صغير يمسك

بفرشاة ويمررها على لوحة بيضاء، فيخرج الناتج عبثاً في عبث، لم تجد جملة سوية داخل المجموعة، أرفع المنصوب وأنصب المرفوع، ثم أنصب المضافَ وأرفع المفعولَ، سياق الجمل غير متناسق، وأسماء الشخصيات شيء يدعو للسخرية، عندما تبدأ القصة باسم ما يحمله البطل وتنهيها باسم آخر يحمله نفس البطل، أخذت جزءاً من قصة وضعته في قصة أخرى، عبثت بمجموعتها كما عبثت هي بكرامتي، عندما تريد الأقدار تعمى الأبصار لكي تتم مشيئتها، أخذت مني النص على أسطوانة مدمجة، وذهبت به إلى الناشر على الفور تتعجل النجاح، كانت تحمل نقودها وتحمل أحلامها المبتاعة، لم ينظر الناشر للنص بقدر ما نظر إلى النقود التي أخرجتها من حقيبة يدها، وهي التي تشيع عن نفسها بأنها أصبحت ذات اسم كبير بين الأدباء، بالأخص بعد الحصول على الجائزة، وبعد أن تم نشر المجموعة الثانية، طرح العمل دون مراجعة، كما أكدت هي للناشر بأن العمل جاهز للنشر، تتعجل تصفيق الجمهور لها، داخل تلك القاعة المكيفة التي تستأجرها هي والمصفقون لها من الجمهور، كما تستأجر أصحاب المنصة، ليقولوا ما تريد هي أن تسمعه، إن حصول الناقد على قيمة مادية لنقد عمل ما، يجعل منه قاضيا مرتشياً، لا بارك الله في الناقد ولا في المنقود، بعد أيام قلائل من نشر المجموعة كتب الشرفاء من النقاد عن فضيحة تلك الكاتبة، التي حصلت على جائزة القصة القصيرة عن مجموعتها الأولى، ومجموعتها الثانية العبثية التي لا تمت للأدب والسرد من بعيد أو قريب، كان هناك سؤال يردده الناقد نهاية كل مقال، كل مقال يمثل صفعة على وجهها، الجميع يتساءل:

– من كتب المجموعة الأولى ليس هو من كتب المجموعة الثانية.

لا يا سيدي الناقد المحترم؛ الكاتب واحد لكن المجموعة الأولى كتبها كاتب صاحب فطرة نقية، والثانية كانت فطرته قد تلوثت، لماذا لا أكون مثلهم تاجراً أو مخادعاً في ثوب أديب؟ بل كنت أكثر انتقاما عندما وضعت قصة شهيرة لأديب راحل بين المجموعة، لكن بعنوان جديد.

ولأنها غير مطلعة ابتلعت الطعم، مثلها مثل صاحب دار النشر، دبرت جريمتي جيدا وماخططت له قد حدث بالفعل، ونشر العمل كما تمنيت أن ينشر وبه كل هذه العيوب، لذلك كان الهجوم حادا عليها، وما يقال على الصفحات الأدبية جزء بسيط، مما يقال بين رواد الأدب في المنتديات والجلسات الشخصية وعلى المقاهي، إنها دفعت ثمن الجائزة، وكل جلسة لها وجهة نظر تناقض الأخرى، منهم من قال إنها اقتسمت ثمن الجائزة مع أحد أعضاء لجنة التحكيم، الذين يرأسهم الدكتور "شكري عبادة" ومنهم من قال إنها دفعت نقودا لهم، ومنهم من قال إن أحد أعضاء لجنة التحكيم هو خالها، والأخير قال إنها على علاقة غير أخلاقية بأحدهم. كثر الكلام على من

أحببتها، وأنا صاحب الفعلة التي وصفتها هي بالخسة والوضاعة، جاءت يوما إلى المقهى غاضبة، وقفت أمامي تريد أن تشتبك معي بيدها، اقتربت ودفعتني في صدري بيدها:

– أنت خسيس وخائن ولا تؤتمن على عمل.

هنا كان يجب على أن أهب واقفا من على المقعد، شعرت بأن لا حل سوى الصدام معها؛ لأن الهروب هو انهيار جدار الاحترام في عيون من حولي، وكانت من بينهم "سُها" وباقي الأصدقاء سواء شباب أو شابات، دفعتني بيدها مرة أخرى وهي تواصل سيل الشتائم:

– أنا الذي جعلت منك إنسانا وقدمت لك خدمات كثيرة، أتتذكر يوم مجيئك من بلدتك كنت مثل الأبله، حقيقي لا تكرم اللئيم.. وأنت شخص نمرود وسفيه، ولا يحسن ولا يقدر فعل الخير.

هنا لا أدري كيف صفعتها على وجهها بقوة، سقطت على الأرض مغشيا عليها، أمسك بيدي شاب من مجموعتنا ودفعني بعيدا عنها، وهو يطلب مني أن أهدأ، يواصل كلماته نحن جميعا نعرف أنها مخطئة في حقك، وهي من تعدت عليك بالقول والفعل، كانت ليلة صعبة جدا، بين الشد والجذب، بعد أن استفاقت كانت مصرة أن تذهب إلى قسم الشرطة لعمل محضر لي، ولو ذهبت أنا على يقين بأن رجال الشرطة والقانون والجاذبية الأرضية والكواكب التسع سيقفون معها، بل المجرات الأخرى سيرسلون محامين يدافعون عن حقوق المرأة المهدرة في عالمنا الذكوري، هذا النمط المشين صار نهجا، الجميع يرجوها أن تتخلى عن عنادها، وهي تطلب شهادتهم معها، اقترب منها الشاب وقال إننا سوف نشهد معه، أنتِ من تعديتِ عليه بالقول والفعل، واصلت السباب في الجميع، تكاد تصل إلى حالة شبه انهيار، وأنا على يقين أن دموع النساء ليست مقياسا لمقدار الحزن. تراجعت قليلا، مرت أكثر من ساعتين بين القيل والقال والرجاء، فاض بي الكيل وطال صبري اقتربت منها مندفعا بقوة، وأنا أتخيلها في عقلي المريض وهي جاثية على ركبتيها في غرفة نوم الدكتور:

– تريدين عمل محضر لي بقسم الشرطة هيا بنا، سأذهب معكِ أنا لا أخاف.

أمسكت بها من معصمها أجذبها بأن تقوم من مكانها، حدقت في وجهها بقوة والغضب يتطاير من عيني كشرر، رأيتها كالدجاجة المبلولة في ليلة شتاء شديدة البرودة، تنكمش على نفسها واصلت الحديث بنفس الحدة والغضب:

– إما أن تذهبى للقسم لعمل محضر أو تصمتين لا أريد سماع صوتك أيتها العاهـ....

اخترت الصمت ولم أكمل كلامي ونعتها بالعاهرة، وهي كذلك اختارت الصمت، جميعنا اختار الصمت وتفرق الجميع على لا صلح ولا شكوى، والأيام كعادتها كفيلة بطي الأشياء، هل انتهت

قصتها من حياتي، سنرى هذا في المستقبل، ليلتها بقدر حزني على ما حدث بيننا، ولكن وجدت نفسي الضائعة وروح الانتقام جعلتني أشعر بأنني أستطيع أن أفعل. لن أسمح لأحد بعد اليوم أن يجعلني ظلا له أو ذيلا يداري به مؤخرته، تحررت من ربقة التبعية، أتمنى أن تكون مشاعري حقيقية ومن اليوم أواصل النهج الجديد بأن أكون صاحب موقف حاسم، لكن يموت الزمار وأصابعه تواصل العزف.

عدت للبيت ولم أنم ليلتها، كنت قد ابتعت هاتفا محمولا فقد انتشر كالنار في الهشيم، كانت ياسمين تحمل هاتفا منذ أكثر من أربع سنوات، اليوم هذا الهاتف ضروري لك، قالتها لي سها، منذ أن تشبثت بيدي في تلك الليلة الحزينة، عندما قالت إنها تريد أن تطمئن علي، ولا تريد أن تتركني وحيدا، انصرفت سُها وأنا أطمئنها بأني بخير، وسألتقي بها غدا بالجريدة، لن أتغيب عن عملي، وسأذهب إلى نادي القصة، عرفت عنوانه وموعد ندواته، وهناك كثير من الصالونات تدار في أماكن عدة تناقشنا حولها أنا وهي في تلك الليلة، التي واصلنا فيها السير لمدة تزيد على ثلاث ساعات بشوارع المدينة، حتى أوصلتها إلى بيتها كانت الساعة حينها تجاوزت الثانية صباحا، لم نتوقف عن الكلام وقلت حزينا عن "ياسمين":

– أردت لها النجاح في البداية، لذلك كنت حريصا عليها، وكنت أريدها أن تكن قيمة لكنها حولت نفسها من قيمة إلى سلعة، اللعنة عليها وعلى جمالها الخادع، فلتذهب للجحيم.

توقفت "سُها" عن السير وأمسكت بيدي تتحدث بلهجة حادة، كأنها تحذرني من السقوط:

– هذه صفحة ويجب أن تطويها، انظر إلى مستقبلك! ألم تتعلم الدرس بعد؟ يجب أن تستفيق من هذا الوهم، هي لا تحبك.. هي لا تحبك يجب أن تفهم هذا جيدا..

رأيت بريق دموع متحجرة في عينيها، وهي تتحدث بحرقة عن هذا الأمر، تعاطفت معها وفي هذه الليلة اكتشفت مشاعرها تجاهي، هل هي مشاعر حقيقية؟، أظنها كذلك، المرأة لا تعطي بسخاء إلا عندما تحب، أحبتني سُها بإخلاص شديد، لكن يا صغيري، للأسف حاولت أن أكون لها كليا لكن لم أستطع، أنا ظلمت والدتك كثيرا لكنه ظلم غير مقصود، هذا مبرر أسخف من الجرم نفسه ليس هناك جرم مقصود وغير مقصود، فى النهاية نرتكب الآثام وأسهل شيء نبحث لها عن مبرر، مرت الأيام وتلتها الأشهر صارت زوجتي هي كل شيء في حياتي، يبدو أن أمي وضعت لي نهجا أتبعه بكل أنماطه، يجب تسليم مقاليد أموري لامرأة كما فعلت مع زوجتي، التي ظلت تبحث لي عن الفرصة تليها الأخرى، لم تكل وتمل بل عندما تفشل هذه نعيد بناء أمل جديد حول فرصة جديدة. مرت الأشهر بعد الشجار الذي كان في المقهى، اختفت "ياسمين" عن المقهى وعن الوسط

الأدبي، لم أهتم بها ولا بما حدث لها بعد تلك الفضيحة التي نالت منها، وقد سمعت أنها ظلت ليلتها تبكي وتشتكي لصديقتها بأني كسرتها، وهي التي كانت تشعر بالطمأنينة نحوي، ولم تتوقع أن أغدر بها وبأحلامها، كيف استطعت فعل هذا الأمر المهين بها، لا يا سيدتي ما فعلته رغم قسوته كان ضرورة لتصحيح المسار، أنا ارتكبت جرما وأردت التكفير عنه، جرم لا يقل بشاعة عن جرم الدكتور الناقد، هو لديه المبرر الذي من الممكن أن يريح به ضميره، إن كان يملك ضميراً، هذا الشيء السخيف الذي نبرر به أخطاءنا؛ كلمة ضمير التي فقدت مضمونها، كان الناقد يرى أن المجموعة جيدة وتستحق الجائزة، ورغم أن الإجادة كانت تتوفر في كثير من المجموعات الأخرى، لكن لديه المبرر أن هذه المجموعة تستحق، لكن أنا من بذر بذرة الحنظل، وأنا أول من تناولها ولم أستطع تحمل مرارتها، هنا راودني سؤال:

– هل لو كان اسمي مكان اسمها على الغلاف كنت أنا من أخذت الجائزة؟.

تشبه الأيام حال دارنا القديمة، ثابتة ثبوت الجبال لا تتغير، كانت كل صباح أمي تجهز لي وجبة الإفطار، لا تتأخر عني أبدا طيلة صباي، لكني عندما كبرت أنا خلفت وعدي لها، وعدتها ألا أبيع أرضي بعد موتها، وقبل أن يأكل الدود جسدها كنت قد خلفت وعدي أو لأكون دقيقا في التعبير، خلفت نصف وعدي لها، وعدتها ألا أبيع البيت والأرض ولا أرحل عن البلدة. بعت الأرض وأبقيت على الدار مغلقة في قريتنا البعيدة، أمي كانت مخلصة لوالدي، لا تريد أن ينتهي نسل والدي من القرية التي كانت هي عالمها، وحدود دنياها تنتهي بنهاية حدود قريتنا، هي تتشبث بأشياء لا أرى لها قيمة في حياتي، ولم أستطع أن أكون صادقا معها، وفي أحيان كثيرة عندما أكون في عسرة أتذكرها وأقول هذا ذنبها، هل سأستطيع الحفاظ على عهدي مع "سُها".

قلت لها ذات ليلة:

– هل تتزوجينني يا "سها"..

صمتت كثيرا ولم تُجِب عن السؤال، مازالت النقود التي منحتني إياها في يدي لكي أدفعها للناشر لنشر روايتي رحلة بلا ثمن، لم أجد بداً من النشر الخاص على نفقتي، ورغم أني في البداية كنت أرفض هذا المبدأ، وأعتبر هذا الأمر إهانة للكاتب، لكن "سها" ألحت عليَّ أن أخوض التجربة، لا بديل عن ذلك، معظم الوسط يفعلون هذا الأمر مرغمين، إذا اعتمدت على دور النشر الحكومية فيجب أن تنتظر لسنوات عدة، وفي النهاية يمكن رفض عملك، أو يطلبون منك تعديل النص حتي يصلح للنشر. هم يرفضون الكتب والروايات ذات التوجه السياسي، وروايتي لا تخلو من الإسقاط، وأحيانا المجاهرة الكاشفة الصريحة، هم يقبلون الروايات المترجمة بكل ما فيها من ألفاظ جنسية

صريحة، ولا يقبلون من الكاتب المصري هذا، حتى الأفكار يقبلون النص المترجم بفكرته وسياقه الذي هو مخالف للقواعد التي وضعوها، هذا يحد من الإبداع، لذلك لم أخُضْ التجربة والذهاب إليهم وتقديم عملي للجنة القراءة، لهذا لم يكن أمامي خيار إلا دور النشر الخاصة، وبعد انتظار سنوات قررت خوض التجربة المهينة لي؛ دفع قيمة روايتي لكي تنشر، وكنت أعترض لأني لا أقدم سلعة بل قيمة، انتظرت وطال انتظاري وكسرت كل قيود تمردي، واستجبت لمطالب "سها" واقتراحها، فهل تستجيب هي لطلبي بالزواج منها؟

تشيح بوجهها بعيدا عني، بعد هنيهة من الصمت قالت:

– لماذا الآن تطلب الزواج مني؟.

– لأنني أحببتك.

صمتت ولم تُجِب عن تساؤلي، طال بنا الصمت، لعدة دقائق أشعلت هي سيجارة، وقبل أن تنتهي منها، رمت بها داخل الطفاية وانفجرت باكية، لا أستطيع فهم طبيعة نفس المرأة، لكن يجب مسايرتها حتى تستمر الحياة، لماذا هي دوما تفسد اللحظات الجميلة بحجج واهية، ولا نملك حتى حق إلقاء اللوم عليهن، أكره المسميات وأكره القوالب السلوكية النمطية التي يفرضها المجتمع ذو العوار، لا تعرف المرأة إلا إذا جربتها على كل وجوهها، للمرأة يا صغيري، وجوه عدة، تندهش من تغيرها إذا كنت عليها قاضيا أو تقف أمامها متهما، وتصاب بالذهول عندما تجربها سجانا عليها أو سجينها، ويحبط مسعاك عندما تكون سيدها أو تأخذك سَبيا لها، وتصاب باليأس عندما تعاشرها مطيعة ثم تتمرد عليك. قمت قبلت رأسها وأطلب منها أن تكفكف دموعها:

– لماذا هذه الدموع؟ هل قلت شيئا أغضبك؟.

بعد برهة طلبت منها أن تقوم كى نتمشى معا، نذهب إلى حديقة ما، الحديث في الأماكن المفتوحة وسط الحدائق مريح للنفس، قامت وهي تنظر للأرض، تشعر بشيء من الانكسار، ولا أدري لماذا هذا يحدث منها، لكننا عندما جلسنا على الحشائش، تحمل في يدها عدد خمس نسخ من الجريدة، بها مقال كتبته تهاجم فيه مجموعة من رجال الأعمال، مقال قوى جدا ومليء بالمعلومات الجيدة من أرقام وإحصائيات مدهشة، أظن أنها صحفية فطنة، ولديها أسلوب خاص متفرد، تحدثت بكل صراحة عن حقيقة مشاعرها:

– لماذا اليوم يا صلاح تطلب الزواج مني؟ هل لأنني دفعت لك النقود لكي تنشر روايتك؟ هل لهذا الحد أنا رخيصة أشتري حبي بالنقود؟، هل تراني بهذه الصورة؟، أنت تعلم أني أحبك منذ زمن؛ لكن لماذا تطلب ذلك مني اليوم؟! أشعر بالإهانة، لو طلبت الزواج في أي وقت آخر غير

الآن كنت سأكون حينها أسعد إنسانة على وجه الأرض، خانك الوقت، لكن أنا لم تخني مشاعري تجاهك، نعم أحببتك وسأظل أحبك، لكن وقوفي بجوارك لا يعني أنك تتزوجني، وأنت لا تحبني، أنا أقف بجوارك لأنك كاتب جيد ومتميز تستحق فرصة، دون ذلك الأمر لا يستحق منك التضحية تبسمت واقتربت منها، أمسكت بيدها، قبلتها، ونظرت في عينيها ذات الرموش الطويلة المبتلة من أثر الدموع:

– كل ما قُلْتِه مجرد وهم داخل رأسك، أقسم لكِ بأني أحبك حبًا حقيقيًا.

تبسمت وأمسكت بيدي تقبلها ثم احتفظت بها بين يديها:

– متى سنتزوج؟.

هنا قهقهت بصوت مرتفع وأنا آخذها في حضني، شعرت بشيء جميل؛ حضنها يشبه حضن أمي مليئا بالدفء والحنان، شعرت بالراحة بعد هذا الحضن البريء، نعم هي تستحق الاحترام والتقدير، هذا ما سأحاول الحفاظ عليه في علاقتنا معا، كانت زاهدة في تكاليف الزواج، وانتقلنا إلي شقتي التي كنت أستأجرها في الطابق السادس، هنا قررت أو أجبرت على أن أخون نصف عهدى المتبقي لأمي، سافرت لقريتي وبعت البيت وعدتُ في زيارة سريعة، ولم أعلم حينها يا صغيري، بأني أقطع الجذر الأخير المتبقي لك من جذورك بأجدادك، للأسف لن تحمل عنهم سوى أسمائهم في شهادة الميلاد، هكذا تم الزواج بيني وبين أمك، حتى الآن رغم ما حدث بيننا بعد ذلك من مشاحنات، مازلت أكِنُّ لها التقدير والاحترام، لكن هل هذا يكفيها أو ترضى به أم ستتمرد؟.

إياك يا صغيري، أن تتعامل مع النساء بعفوية مطلقة، يجب أن تحسب كل كلمة قبل أن تتفوه بها وبالأخص في الأمور المصيرية، بعد ذلك اكتشفت أن الحرص معهن واجب مقدس حتى في أبسط الأمور الحياتية اليومية، هن يُقَيِّمْنَ الأمور بالميزان الحساس الذي يستخدم في وزن الذهب والأشياء النفيسة، وخاب من الرجال من لا يعرف إلا الميزان ذا الذراع الذي يستخدم في الأوزان الثقيلة.

إن قررتَ أن تدخلَ المرأة حياتك، يجب أن يكون لك قلبان، أحدهما تتركه لها حتى تقضي عليه، والآخر تعيش به، وأن يكون لك لسانان، أحدهما يتحدث إليها باستمرار ويقول لها ما تحب أن تسمعه، والآخر شاهد عليه، وأن يكون لك ألف أذن هي تريد منك المستحيل، تريدك أن تسمع دقات قلبها التي تعلن حبك في كل دقة، هي تريدك سبيا لها:

– معظم النساء يا صغيري، لا يعرفن الفرق بين الحب وبين السبيّ.

أن تعرف زوجتك ماضيك فهذا شيء يشبه شوكة الظهر، دوما تقلق راحتك حتى يصل بك الأمر للضجر. من الغباء أن ترتبط بزوجة تضع دوما الماضي حائطا بينك وبينها، هكذا قررت "سها" أن تكون ياسمين تلك الشوكة التي تنغص بها حياتنا، يا صغيري، لا تحزن، فأنا لا أذم في والدتك لكن هذه طبائع النساء، فلنعد إلى الحكاية.

زواجي كان خطوة جيدة، كانت والدتك في البداية زوجة مريحة في التعامل إلى حد ما، عقلانية أكثر مما هي خيالية، تسعى دوما للوصول للكمال في علاقتنا، هي إنسانة كما قلت لك من قبل معطاءة، تحاول دوما أن تسعدني وتقدم لي العون، لكنها لم تفكر جيدا في هذا القرار الذي اتخذته، يوم أن حَمَلَتْ نسخة من روايتي وذَهَبَتْ بها للناقد الدكتور "شكري عبادة" حزنت جدا بعد أن علمت بالأمر، كانت تريد أن تعدها مفاجأة لي، حكت لي الأمر عندما عادت من عنده، ولكن شيطان ظنوني لم يتركني، بل ظل يلح على رغم محاولتي المستميتة، لكن لم أستطع طرد وسوسته، بأن "سُها" جثت على ركبتيها كما فعلت "ياسمين"، وهي التي كانت حلقة الوصل بينهما كما قالت لي من قبل، المشهد بشع وأصعب من مشهد أشلاء بعض البشر عندما يقع حادث على الطريق السريع، نهرتها بشدة على هذا الفعل:

– كيف تفعلين هذا الأمر من ورائي، وأنتِ التي حذرتيني من قبل من هذا الرجل بأن كل شيء عنده بمقابل، ما هو المقابل الذي ستقدمينه له أو قدمتِه إليه بالفعل؟

هذه أول مرة يرتفع صوتها عليَّ، هذه المرة الأولى التى أبكيها بعد الزواج، يبدو أنها لن تكون الأخيرة، صرخت في وجهي بصوت متألم:

– اخرس يا صلاح، ولا تتفوه بكلمة واحدة، إن تفوهت بكلمة ثانية سأترك لك الشقة، وسأذهب إلى غير رجعة.

كان عليَّ التوقف والتقاط أنفاس الحكمة، خرجت من الشقة مسرعا لا أدري إلى أين تأخذني قدماي، هي حامل في الشهر السادس أو السابع تقريبا، أنا لا أهتم كثيرا بهذه التفاصيل، تربيت منذ الصغر أنها أمور تخص النساء فقط، يجب مغادرة المكان حتى نعيد ترتيب الأفكار التي بعثرها شيطان ظنوني، خرجت وتركتها تواصل البكاء، خرجت وأمامي صورتها متخيلها وهي جاثية على ركبتيها، أكثر الأشياء التي تؤلم الإنسان هي الحزن، لكن الأكثر إيلاما منه الظنون والشك والخوف من فتح الستارة، أخشى هذا الشيء البشع الجالس خلف ستارة الجهل بالأشياء،

واصلت السير في شوارع المدينة هائما على وجهي، تخدشني مخالب الخوف من كل جانب، تدمي جسدي ولا تقتلني، تكاد تطيح بالرمق الأخير المتبقي من عزيمتي، أخشى خطواتي القادمة، أشعر بأنني ريشة تعبث بها الرياح، دون أن أدري قادتني قدماي إلى تمثال الأديب الكبير جلست بجواره على تلك الأدراج الخرسانية، ظللت أنظر إليه في خوف وحالة من السخط، الخوف من المستقبل وغدا سيكون لي ابن هو مسئول مني، مصيره معلق بمصيري، هل أنا شخص يستحق أن يكون مسئولا عن مصير أحد؟ وأنا مصيري المجهول يصيبني بالخوف واليأس. سعيت كثيرا لكي أنشر روايتي، وقبل النشر كنت أظن العقبة الوحيدة التي تواجهني هي النشر، لكن بعد أن نشر العمل وجدت بأن عملية النشر ما هي إلا عقبة من عقبات مستمرة؛ في طريق العذاب الذي اخترته، صراعي مع الناشر الذي خذلني في عدد النسخ المطبوعة، ولم يفِ بالعقد المكتوب، ولم يوزع داخل المكتبات كما وعدني. كان الاتفاق المبرم أن يطبع عددا معينا حسب قيمة النقود المدفوعة، لكنه خذلني ولم يطبع إلا ربع الكمية، وهنا دار بيننا جدل كبير حول هذا الأمر، وبعد أن تهرَّب مني عدة مرات، ثم توصلت إليه، وتمت المواجهة بيننا، قال بمنتهى البرود إن سعر الورق قد ارتفع، وهو لن يدفع من جيبه، أن أردت طباعة الكمية كلها فعلىَّ دفع مبلغ جديد، ثم همس ساخرا:

– لماذا تُصِرُّ على طباعة الكمية كلها، عندما تباع الكمية التي طُبِعتْ سوف أطبع لك ما تبقى، أتدري كمْ نسخة بيعت من عملك منذ أن طبعتها؟، خمس نسخ فقط، يوجد بالمخزن باقي ما تم طبعه، وهي معروضة على أرفف المكتبة، هناك زبائن تمسك بالعمل وعندما تقرأ اسمك المجهول تترك العمل مكانه، يجب عمل دعاية للرواية يا "صلاح" مثلا.. يكتب لك ناقد عنها دراسة نقدية، أو عقد بعض الندوات عنها في أحد المنتديات، أو الظهور بأحد البرامج الثقافية للحديث عنها، معظم جمهور القراءة عندنا يقرأ عن طريق السمع، نادرا ما تجد من عنده روح الاكتشاف. بعض القراء أو أكثرهم لا يتمتعون بروح المغامرة، أنت اسم مجهول، لا تتعجل النجاح، من سيدفع قيمة رواية لكاتب لا يعرفه حتى جيرانه، أنت كاتب مجهول ضع هذه الكلمة نصب عينيك دوما، أنت كاتب مجهول.

كلمات الناشر حطمت الكثير من همتي، كأنه أمسك بمعول وانهال على جدار فرحتي بالهدم؛ جعلها حطاما، كانت "سها" ترافقني عندما ذهبت للناشر، بعد أن أنهينا عملنا بالجريدة. هذا اللقاء الذي عدت منه حزينا هو ما دفعها إلى أن تذهب للناقد الدكتور "شكري عبادة"، لتهديه النسخة وتطلب منه أن يكتب عنها، أو يعقد لها ندوة في أحد الصالونات التي يديرها، وصالونه الشهري

الذي يقدمه في تلك القاعة الحكومية دون أن يدفع جنيها واحدا. منحته الدولة مكانا واسعا مكيفا، مقاعده مريحة لكي يسهم في نشر الثقافة، بعد صمت دام لهنيهة قال لها ساخرا مني، مبارك النشر لزوجك ثم سألها بلؤم شديد:

– أتدرين ماذا فعل صلاح سنجاب بياسمين جعفر.

هزت رأسها بأنها تعلم كل شيء عن زوجها، وهي تستحق ما حدث لها، ضحك من رد فعلها:

– هل حقيقي تعلمين عنه كل شيء، لا بأس يا سها كلنا نستحق نتيجة أفعالنا.

ثم هز رأسه يطمئنها:

– لا تخافي على صلاح، هو كاتب جيد يمتلك أدوات ومقومات النجاح وسيصل ذات يوم إلى مراده، هو يتعجل النجاح وهذه العجالة تكاد تقتل موهبته، أخشى عليه من نفسه، لكن يعيبه أنه يتمتع بقدر من السذاجة، ولا أريد أن أقول الغباء. عليه أن يلين حتى لا يكسر، أصحاب المواقف تكتظ بهم القبور والسجون ومستشفيات الأمراض العقلية، ولا تنسي أنه تلميذي وأنا سأظل أفتخر به في كل نجاح يصل إليه، أخبريه بذلك، وعليه العودة إذا ما طابت نفسه للعودة.

بعد أن أنهت "سُها" حديثها عما فعلته خلال زيارتها للناقد، شعرت بنار تحرق جوفي من الداخل، هي كالدبة التي قتلت صاحبها بهذا الفعل، الذي أراه مشينا وقد نالت من سمعتي، كانت ردة فعلي بها شيء من الحماقة، التي بسببها حدثت مشكلة كبيرة جعلتني أترك البيت وأرحل في هذه الليلة.

أواصل الجلوس بجوار تمثال الأديب، همهمتُ بشيء من الألم المدفون داخل أعماق نفسي:

– متى ينتهي هذا العذاب يا الله؟، سعيت طيلة عمري أن أكون كالطفل ينام عندما يأتيه النوم، ولا أتقلب على جمر الأفكار والظنون كلما وضعت رأسي على وسادتي، هذا الرجل يدعوني للعودة لدخول المصيدة مرة أخرى، هذا من سخرية القدر، لماذا الصعاليك والفقراء هم دوما مدعاة للسخرية.

انتشلني من بحر ظنوني الهائج في ليلة مظلمة هذا الصوت، سمعت صوت ضحكة بجواري، اقتربت مني تهمس لي "مالك زعلان من إيه؟ شكلك ابن ناس!" نظرت نحوها وجدتها فتاة في العقد الثالث من عمرها، تمسك بسيجارة في يدها، تسألني إن كان يوجد معي قداحة، هززت رأسي بالرفض، تسألني عن عنواني أين أسكن ومع من أسكن؟ هل من الممكن أن تستضيف أحداً داخل بيتك؟ طرحت تلك الأسئلة متتالية كأنها تحفظها. عقدت جبيني سألتها بضيق:

– حضرتك ماذا تريدين مني؟.

وضعت سيجارتها بين شفتيها بعد أن أخرجت قداحة من حقيبة يدها، تبسمت لفعلتها هذه، ثم اقتربت وجلست إلى جواري، قالت بصوت فيه غنج ودلال:

– يبدو أنك حقيقي ابن ناس لأنك قلت لي حضرتك، أنا بآخذ مائتي جنيه، لكن لي شرط وحيد، أن تتمتع بنصف جسدي الأعلى فقط، وأنا سأمتعك، هل المكان الذي تقيم فيه يسمح بأن أذهب معك الليلة؟..

هنا لم أتمالك نفسي من الضحك قهقهت عاليا، بل سقطت على الحشائش من كثرة الضحك وأنا أتذكر "ياسمين"، الفتاة مندهشة من هذا الهذيان الذي أمارسه على الملأ، رمتني بنظرات الحسرة وولت منصرفة، وهي تتهمني بالجنون، نعم أنا مجنون من أفعالكن. نظرت إلى ساعة يدي تجاوزت الواحدة صباحا، اقترب شابان أظن أني رأيتهما من قبل، جلسا بجواري ينفثان دخان السجائر الزرقاء بقوة، بعد أن تناولا علبتي كشري، وألقيا بالعلبتين الفارغتين بجوار قاعدة التمثال، يهمهمان بضحك شديد سمعت من كلامهما أنهما يعملان بالقرب من هنا في محل كبير، وهذه ساعة الراحة يأتيان إلى هنا شبه يومي، يقول أحدهما لصاحبه إنه لا يشعر بنفسه إلا عندما يجلس تلك اللحظات يشرب هذه السيجارة، الحياة صعبة عليه ومتطلبات الحياة صارت قاسية علينا نحن أصحاب الرواتب، أتمنى العمل الحر رغم أنه مخاطرة ولكن ربحه جيد، ظل يسرد عدداً من المشاكل اليومية، مثل التعليم والدروس والسلع التي ارتفع ثمنها والفواتير، وزوجته التي لا تأخذها به شفقة، لذلك هو يعمل عملا ثانيا ليلاً، انتهيا من تدخين سيجارتيهما ولم تنتهِ الشكوى، رحلا الاثنان من حيث جاءا وهما يواصلان الحديث عما بدآه.

لم أجد طريقا يسعني إلا العودة لحضن "سها" الدافيء معتذرا لها عما حدث، وجدتها تنتظرني رغم ما صدر مني من حماقة، وقد بررت غضبي الشديد بأني أحبها، أخاف عليها من هذا الوغد الذي يتاجر بأحلام الناس، جلسنا نتحدث، كانت في البداية حادة الطباع، وتتحدث بلغة أقرب للعتاب، كانت عصبية كعصبيتها وقت إقلاعها عن التدخين، بعد أن اكتشفنا أنها حامل، طلبت منها أن تقلع عن التدخين، وكانت لديها الرغبة بالفعل، قالت إنه عادة سيئة لا تستفيد منها شيئا، والمولود القادم يستحق التضحية بكل عاداتنا الضارة حتى لا نضره، حاولنا من أجل طفلنا التخلي عن كل العادات السيئة إلا العناد والمكابرة فلم نستطع.

سألتها ماذا سنفعل في المستقبل، الرواية لم يبع منها سوى خمس نسخ، ما حدث من الناشر هي عملية نصب وليس نشرا، وقد ظهرت نتيجة المسابقة العربية الكبرى الأسبوع الماضي ولم يكن لي

نصيب من النجاح، قد انتظرت شهورا على أمل أن أتوج بالجائزة، حتى يتوفر لي الانتشار وتترجم روايتي إلى اللغة الإنجليزية، قالت وفي عينيها بريق طفل يهفو لقطعة حلوى:

– هل كنت تطمح للقيمة النقدية للجائزة، أم للشهرة؟

– لا لهذا ولا ذاك كنت أنتظر الانتشار هذا ما يهمني في المقام الأول.

والحقيقة يا صغيري، كنت أنتظر الاثنتين معا، لماذا من يحملون الأقلام يعيشون دوما فقراء؟! هل انتهى زمن القلم؟ وأصحاب الأقدام الذين يركلون الكرة يأخذون ملايين الجنيهات، وأصحاب المشاعر المزيفة أمام الكاميرات يأخذون الملايين من الجنيهات، هل نكافئ الذي يلهو ونكافئ من يمنحنا مشاعر مزيفة وهو يعلم أنه يكذب، وأصحاب رؤوس الأموال من المنتجين يعلمون ذلك. هل نصدق الكاذب ونكذب الصادق، أنا لست معترضا، لكنني أبحث عن العدالة. قيمة ما يتقاضاه الممثل عن دور واحد بقيمة مبيعات الهيئة المصرية العامة للكتاب خلال عام كامل، هذا الصرح العظيم بكل ما يحويه من كتب أدبية وعلمية سطرها آلاف المبدعين والعلماء، لماذا هذا الفارق الشاسع كبُعد السماء عن الأرض؟، هل نحن تراب وهم نجوم تتلألأ في السماء؟، هل كان اختياري لهذا الطريق خطأ؟، تشيدون بموهبتي وتكتبون عن غيري، تصفقون لها في الجلسات الخاصة وعلى الملأ تتبرؤون منها، أنا لا أصدقكم. من قال إني أجيد الكتابة الروائية؟ كلكم كاذبون متلونون، سأبحث عن مجال آخر يمنحني صوتا لأصف معاناتي للناس، وأقول للجميع كيف هو حال ملح الأرض من الفقراء؟ وكيف يعانون؟، وأقول لكم كيف يتسم سادتكم بالحماقة؟، إني لا أستحق منهم أن يبقوني في هذا المكان القميء المظلم، لن أبقى ظلا لا قيمة له، أجمل شيء يبحث عنه الكاتب هو الانتشار، ولا أجد أفضل من السينما والدراما لتحقق لي هذا الانتشار، وقد طُلب مني هذا الأمر من قبل، لكن للأسف كنت موهوما بداء الإخلاص للكتابة السردية، وها هي قد خانتني في وضح النهار، رفعت ساقيها لغيري وضمتهما في وجهي، وللأسف غيري عنين جعلت منه فحلا، يشار له بالبنان في السرد وفي البناء والحبكة، قررت خوض غمار المغامرة في كتابة السيناريو.

أمسكت الريموت كنترول أقلب في قنوات التلفاز، أنتظر عودة "سها" بقدح القهوة الذي طلبته منها، أصبحت أحب القهوة من يدها، كانت هناك مفاجأة تنتظرني، حلقة معادة على إحدى القنوات التي تذاع في النهار وتعاد فجرا، تستضيف القاصة "ياسمين جعفر" والحديث عن مجموعتها القصصية الجديدة "الليالي لم تعد حمراء" ظلت تسترسل عن مجموعتها الجديدة، وعن المواضيع النسائية الجريئة التي طرحتها فيها، ولماذا اختارت لها هذا العنوان اللافت للانتباه، هي تطرح مشكلة

العجز الجنسي عند الرجال، ومدى تأثيره فى استقرار الأسرة. هنا ضحكت ساخرا منها، كيف عرفت بأن بعض الرجال عندهم هذا العجز، هل سمعت من غيرها أم خاضت غمار التجربة، أنا إنسان سفيه ووقح واصلت الضحك من ظنوني السيئة، همست في سريرتي ليس كل الرجال هذا الناقد العجوز، الذي يستعيد فحولته الكاذبة بتلك الحبة الزرقاء.

وتطرقت المذيعة لتسأل الضيفة عن الهجوم والحرب التي شُنَّت عليها، عندما تم نشر مجموعتها الثانية وذكرت اسم المجموعة القصصية، وأنا كنت اقترحت عليها هذا الاسم، وهى المجموعة التي تحوي بين دفتيها قصة لكاتب راحل، تبسمت "ياسمين" هذه حرب كانت مرتبة من قبل الناشر وبيننا قضية منظورة أمام القضاء، الناشر عبث بمحتوى المجموعة لصالح أحدهم، قال إنه أعطى المجموعة لمصحح لغوي وقد تم شراء ذمته، هذا ما قاله صاحب دار النشر يبرئ نفسه، ولكن الحقيقة المسئول أمامي هو صاحب الدار، وننتظر ماذا سيقول القضاء وأنا أثق بميزان العدالة، هذه ضريبة النجاح، عندما حصلت على جائزة القصة خرج لي أعداء من الجحر، وللأسف أنا كاتبة أحترم قلمي جدا وأثق بقدراتي، وقد رد الله كيدهم في نحورهم، هذه الطبعة الثالثة من المجموعة قد نفدت، والآن نجهز للطبعة الرابعة، وسأزف بشرى سارة لقرائي فقد انتهيت من كتابة رواية جديدة، سوف يتم عرضها بمعرض الكتاب القادم.

انتهى البرنامج ولم تنته ظنوني السرمدية، هل نجاحاتها الوهمية هي ما تقتلني؟ أم فشلي في الوصول لقلبها هو ما يؤلمني؟، أم فشلي في الكتابة يجعل نار الغيرة تحرق قلبي، هي تكذب والمذيعة شريكة في الأمر، كيف استطاعت الخروج من هذه المؤامرة التي أحكمت خيوطها حولها؟، ورد بداخلي سؤال:

– مَن القلم الجديد الذي تملكينه أيتها اللعوب؟.

شعرت بضيق كبير وتنهدت بقوة، أشعر بأني قليل الحيلة أمام كيدها العظيم، لا أدري ماذا أفعل طيلة عمري لا أسعى لصناعة عدو لي؟، لكن "ياسمين" هي منَ اختارت أن تكون عدوًا بعد أن كانت الحبيبة، هل مازالت تتاجر بنصف جسدها العلوي؟، أم استباحت هذا الجسد الطري مثل قطعة الملبن، أجد "سها" واقفة خلفي، ولم أنتبه لحضورها، وضعت قدح القهوة بجواري، وجلست في المقابل، نظرت لوجهي الحزين جدا:

– بماذا تفكر؟ لماذا هذا الحزن الذي ارتسم على وجهك، أنا أقف بجوارك منذ وقت كبير أحمل القهوة ولم تنتبه.. إلى متى سأظل بجوارك ولا تشعر بي.

"سها" تمارس الإسقاط الأدبي في حديثها، كان سؤالها كثقل جديد يضاف على تلك الأثقال التي على عاتقي، هززت رأسي ولم أُجِب عليها، لكن لأن للنساء حماقة لا يضاهيهن فيها أحد، همهمِتْ بشيء من الضيق تسألني هذا السؤال الأحمق، الذي جعلني أترك قدح القهوة، وأدخل إلى غرفة نومي هاربا من نفسي، لكن هل أستطيع الهروب من ياسمين، التي أشعر بها دوما وبلمسات يدها على جسدي، كنت بكرا واستباحت جسدي، كنت بريئا وجعلت مني مجرما يستحق العقاب على أفعاله وظنونه، من منا ظلم الآخر؟، هل هي التي جعلت مني أضحوكة بين الأصدقاء فأصبحت صبي الكاتبة، أم أنا الذي ظلمتها عندما أعجبني طعم الجبن الذي كان بالمصيدة؟ ستظل المرأة الأولى في حياة الرجل لعنة لا يستطيع الخلاص منها، أكثر الرجال الذين يشعرون براحة البال من يجعلون الأولى هي الأخيرة، وهل تكفي الرجل طيلة حياته امرأة واحدة، يا صغيري، نحن الرجال مصابون بداء خطير اسمه الازدواجية، والتصنيف يروق لنا، هناك امرأة تصلح أن نتزوجها وأخرى نحبها، ولا تصلح هذه بديلة لتلك، وهن مصابات بداء أكثر خطورة؛ من "هي" التي تعرفها غيري؟ إن صمت يبدو أنك تفكر فيها، وإن رأتك سعيدا؛ قد قابلتها، حتى عند الحزن أن سبب حزنك هي، الغيرة فيروس يدمر، عندهن يقينا بأن "هي" هذه من طبائع الرجل، إن وجد الزوج وجدت "هي".

كان سؤال والدتك الذي أحزنني جدا، وجعلني أشعر بأن للمرأة قدرة على الدخول لأعماق الرجل، قالت وهي تراقب وجهي وتنتظر رد فعلي بمخالب من حديد:

– ما أخبار ياسمين جعفر؟ هل شعرت بالضيق عندما رأيتها على التليفزيون؟ أما زلت تشتاق لطعم المكرونة من صنيع يدها؟

يا صغيري، أقولها لك بصدق:

– لا تكن كتاباً مفتوحاً لهن، الكتاب الذي يُعرف محتواه يفقد قيمته لديهن، هن دوما لا يقدرن المحتوى، لأنهن لا ينشغلن إلا بالغلاف والفهرس، والعناوين الرئيسية وشكل الخط، أما المحتوى لا يرد بخاطر بعضهن.

3

ابتلعت سؤال "سها" في تلك الليلة؛ كما ابتلعت بعده بأيام ثرثرة "محمود يحيى" السيناريست والمنتج المعروف، الذي خرجت من عنده أحمل عددا من الكتب، الخاصة بكتابة السيناريو والحوار قد أهداها لي، قررت تحويل روايتي "رحلة بلا ثمن" إلى فيلم سينمائي، كنت تناقشت مع زوجتي بأنه يجب أن أتوقف عن كتابة الرواية، لا أعلم أهي تراتيب القدر أم هناك قوة خفية تحرك الأحداث، ونحن عبارة عن عرائس ماريونيت نتحرك حسب رغبات غيرنا، يوم أن جاء هذا السيناريست والمنتج المشهور في زيارة للجريدة، جاء ليعاتب رئيس التحرير على الخبر المنشور عنه، أو العمود النقدي الذي كتبه الأستاذ "رأفت مرعي" الناقد الكبير بالجريدة، بأن قصة فيلمه الأخير مسروقة من فيلم أجنبي، جاء الرجل معاتبا، وأنه يتوجب عليه التحقق من صحة الأخبار قبل النشر، أيا كانت حقيقة الأمر لا تعنيني في شيء.

ذات ظهيرة كنا بالجريدة.. جاءت لي "سها" وقد ارتفعت بطنها أمامها كقربة ماء، اقترب موعد ولادتها، جاءت تطلب مني ترك ما بيدي، كنت منغمسا في تصحيح بعض المقالات، التي اعتاد أصحابها على فتح التاء المربوطة وجعل الهاء تاء والهمزات حائرة بين أعلى وأسفل الألف، شيء اعتدت عليه من بعض الصحفيين وليس المبتدئين فقط، بل حتى أصحاب الأعمدة والمخضرمين منهم، قالت بفرحة رأيتها في عينيها:

– أنت محظوظ يا صلاح أتدري من في مكتب رئيس التحرير! "محمود يحيى" السيناريست والمنتج المشهور.

حينها وقفنا أنا وهي ننتظر خروج الرجل، عند الباب العمومي للجريدة، واندمجنا في حوار وهمي كأننا نتحدث عن العمل، حتي خرج علينا بجسده الضخم يتمايل، وبدلته الواسعة عليه بعض الشيء وصلعة رأسه كأنها قطعة مرآة تعكس الضوء. اقتربت منه "سها" ترسم ابتسامة كبيرة على وجهها كأنها موظفة استقبال، زاد معها حجم أنفها الكبير، مدت يدها إليه بنسخة من روايتي:

– أستاذ محمود يحيى أنا محظوظة بأني التقيت بك، أحببت كل أفلامك والفيلم الأخير كان مؤثراً للغاية، علاقة البطل والبطلة هذه علاقة عاطفية إنسانية ندر وجودها في هذا الزمان.

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة: شكرا لكِ.

– هل يمكنك قبول هذه الهدية؟ إنها رواية زوجي، يريد أن يحولها إلى فيلم سينمائي، ويريد أن يستفيد من خبرة حضرتك، إن لم يكن الأمر مزعجا لك، وأعتذر لك عن فضولي.

مد يده بالكارت الشخصي وعليه عنوانه وتليفونه، جرس هاتفه المحمول لا يتوقف عن الرنين، أمسك الهاتف ثم أجاب باقتضاب، "أنا جاي في السكة هكون في الميعاد المتفق عليه" ثم قفل الخط دون انتظار جواب، يبدو أنه معد البرنامج يتعجل حضوره، ثم التفت إلى زوجتي وهو يحاول الانصراف معتذرا:

– معذرة أنا مرتبط بموعد للظهور في برنامج، سأكون على الهواء مباشر بعد ربع ساعة من الآن، حدثيني بعد أسبوع سوف أحدد موعدا لنلتقي، وأكون قد انتهيت من قراءتها.

ذهب الرجل وهو يحمل نسخة من روايتي، "سها" تشكر كرمه معنا، وأنا وقفت شاهد عيان على ما يحدث، سعيد بجراءة زوجتي، اقتربت منها وسألتها ساخرا عما حدث:

– هل شاهدتي الفيلم الأخير للرجل.

– لم أشاهده، ولم أشاهد له من قبل فيلما كاملا، كل أفلامه معربة ليس بها ما هو جديد يضيف للعقل متعة، وأفكاره مستهلكة ونهايات أفلامه متشابهة، هو يحاول مخاطبة الغرائز لا العقول وهذه النوعية من الأفلام لا تعجبني.

ضحكنا معا أنا و"سها" حتى انتبه زملاء لنا من كثرة الضحك، وعدنا نواصل السخرية من حالنا وحال السيناريست المنتج، وجدنا الناقد الفني الكبير الأستاذ "رأفت مرعي" يخرج من مكتبه على وجهه علامات الضيق متوجها نحو مكتب رئيس التحرير، صمتنا في حالة من القلق، وأنا تذكرت مقال الناقد عن الفيلم، ولكن بعد مرور الرجل بجوارنا كأنه كتلة لهب، فهمنا ما سيحدث داخل المكتب، قالت لي سها:

– سنسمع بعد دقائق صوت شجار سيحدث بين الأستاذ رأفت ورئيس التحرير، الذي أخذ من المنتج ثمن السكوت.

الناقد يصيح بصوت مرتفع: لن أكتب عمودا جديدا يشيد بالفيلم، سوف أفقد مصداقيتي بين الناس، وهذا الفعل سيؤثر فى مصداقية الجريدة وسمعتها، كيف تطلب مني هذا الأمر؟ أنا لن أغير موقفي حتي لو تقدمت باستقالتي، الفكرة مسروقة ومضاف عليها بعض التوابل، لكن في الحقيقة هذه التوابل أضرت بالمعني الحقيقي للفيلم الذي حوله من قصة إنسانية، إلى مشاهد بكاء وعويل يتخللها مشاهد جنسية ليس لها علاقة بالتمثيل والفن، هذا ليس إبداعا تماما كالطعام المثلج ليس فيه نكهة الفن الحقيقي، كان من الأولى عليه أن يكون شجاعًا وينوه عن صاحب الفكرة أو يقول الفيلم مقتبس من جهة ما.

رئيس التحرير: أنت تسيء للفن بهذه المواقف العدوانية، إن كان بينك وبين الرجل خلاف قديم، لا تصفي حساباتك بجريدتي.

انتهى الحوار بين الطرفين، أوصد باب مكتب رئيس التحرير عليه، وباب الناقد كذلك، ولم يصل الاثنان لحل يرضي الطرفين، أمور الناس تّجرى على غير ما يقدرون ويدبرون، والنهايات ليست بعيدة كما نظنها، تنتهي الأشياء عندما نكفر بها.

ولم يمر يومان حتى وجدنا مكتب رأفت مغلقاً، وبين همهمات الموظفين، الجميع يلوك خبر استقالة الناقد رأفت مرعي، قلت بصوت حزين لها:

– قد خسرنا ناقدا محترما في زمن ندر فيه الصادقون، كنت أحب أن أقرأ ما يكتبه، وجبة دسمة من النقد المحترف والاطلاع على الثقافات الأخرى.

وبعدها اعتاد الزملاء حضور الناقد الجديد الذي أشرف على صفحة الفن، وللأسف أول مقال للناقد الجديد يشيد بروعة الفيلم الأخير للمنتج "محمود يحيى"، لم أتعجب ولم تساورني مشاعر من الدهشة مما يحدث، بل آمنت وتيقنت بأنني يجب وضع كف يدي على إحدى عيني.

انتهينا من العمل، أعلق ذراعها بذراعي ونسير معا، الجو في أغسطس حار جدا. عرضت عليها أن نتناول آيس كريم أو أي نوع من المثلجات، داخل هذا المحل الشهير بوسط البلد، حتى تستريح بعض الوقت، قالت إنه مزدحم وقد عرضت علىَّ لو لم يكن عندي مانع نذهب للمقهى، منذ زمن لم نرتده، وافقت على طلبها وظللنا نواصل الحكايات ولم نتوقف عن الكلام، قالت "سها":

– يجب أن تبدأ في كتابة السيناريو، عندما تذهب للرجل يجب أن يكون بين يديك عدد من المشاهد، ويا حبذا لو كان السيناريو كاملا، لكى تتحدثا عن شيء موجود ويجب تعديله، خير من أن تتحدثا عن شيء لا وجود له إلا في العقل والخيال.

هززت رأسي مقتنعا بوجهة نظرها، وكنت قد وضعت تصورا مبدئيا لأول عدد من المشاهد، ونقطة البداية التي سأختارها من الرواية. القصة مختمرة في رأسي هو البحث عن الحبكة الدرامية فقط، وكما يقولون السرد موهبة والسيناريو حرفة، هل سأحترف كتابة السيناريو، تجربة يجب أخذها بجدية، كان لي بعض المحاولات من قبل، أوراق متراصة داخل أدراج مكتبي، يجب التنقيب والتفتيش في خزانة الماضي. واصلنا الحديث عن ابننا القادم للحياة، والأمنيات التي نرسمها له في المستقبل، رغم أننا لا نملك الكثير من المال لكن راتبي مع راتبها يجعلنا نعيش حياة مستورة، قلت لزوجتي مبتسما أمازحها:

– قد قرأت مقالك الجديد الذي سينزل في العدد القادم، به كثير من الأخطاء كيف تكتبين هذا الكم من الأخطاء وزوجك هو المصحح؟

تبسمت من قولي وهي تريد سماع رأيي فيه، قلت وأنا أواصل قراءة بعض عناوين الأفلام الجديدة على دور العرض:

– حقيقي يا زوجتي أخشى عليكِ من سلسلة المقالات هذه، إلى الآن الأمور تمر على خير، ولم ينتبه أحد لما تكتبين عن مجموعة رجال الأعمال، الذين يشترون الأرض لغرض ما معلن ثم يتركونها، ظاهرة "التسقيع" يمارسونها بحرفية، ويقومون بطرق ملتوية بتوصيل المرافق إليها، ويبنون عليها قصورا وفيلات للأغنياء فقط، وبقدرة قادر نجد متر الأرض الذي كان سعره جنيهات زهيدة قد تضاعفت قيمته عما تم الشراء به.

واصلنا حوارنا حول ما يحدث وما سيكون، لدينا أحلام مشتركة، كانت ليلة جميلة في مضمونها وفي ظاهرها، وما جعلها أجمل هو الأمل الذي ينتظرنا مع هذا المنتج، أشعر بأن عذاب السنوات الذي مر على سيأتي بانفراجة عما قريب. حالة من التفاؤل تسيطر علينا معا، فقد كان لدينا وقتها القدرة على الثرثرة، فلم نتوقف عن الكلام، في الماضي والحاضر والمستقبل. جاء النادل يسألنا ماذا نشرب طلبت أنا قهوتي المفضلة، أما هي فقد توقفت عن شرب القهوة والتدخين أيضا خوفا عليك يا صغيري، أعلم جيدا أن ما قدمناه أو تركناه لك من إرث هو أفضل وأثمن ما نملك، ولو كنا نستطيع أن نقدم أفضل لفعلنا، فلا تلعن فقرنا أو حاجتنا، حاولنا أن نجعل لك مستقبلا يليق بك، فلا تحزن مني أنا بالأخص؛ لأنني لن أترك لك سوى سمعة غير جيدة، أب قاتل في نظر الجميع، والحقيقة لا يعلمها إلا الله، الآباء من الأشياء القدرية، فلا تحاول العبث بقدرك أو تغيره حتى لو كنت لا ترضى عنه، فربما ما تذهب إليه أو تسعى إليه وتتمناه يكون أسوأ مما أختاره لك القدر.

نصيحتي لك ألا تتمرد على الأشياء القدرية؛ لأن التمرد عليها لن يغيرها، بل يزيد حالة السخط والغضب، ويبعدك عن النجاح، حاول أن تتعايش معها، لأنك لو رضيت بها ستكون دافعا لك وليس عائقاً أمامك، من رحم الوجع يولد الإبداع. كن على يقين بأن ما ترفضه أنت هو أمنية وفرصة جيدة لغيرك، الفرق بين إنسان ناجح وآخر فاشل هو التغلب على الظروف المتاحة، الفاشل يهرب منها ويظل يبكي على سوء بخته، ومن يسعى للنجاح يقفز فوق كل الحواجز، الحياة تحتاج إلى حصان سباق جامح لا يرى إلا هدفه.

4

توقف قطار السعادة ببيتنا، نعيش هذه الأيام فترات جيدة، التفاؤل هو أكسجين الحياة، زوجتي متفائلة وأنا كذلك، تذكرت أمي عندما كنت أسألها عن حالها، كانت تقول اليوم الذي يمر وهي مستورة دون وجع أو حزن فهي أفضل إنسانة في الدنيا، حقيقي يا أمي رغم بساطة القول لكنه يحمل معني فلسفياً عميقاً، الستر هو القليل من كل شيء يمنحني السعادة إن رضيت بهذا القليل.
أما تنميته فتتوقف على مجهودي وعلى الإخلاص والتفاني، من الممكن أن يكون معي مال كثير ولكن ليس عندي صحة، لكن لو عندي القليل من المال والقليل من الصحة من الممكن التعايش بهما في سعادة تامة، هذه فلسفة من قبلنا وسر سعادتهم، لكن نحن رفضنا القليل من النعم حتى صرنا نشعر بحالة من العدم، فصار حالنا إلى هوة مظلمة القاع من السخط، فصار هذا السخط هو شعور عام نجتره في كل جلساتنا، السعادة شعور نسبي، أعيشها اليوم مع "سها" حقيقي أنا سعيد، أحلامي التي تنتظرني والمقدم عليها هي الدافع لهذا الشعور الجيد، رغم أن التمرد سمة المبدعين، لكن هناك فرقًا بين التمرد على نمط الحياة، والتمرد على الإبداع ، المبدع يتمرد على ما يكتب لكي يجعله أفضل ويصل به للكمال، ولا يتمرد على حياته لأنه ليس بطالب دنيا.
ذهبت للمنتج أشعر بأن أحلامي عادت كشمس الصباح، استأجرت تاكسى للعنوان المكتوب في الكارت، هذه الأماكن لا ترتادها المواصلات العامة؛ لأن كل من يسكن في هذا "الكمبوند" يملك عددا من السيارات، وجعلوا حول مساكنهم الفخمة سورا مرتفعا من كل الاتجاهات، يقف على أبوابها حراس أشداء يمنعون العامة والفقراء، هكذا هم يمارسون التشرنق الطبقي بكل سماجته، يخافون على أنفسهم من التطفل.
كانت "سها" قد تحدثت إليه في الهاتف المحمول، وقد أخذت منه هذا الموعد، خلال تلك الأيام كنت قد جهزت أوراقي وأفكاري، وهما زادي وزوادي اللذان يمنحانني القدرة على المواصلة، هو يسكن في قصر منيف، المكان مريح للنفس توجد حديقة أمام المبنى وبها حمام سباحة، تجاوزت هذه الأشياء وأنا ألج داخل المكان، إلى أن أجلسني الحارس داخل مكتب فخم بالطابق الأرضي، المكتب به صور كثيرة؛ بوسترات لأفلام هو أنتجها للسينما، كأنه يقول لضيوفه هأنذا من صنعت هذا النجم وهذه النجمة، وهذه هي سيرتي الذاتية المشرفة، انتهيت من تلك النظرة الفاحصة للمكان وللصور التي لفتت انتباهي، ولكن كل ما مررت به رغم أنها مشاهد عابرة ولكنها تركت في النفس غصة.

المقارنة فخ سهل السقوط فيه، لماذا لا أكون مثله؟ مشاعري لا أدري إن كانت حسدا أم غبطة، لكنني تمنيت داخل النفس أمنيات عديدة لا تمت لواقعي بصلة، لم أهتم يوما بأن يكون لديّ مال كثير، لكن اليوم تملكني هذا الشعور غير الإرادي بل سيطر على كل حواسي. سمعت صوت ضحكة ماجنة خارج المكتب من هذا البهو الكبير، التفت لأجدها فتاة جميلة، ترتدي فستانا يصل إلى مافوق ركبتيها كاشفا عن ساقيها الملفوفتين البيضاوين جدا، وجهها مألوف لي قد رأيته من قبل، أجل هي الفنانة التي رأيتها في أحد المسلسلات في شهر رمضان الماضي، لكن لم أتذكر اسمها، تواصل حديثها للحارس "الباشا لسه نايم" تتقدم الحارس نحو المكتب الذي أجلس فيه، تلتفت نحوي قائلة:

– مساء الخير.

– مساء النور.

مدت يدها تصافحني، قمت فصافحتها باهتمام واحترام، ثم عدت للجلوس في مكاني، وجلست هي في مكانها، أخبرت الحارس بطلبها كأنها زبونة داخل أحد المقاهي:

– قل لعم سيد قهوة مضبوطة.

– من عيني يا نجمة، وحضرتك تشرب أيه؟.

أشار نحوي الحارس، شكرته لا أريد سوى بعض من الماء، رفض الرجل وأصر على أن أشرب شيئا ما، حتى لا يغضب منه الباشا، الذي يكرم كل ضيوفه، انتهى بي الأمر أن طلبت شايا، تركنا الحارس وانصرف، تركنا أنا وتلك الممثلة الجديدة خلا علينا المكتب، حاولت تذكر اسمها، لكن دون جدوى. ظل الصمت يسيطر على المكان، هذا من حظها العاثر أنها التقت بشخص لا يعرفها أو غير متابع للحركة الفنية، أظن مثلها مثل كل المشاهير مصابون بداء الأنا، لذلك طالت حالة الصمت، وبين الحين والآخر ترمقني بنظرات مختلفة، كأنها تحثني على الحديث معها، إلى أن دخل علينا الرجل العجوز يحمل قدح القهوة وكوبا من الشاي، الآن فقط عرفت من هو عم سيد، انصرف الرجل وهو يبتسم لها بعد أن شكرته، ولم يبتسم لي عندما شكرته، خلا علينا المكتب مرة أخرى، التفتت نحوي، قائلة:

– أنا لم أرك من قبل هنا، ممكن تعرفني بنفسك.

– أنا صلاح سنجاب روائي وأحبو أولى خطواتي في كتابة السيناريو.

– واو سيناريست، ربنا يوفقك.

انتهى بيننا الحوار عند هذا الحد لدخول الأستاذ المنتج "محمود يحيى"، يعتذر عن التأخير أنه لم ينم إلا الساعة السادسة صباحا، اقترب من الفتاة سلم عليها وقبلها على الخدين، وصافحني باحترام شديد، يدعونا للجلوس، تحدث إليّ كأنه يعرفني منذ زمن، أو كانت بيننا جلسات سابقة.

– أتدري يا صلاح، مدى المجهود الذي نبذله؟ أشعر بالتعب الشديد ولا أحد يقدر هذا الأمر، المنتج يعتبره الجميع بنكا متنقلا، الجميع يريدون استنزاف نقوده وتحقيق أحلامهم، وما بالك عندما تكون مؤلف النص، هذا عبء جديد يضاف إلى أعبائي، تجد هذا الممثل أو ذاك نصف الموهوب يطلب الملايين، وهم الذين يظهرون للناس ويأخذون بريق الشهرة والنجاح، والجمهور لا يعرف شيئا عما يدور خلف كواليس هذا العمل، هناك "طاقم" كامل تعب وعرق، وليس هذا النجم فقط أو هؤلاء ممن يظهرون للناس.

ضحكت الممثلة بصوت مرتفع، وتدخلت في الحديث:

– حضرتك ماتزال غاضبا منه؟، ألم يتم الاتفاق بينكما في جلسة أمس؟

نظر نحوها بضيق شديد، وهو يشعل سيجارا كبيرا:

– أنا الذي صنعته، هو قليل الأصل فاكر نفسه أصبح نجم شباك، وأستطيع صناعة غيره، وهو في الأساس نصف موهوب، ليس له حضور أمام الكاميرا، المشهد نعيده أكثر من خمس مرات، لا يحفظ دوره جيدا، وهذا يسبب أرقا لي وللمخرج، لكن ما باليد حيلة، له جمهور.

– يقول إنك ربحت الملايين من الأفلام التي لعب بطولتها.

– كاذب وابن قحبة، ولن أتعامل معه بعد هذا الفيلم.

حاولت الحديث.. قاطعها، بأنه لا يريد الحديث عن هذا الأمر، الذي يتسبب له في حالة من الضيق ، ثم عاد ورحب بي مرة أخرى:

– آسف يا صلاح، أنت عارف ضغوط الشغل، أنا قرأت روايتك، هي جيدة جدا وتصلح لتحويلها "سكريبت" مختلف وجيد، وأنا أضمن لها النجاح، وأفضل من يكتبها هو أنت، قالت لي زوجتك في التليفون أنك تجيد كتابة السيناريو ولك محاولات عدة، تبين لي ذلك من خلال سردك الممتع للرواية، وصلت للعمق والبعد النفسي للشخصيات، وتدير الحوار ببراعة، وهذا هو دور المبدع الحقيقي، لذلك ستخرج أفضل ما فيها، أنا دوما أحب أن أعطي فرصة للشباب.

– هذه شهادة أعتز بها من قامة كبرى مثل حضرتك.

واصل حديثه مسترسلا، لا توجد بطبيعة الحال وصفة أو درس معين يعلمك كتابة السيناريو الجيد، لكن أنت الكاتب أو خالق النص، بمعنى أنك تملك كل عناصر النص والمعلومات، لذلك يجب أن

يكون لديك القدرة على توزيع تلك العناصر وبالأخص الأحداث المهمة المثيرة في مدة الفيلم، حتى يظل المشاهد متنبها جيدا طول مدة العرض، والبراعة في إعطاء المعلومة أو كشف الألغاز والأفكار، هي كجرعات الدواء تعطى لمريض، يجب أن تعطى بقدر معين حتى لا تثقل عليه، أو بقدر شحيح حينها لا تفيد، والسيناريست الجيد يجعل المشاهد يعرف الطبيعة النفسية للشخصيات دون أن يصرح بها على لسان إحدى الشخصيات. لو استطعت فعل هذا فالمشاهد سيعيش معك التجربة بكل حواسه، وتستطيع اختطافه لعالمك، وعليك اختيار عنصر التكثيف وبراعة الصورة، سوف أحكي لك مشهدا معينا من فيلم لا أتذكر اسمه هو صناعة هوليود، عند بداية الفيلم كانت هناك مجموعة صور معلقة على الجدار، بداية من طفل في حضن أبويه يبدو عليه الترف والنعمة، ثم شاب يمارس لعبة سباق السيارة، ثم رجل يركب السيارة في السباق. ثم صورة من جريدة والسيارة مقلوبة وفرقة الإطفاء حولها، ويظهر هذا الرجل على كرسي متحرك، هنا أنا كمشاهد وصلتني الرسالة في بضع ثواني أدركت قصة هذا الرجل القعيد، هذه براعة! بل هي قمة البراعة في التحكم والاختزال، وعمق وجمال الصورة، إذا أردت أن تعرف مدى قوة المشهد الذي كتبته، عليك قراءة المشهد دون حوار وعند النهاية ستعرف ماذا أضاف لك المشهد الصامت، قد وصفت المكان أو حالة الجو أو الموسيقى المؤثرة، إن وصل إليك إحساس معين بما تريد أن تقول دون حوار فهذا نجاح؛ لأن المشهد الصامت له تأثير كبير في النفس، والحوار هنا ما هو إلا دور إيضاحي، لا تشغل بالك بدور المخرج ولا تتدخل في اختصاصه، مثل لقطة قريبة أو حركة الكاميرا، ليكن تركيزك على جمال الجملة والمشهد، والتقاط الصورة، والحرفية في تركيب الجملة التي تصل بالمشاهد إلى الهدف من أقصر الطرق.

انتهى الرجل من هذه المحاضرة الطويلة، قدمت له تصوري المبدئي عن الفيلم، أمسك بالصفحات التي كنت قد أعددتها، وقام بقراءتها سريعا، وتوقف وقال هذه الجملة ركيكة ومكررة، ظل يقول بعض التعديلات فيما هو مكتوب، ويجب على الكتابة بهذا الشكل، والتوقف عن الكلاسيكية في الطرح، المشاهد يحب الفكرة الجديدة، ثم أنهي جملة حواره:

– الكرة في ملعبك يا صلاح، أريدك أن تبهرني بنصك، سأنتظرك ولا تتعجل الكتابة، أهم شيء في الكتابة في العموم هو كتابة الكتابة، لا تأتي إلى هذا المكان مرة أخرى إلا وبين يديك "سكريبت" كامل وأعلم أنك تستطيع فعل هذا الأمر في أقل وقت، لديك قدرة عالية في صياغة الجملة الروائية، وهذا سيمنحك القدرة على كتابة الجملة الحوارية.

خرجت من عنده أشعر بالراحة غير المكتملة، رغم ما حدث من حسن الاستقبال والاهتمام الجيد منه، لماذا راحتي النفسية غير مكتملة تجاهه؟، لا أعرف هل هو شعور خفي وإحساس داخلي يراودني؟، فكل الأشياء في ميزان التقييم تختلف، وبالأخص العلاقات الإنسانية لا تجد علاقة تشبه علاقة؛ لأن طبائع البشر مثل بصمة أصابعهم لا تتطابق، لا أدري لماذا يقتحم مخيلتي الدكتور الناقد "شكري عبادة"، لا تريد صورته أن تفارقني، أنفض عن رأسي كل هذه الأشياء، وفي النهاية أنفض عنها صورة النجمة التي رأيتها اليوم اسمها "أميرة حسني"، تركتها داخل المكتب مع المنتج، لا أدري سر العلاقة التي تربطهما، أكيد هي علاقة عمل، جاءت لتأخذ دورا في فيلمه الجديد، هي ليست نجمة لكن ما رأيته منها من حضور ينبئ أنها ستكون نجمة، مخارج حروفها سليمة وتعبيرات وجهها متميزة، هي شاركت من قبل في أربعة مسلسلات وفيلمين وكلها أدوار ثانوية، باستثناء الفيلم الأخير الذي كان دورها بارزا وهو دور ثان، أدت فيه مساحة تمثيل جيدة، وأظن مجيئها اليوم للبحث عن البطولة المطلقة، كل هذه المعلومات عرفتها من الإنترنت، هذا الشيء الجديد المبهر الذي تعلمت كيفية الدخول إليه، وقد عملت صفحة باسمي على فيس بوك، وبدأت بتنزيل بعض القصص القصيرة لي، والتي حصلت على مشاهدات عالية، وقراءات عدة.

كما ستبحث أميرة عن البطولة، يجب علىَّ أنا البحث عن مستقبلي، والقيام بالمذاكرة جيدا، أولا في الكتب التي تعلمني كتابة السيناريو وقراءة بعض السيناريوهات، عندي كتابان يحملان سيناريوهين مكتوبين ومكتملين لفيلمين شهيرين أحدهما البوسطجي، وقد قرأته من قبل. وأيضا كتابان منحني إياهما المنتج، وسأذهب غدا لسور الأزبكية لشراء بعض السيناريوهات أكيد سأجد ما هو مفيد، هذا ما قررته أثناء عودتي من عند المنتج، فرحت "سها" بما حدث عند الرجل، ولم أذكر لها بأني التقيت بأميرة حسني، رغم أن الأمر طبيعي جدا، لكن ما تفعله هي من غيرتها الجنونية من ياسمين، جعلني أحترس كثيرا من هذه الأمور، ويجب حمل الميزان الحساس معي، لأزن كل كلمة معها، هي عودتني على ذلك.

من مخاطر الحياة وضع قوالب نتصرف على أساسها، الروتين سُم مفعوله بطيء لكن حتما سيصل بنا للموت، ومن الأشياء الصعبة التي لا تدركها والدتك، إن لم يكن الرجل على سجيته في تصرفاته وحديثه مع زوجته فهذه علاقة محفوفة بالمخاطر، علاقة بها عوار كالواجهة الزجاجية البراقة إن قذف عليها حجر صغير بقصد أو بدون قصد تتهشم، لتصبح شظايا منغرسة في أقدام الزوجين، أشعر بأن علاقتنا مرسومة بألوان مائية لا تحتاج إلا القليل من الماء لتختفي معالمها، لذلك كنت أخاف المطر والدموع، كان قرار إخفاء لقائي بأميرة قرارا جيدا غير نادم عليه، تصرفات

الحاضر هي نتاج حماقة الماضي. في تلك الليالي عكفت على القراءة في الكتب والسيناريوهات، كما كنت من قبل نهم للمعلومة، اقرأ وأدَّون وأكتب القليل ثم أتوقف للقراءة، جلست جلسات مطولة أشاهد عددا من الأفلام، بالأخص الأفلام التي أخذت جوائر عن جمال حبكة السيناريو، منها العربي والأجنبي، حتى تحصلت على حصيلة جيدة من المعلومات؛ منحتني القدرة على أن أمسك بالقلم وأكتب..

مشهد رقم واحد.

ليل/ داخلي...

على حين غفوة وأنا أهيم على وجهي؛ تتصاعد الأفكار بي نحو سماء الإبداع رويدا رويدا، أسطر بقلمي الشغوف مشاعر وانفعالات شخصياتي، يصل إلى سمعي صوت زوجتي وهي تتألم بالغرفة الداخلية، تتملكني رعدة خوف عاتية من مجهول يركض نحوي كالوحش يطاردني، لم أدر حينها أنها آلام المخاض الذي جعلني أتوقف، أهرول إليها أغيثها وأنقلها إلى المستشفي، في تلك الليلة التي كانت بدايتها خوف ونهايتها سعادة، سمعت صوت بكائك يملأ أذني لحنا جميلا، حملتك بين يدي بجسد مقشعر وعيون دامعة بالفرحة، هذه المرة الوحيدة على ما أتذكر التي أسمعك تبكي ولم أشعر بضيق من أجلك، جئت أنت يا صغيري، لتكن ثالث ثلاثة، كما جاء والدا زوجتي الطبيبان الكبيران يرحبان بحفيدهما، ويشاركانني فرحة مجيئك، وحينها أصر جدك الطبيب المشهور أن يقيم لك حفلا صغيرا بشقته الفخمة، وافقنا أنا وسها عندما رأيناه متشبثا بقراره، شعرت حينها بمشاعر أسرية جيدة كنت قد افتقدتها منذ زمن.

نسيت أن أقوم بتقديم النصيحة لك..

– صغيري، مهما كانت الوعود براقة فعليك العمل لأجلك أنت وليس لأجلهم، هم يتغيرون يحنثون بوعدهم وهذه طبائعهم، لكن عندما تعمل من أجل نفسك لن تخونها.

5

جاء سنجاب صغير إلي بيتنا الصغير، كانت أمك تعترض على أن أناديك بالسنجاب الصغير، رغم أن جدك كان يحمل هذا الاسم عن فخر، أتدري يا سنجابي الصغير، رغم أني لم أتخيلك أو أتصور شكلك قبل مجيئك، وكنتُ لا أهتم بمقدار الجينات التي ستتوارثها مني ومن أمك، لكن تعلقت بك كثيرا، أحببت بكاءك المزعج ليلا، الذي جعلني في أحيان كثيرة أثور في وجه أمك، لكي تلقمك ثديها لتنام، وتتركني وحيدا أصارع شخصياتي وأحداثي، رغم قدومك إلى الدنيا باكيا لكن دموعك هذه أسعدتنا، شعرنا بأن بيتنا كان يحتضر، ومجيئك أعاد إليه عافية الشباب فعاد إلى عنفوانه، تم فصل أمك عن العمل بالجريدة، لن أقول بأن مجيئك شؤم علينا.

بعد أن قدمت طلب إجازة نيابة عن زوجتي لشئون الموظفين، جاء لي الموظف يحمل نفس الطلب لكنه غير موقع من رئيس التحرير، ثم تبسم يعيد تهنئته لي بالمولود قال وهو يبتسم: أذهب لرئيس التحرير يريدك، كانت كل ظنوني خيرا، كما لمح لي الموظف بأن الرجل يريد أن يمنحني هدية المولود، ذهبت إليه منتشيا بتلك الحالة التي أعيشها هذه الأيام؛ بدأت أكتب سيناريو الفيلم قطعت شوطا كبيرا فيه، أجلس كل ليلة من ثلاث إلى أربع ساعات، أواصل التفتيش داخل ذاكرتي، وفي نهاية كل جلسة، أعيد قراءة ما كتبته، أذهب للنوم وأنا أشعر بالسعادة، مؤمنا منذ زمن بمقولة "أن تكتب شيئا يجعلك سعيدا فأنت تكتب ما تريد". أبلغ رئيس التحرير سكرتيرته بألا تسمح لأحد بالدخول إلى المكتب علينا، جلست أمامه وقد طلب من الساعي إحضار قهوة لي، وكان الاحترام مبالغًا فيه من الرجل، وهو يقدم التهنئة لي بمولودي الجديد، الذي كنت أرغب منحه اسم "نجيب" تيمنا باسم الأديب الكبير نجيب محفوظ، لكن زوجتي كانت لها الكلمة العليا وأطلقت عليه اسم "طارق صلاح سنجاب"، ارتشفت من قهوتي أول رشفة، ثم مددت له يدى بالورقة المكتوب عليها طلب الإجازة الخاص بزوجتي، أمسك بها ونظر إليها نظرة عابرة ووضعها أمامه على المكتب، ثم ارتسمت على وجهه تعبيرات تدل على الجدية المصطنعة:

– صلاح، منذ أن اشتغلت بالجريدة تؤدي عملك بمهنية، لم نجد يوما ما خطأ في المقالات التي تراجعها، لذلك أنا سعيد بعملك معنا في الجريدة.

أكره المقدمات الدبلوماسية التي تحمل الأشياء فوق حقيقتها، تبسمت، شعرت بالراحة النفسية، هززت رأسي أشكره على كلماته.

زاد وجه الرجل احتقانا وهو ينظر إلى فضاء بعيد عني، كأنه يهرب من مواجهة عينيّ:

– هل تعلم يا صلاح، من المالك الحقيقي لهذه الجريدة؟.
– حضرتك طبعا هو من يملكها.
– كنت أتمنى أن تكون الجريدة خاصة بي وأنا صاحب القرار، لكن الحقيقة غير ذلك. لو كنت أملكها وأنا صاحب قرار لكان الأستاذ "رأفت مرعي" يعمل معنا الآن، رأفت رفيق وصديق مشوار كبير في عالم الصحافة، وهو ناقد مهني واحترافي بشكل كبير ورفيق رحلة كفاح، وله رؤية مختلفة في تقييم الأعمال، أنا خسرت صديقي ولا أريد أن أخسر منصبي.
ما علاقتي بما يقوله، أشعر بأن الرجل أخطأ خطأً كبيرًا ويحاول التكفير عنه، أو أن كلامه هذا تمهيدا لخبر صاعق لي، قلت من قبل أكره المقدمات الدبلوماسية، مد يده منحنى ظرفا به نقود، قال بشكل رسمي كأنه يسمعني قرارا رسميا أو يقرأ على مسمعي برقية عزاء فهو جاد وحزين، مشاعره لا تتواقق مع الهدية التي يقدمها بمناسبة مولودي:
– هذه النقود هدية المولود من الجريدة لكما، ولكن لي طلب آخر، هل من الممكن أن تستبدل طلب الإجازة الخاص بـ"سها" بطلب استقالة؟. هي صحفية متميزة ينطبق عليها نفس ما ينطبق على الناقد الفني الأستاذ "رأفت مرعي"، كلاهما صاحب مبدأ وقلم متميز، لكن مقالها الأخير أغضب منها صاحب رأس المال وصاحب الجريدة الحقيقي، وأنا حقيقي لم أكن أعلم أن صاحب الجريدة متورط في قضية أراضي الدولة المثارة حاليا، أنا كنت صريحا معك لأبعد الحدود، ولولا معرفتي الجيدة بك، بأنك عاقل وتستطيع أن تعبر الأزمات بحنكة وبأقل قدر من الخسائر، ما كنت أتحدث معك بهذه الصراحة المطلقة، وأن ما قلته لك سيظل سرا بيننا؛ حتى أستطيع الحفاظ على صورتي أمام الموظفين، أنا قلت ما عندي أريد أن أسمع جوابك.
همهمتُ بصوت حزين:
– ماذا يفعل الصعاليك للملوك؟، هم ملوك بأموالهم وبكراسيهم، ونحن صعاليك بمبادئنا وأقلامنا، سيظلون كذلك ونحن سنظل هكذا، لا يختلط الزيت بالماء، وشريعة بلادي هي دوام الحال من طبائع الحال.
انصرفت عنه مثقلا بأوجاع كثيرة نفسيا وجسديا، تركني الرجل دون ضغط علىَّ، في سماع رأيي فيما قال، قرأت في عينيه أو تبينت من بين السطور، استقالة زوجتي مقابل الإبقاء على مكاني، قالها الرجل في بداية حديثه بأن إصدار الجريدة بهذا الشكل، أنا من الأسباب الرئيسية فيه، لن يجد متحذلقا يشير إلى خطأ في الصياغة أو جملة ركيكة، كم من مقالات أعدتُّ صياغتها مرة أخرى، يبدو أنني أدمنت دور رجل الظل، أمارسه بحرفية في كل مكان أتواجد فيه، لا يوجد في

الجريدة تنويه عن المنقح اللغوي، مع أنه لولا وجوده ما استقامت الأمور، ولا خرجت في سياقها المطلوب. الثقل الذي حمَّلني به الرجل كان ثقيلا جدا، يكاد يحني هامتي، كيف سأنقل لـ"سها" هذا الخبر؟ أعلم أنها تحب الصحافة جدا، وتريد تحقيق ذاتها وتسعى خلف الخبر والحقيقة، كالساعي على رزق أولاده، كلاهما لا يمل ولا يكل من السعي، الحقيقة يا زوجتي هم يثبتون لي كل يوم أنهم أوباش، ما كان يفعله الناقد الأدبي بحرفية، هو بعينه ما يفعله رئيس التحرير، الجميع يشبهون أراجوزات يرقصون في سيرك الحياة، لكل منهم رقصة مختلفة عن الآخر ولكن الجميع يجيد الرقص. كيف لي أن أؤمن بعد اليوم برئيس تحرير؟ لقد فقد الرجل احترامه! هو قالها صريحة، أمام الجمهور على خشبة المسرح، هو رجل ذو أهمية وصحفي صاحب فكر مستنير، له مكانته في الحياة، وخلف الكواليس يمارس جرائمه بدم بارد. لا أدري كيف يستطيع هؤلاء النظر إلى وجوههِم في المرآة، هل يعجبهم شكل الأراجوز الذي يظهرون به، وتصالحت نفوسهم معه، أشك في ذلك. بل هم يكذبون كما يتنفسون، ويتلونون كل طلعة شمس يوم جديد بلون مختلف، حتى يعجبوا سادتهم.

سرت في شوارع وسط البلد، هذه المدينة العجيبة لا تتغير، هي ممتعة.

حقيقي مدينتي ممتعة! لمن يستطع دفع مهرها، ينعم في حضنها الدافئ، دفء مئات السنين بل ألوف، مرت عليها حضارات مختلفة وعجزت عن تغيير هويتها، هي التي غيرتهم ومنحتهم طباعها، بدءا بمدينة منف الفرعونية كعاصمة لها ثم تحولت إلى القاهرة الفاطمية، هي مهد الحضارة الفرعونية، وحاضنة للحضارة الإغريقية والرومانية ومنارة للحضارة القبطية، وحامية للحضارة الإسلامية، بلادي كالشمس تؤثر ولا تتأثر، كدت أن أسقط في حفرة لم أنتبه إليها على الرصيف الذي أسير عليه، رفعت رأسي أنظر لروعة البنايات والتماثيل التي تزين الميادين، همهمتُ بضيق شديد وأنا انفض عن بنطالي تراب قد علق به، بلادي كبحر، ماؤه المالح يشربه الفقراء، ويسبح الأغنياء فيه ويمرحون ويستخرجون منه اللؤلؤ. بلادي تتفنن في إذلال الفقراء، فعلى أغنياء بلادي أن يخجلوا من أنفسهم.

واصلت السير في شوارعها، لا أدري هل هو بغرض المتعة أم هو هروب وتأجيل اللقاء بزوجتي حين أنقل لها ما حدث من رئيس التحرير، وصلت إلى المقهى، كانت هناك مفاجأة في انتظاري، وجدت الناقد الفني الكبير "رأفت مرعي" يجلس على المقهى وحيدا، يضع سيجارته بين شفتيه يواصل نفخ الدخان بضيق شديد وبطريقة متواصلة، بين الحين والآخر ينظر إلى ساعة يده،

اقتربت منه "أزيك يا عم رأفت" كما كنا نناديه في الجريدة، رفع وجهه نحوي يبتسم ابتسامة مغتصبة، جلست دون أن يدعوني للجلوس سألته عن حاله:

– أنا بخير والحمد لله كيف حالك أنت وسها.

– بخير، لكن هي تم إجبارها على الاستقالة.

– هؤلاء أولاد كلب، لا يريدون شريفًا له صوت، ماهرون في تبديل الجيد بالرديء والحق بالباطل، حتى صار العامة يقدسون الباطل بعد أن جعلوه قبلتهم، والرديء سلعة يتكالبون عليها، بعد أن عافت نفوسهم كل ما هو قيم.

كأن الرجل لم يتحدث منذ أن ترك الجريدة، ظل يقول وينتقد في حالنا وما وصلنا إليه، قال عن رئيس التحرير ومن على شاكلته يمارسون فن الفترينة، يجيدون عرض أفكارهم، الناس درجات لذلك هم ومن على شاكلتهم لا تسع البرطمانات الزجاجية حاجتهم، لذلك لديهم فترينات زجاجية، لكثرة المعروض وغير المستخدم، من مبادئ وأفكار ونظريات، في كل حانوت يضعون الصنف المناسب له، لا أدري ماذا نفعل هل نترك لهم البلاد ونرحل، حقيقي لن نجد بلادًا تسعنا إلا بلادنا، ولكن للأسف مليئة بالوسطاء الأقذار المخنثين، يمارسون القذارة في ثوب الفضيلة، وإن رحلنا عنها لن نحب سواها.

ظللت صامتا أستمع له وهو يتحدث بسرعة كما يلتهم سجائره بشراهة، وبين الحين والآخر ينظر إلى ساعة يده، وفي النهاية كشف عن خبيئة نفسه، بأنه جاء اليوم بعد أن ضرب موعدا مع صحفي كبير له اسم لامع في سماء صاحبة الجلالة، كان قد أحضر له عملا للإشراف على الصفحة الفنية في إحدى الجرائد، لكن ما رأيته من خيبة الرجاء أحزنني عندما أخلف الرجل موعده مع الأستاذ رأفت جعلني أتعاطف معه بشدة، طلبت منه أن يطلبه على الهاتف، قال إنه نسى هاتفه المحمول في البيت، أخرجت هاتفي لكي يتواصل منه، أمسك الهاتف وهو يشكرني، أخرج قصاصة ورق من جيب حافظة نقوده، وبأصابع مرتعشة ظل يضغط على كل زر يحمل رقما، لكن كان الهاتف مغلقا، أعاد لي الهاتف بحسرة كبيرة، هاتفي يرن أنظر للشاشة، إنها "سها" التي شعرت بقلق، تطمئن عليَّ. لماذا تأخرت؟، أخبرتها بأنني جالس مع الأستاذ رأفت وأعطيته الهاتف تحدث معها بكلمات مقتضبة، مليئة بكلمات الطمأنينة والترحاب، بعد دقائق قام الرجل وهو يشعر بالحسرة، قال هذه الكلمات:

– لقد مر أكثر من ساعتين على الموعد المتفق عليه، الجميع يعطونني ظهورهم، كما فعلت زوجتي بموجب "القانون الجديد" خلعتني ورحلت بعيدا عني، أخذوا كل شيء ولم يتركوا لي إلا بيتا خاويا على عروشه، يجب أن أذهب لأستريح في بيتي هم يريدون ذلك.

نعم أيها النبيل، هم يريدون لك ولزوجتي ذلك الأمر، انصرف الرجل وهو يشكرني؛ بعد أن طلبت منه أن يسمح لي بأن أدفع له قيمة المشروبات التي تناولها، وهي قدحان من القهوة، رأيته يواصل السير على الرصيف، ظهره منحني قليلا، لم ألاحظ هذا الأمر من قبل، لكن هذا الانحناء وضح عليه بشدة، تُعرف الرجال بالمواقف، هل سيظل الناقد الفني محافظا على موقفه؟ ليزيد ظهره انحناء، ويظل جيبه فارغًا من النقود، هل الحياة ترفض البعض أم البعض هم من يرفضونها؟ مهما يكن الأمر، في النهاية ما حدث معه شيء مخزي لقيمة كبرى مثله، إنهم يريدون شراء الإبداع بنقودهم الملوثة؛ البحث عن الخلود والعظمة آفة الرأسماليين، حزنت جدا لأنني لم آخذ رقم هاتفه الأرضي، رغم أني وعدته بالتواصل، لكن ورد بداخلي سؤال دون جدوى، رغم علمي بأنه غير مفيد لكن يجب طرحه، يجب التخلص من كل هذياني في هذا الدفتر، وعدتك بالصدق ولا أملك شيئا أمنحه لك وأنا أعيش وحيدا بين جدران زنزانتي إلا صدقي معك، لن أذكر لك ما يحدث معي داخل السجن؛ لأنه كحياة كثير من الصعاليك غير مجدٍ لك، نوم وبكاء وندم، وقضاء حاجة في دورات مياه لا تصلح للبهائم، وأخالط بعض الأشرار؛ حكايات مبتسرة مشوهة غير مفيدة ولا تضيف لك شيئا، أتمنى يا صغيري، ألا تخالط هؤلاء الأشرار أو تكون من الصعاليك:

– هل اهتمام الصعاليك بالصعاليك مغنم أم خسران وفقد؟.

اليوم يا صغيري، كان شاقا جدا، رفد والدتك ولقاء الأستاذ رأفت المفعم بمشاعر الانكسار والخذلان، الحقيقة التي اكتشفتها اليوم وللأسف سوف أقولها لك، رغم أني غير مؤمن بها لكن ضعها في حسبانك:

– إن شاء القدر ووجدت نفسك في مجتمع لا يعرف قيمة الحق والعدل، اجعل مبادئك كملابسك، ترتديها حسب الفصل الذي أنت فيه.

6

مهما طال تأجيل المواجهة بيني وبين "سها"، لكن لا يهرب المرء من مصيره، أخاف عليها من الصدمة، أعطيتها الظرف الذي به النقود وكنت لا أعرف قيمتها، لأنني لم أخرج النقود منه، تركتها منهمكة في عدها، ودخلت لغرفة نومي أشعر بحالة من الغضب والضيق، ألقيت بجسدي المنهك على السرير دون تبديل ملابسي، منذ أن رأيت حال الأستاذ "رأفت مرعي" وأنا أشعر بأن الدنيا تضيق عليَّ، هذا الشعور يوحي بأن هناك كارثة قادمة، لذلك ما كنت أنتوي عليه ألا وهو التضامن معها، سوف أتراجع عن هذا المبدأ، بدأت يا صغيري، أن أجعل مبادئي تشبه ملابسي، ماذا لو قدمت استقالتي تعاطفا أو تضامنا، هل سوف أكون صورة من الناقد الذي تخلى عنه الجميع حتى زوجته خلعته، وصل به الأمر بأنه قد باع هاتفه المحمول! أدركت هذا الأمر بعد جلستنا، من يملك هاتفًا محمولًا لا يكتب أرقام الآخرين على قصاصات ورق ويضعها في حافظة نقوده، ماذا سأقول لها وهي سعيدة بهدية الجريدة لنا، جاءت تدعونى لتناول العشاء، أخبرتني بأن المبلغ قدره ثلاثة آلاف جنيه، بقدر ما هو هدية ولكن أشعر بأن فيه تعاطفا من رئيس التحرير، المبلغ كبير بعض الشيء أهو ثمن لأشياء كثيرة يجب أن نمررها ولا نتوقف أمامها، أم رئيس التحرير يريد التكفير عن تلك الجريمة التي ارتكبها في حق زوجتي؟ رفدها عن العمل كان جريمة كما قال الناقد ونحن نجلس على المقهى، وأنا أعلم أنها جريمة والجميع يعلمون ذلك، لكن يا صغيري، هم يرتكبون الجرائم تحت مسمى قانوني يعفيهم من المساءلة، لا يصنع الطغاة إلا الجبناء والضعفاء، هم منَ يأتون للحياة ويرحلون لا يمثلون إلا أرقامًا سلبية لا تضيف شيئا، لا تشغلهم الأفكار والحريات بقدر ما تشغلهم الشهوات، يحترمون العصا أكثر من القانون، كما كان من قانون الخلع، الذي ضرب استقرار الأسرة المصرية في مقتل، الخياطة مهنة شريفة يعمل صاحبها دوما على تحسين مظهرنا بصناعة ملابس جيدة لنا، لكن ترزي القوانين يعمل على تعريتنا.

كل ما ظننته بأنها سوف تحزن عند سماع خبر رفدها من العمل كان عبارة عن خيال، كانت زوجتي ثابتة كالرواسي عندما أبلغتها بما قاله رئيس التحرير عنها، تبسمت، همست أنها كانت تتوقع حدوث ذلك الأمر، لكن ما لم تكن تتوقعه هو حدوثه على وجه السرعة، ثم قالت جملة عجيبة جعلتني أعيد تقييم عقلية زوجتي:

– رئيس التحرير رجل خائب وجبان، لقد سقط في الفخ بسرعة.

– أي فخ تقصدين؟

– لا عليك، هل طعم الأكل جيد.

تناولنا اللقيمات في صمت، بعد هذه الجملة العجيبة منها التي أصابتني بالصدمة، وعدم اهتمامها بسؤالي وعدم مشاركتي أسرارها، هل "سها" تعقد اتفاقيات من خلف ظهري، أي فخ تقصده؟ لم أفهم شيئا مما يحاك حولي، أشعر بأن للطعام نكهة غريبة هذه الليلة، لذلك لم أتناول منه الكثير، هي لقيمات قليلة وحمدت الله، كما قلت لك يا صغيري، أكره الأشياء الملغزة، والدتك الليلة لغز محير، رغم أنها تحاول أن تظهر أمامي بأنها متماسكة، عجبت من رباطة الجأش التي تحاول أن تظهرها، وأنا مُصر على أنها تظهر عكس ما تبطنه تماما، لم أستطع الجلوس الليلة لأكتب؛ رقدنا على السرير في صمت دام لفترة، كل منا معطيا ظهره للآخر يسبح في بحر ظنونه، مازلت أتمنى أن أكون كالأطفال ينامون حيث يأتيهم النوم، ساعة مرت أو أكثر ونحن مستيقظان لم نتحدث، انقلبت بجسدي نحوها لكي أخذها في حضني عندما شعرت بالقلق، دوما حضنها يمنحني الأمان والدفء رغم حماقتها في كثير من الأحيان، وجدت الدموع تنساب من على خديها رغم أنفها، حضنتها بقوة، هنا انهارت باكية، حاولت بكل الكلمات التي أعرفها، أن أهدئ من حالة الحزن التي تسيطر عليها، همهمتُ لها بصوت رحيم بحالها وصادق معها:

– من الغد لن أذهب للعمل.

– ومن سيطعمنا؟.

هنا كان يجب على الصمت كثيرا، والتفكير بعقلانية أكثر مثلها، رغم أني تراجعت عن هذا القرار عندما رأيت حال الناقد، لكن دموعها جعلتني أعود للقرار مرة أخرى تعاطفا معها، "سها" ضحت وتحدت من قبل من أجلي، ضحت ببعض الذين تقدموا لطلب يدها قبلي ورفضتهم جميعا، تبحث عن شخص معين بمواصفات معينة، وتحدت أهلها عندما رفضوا زواجنا، للفارق الاجتماعي الذي بيننا؛ فوالدها طبيب بشري كبير له سمعته، ووالدتها كذلك طبيبة عيون، وهما من زرعا فيها منذ الصغر أن قرارها الذي تتخذه؛ هي الوحيدة التي سوف تجني ثماره، فعليها حسن الاختيار في القرارات والتعقل بشدة، بعد زواجنا كانت في حالة أشبه ما تكون بالمقاطعة لوالديها، ليس جحودا بل بحثًا عن الذات، كلما جاءت من أحدهما مكالمة هاتفية أو زيارة عاجلة للاطمئنان، أخبرتهم بأنها تعيش في حالة جيدة، سمعت يوما والدها يقول لها لن أتدخل في حياتك، وسأتركك تعيشين تجربتك كاملة، وإن ضاق بكِ الحال لن تجدي أفضل من والدك معينا لكِ على الحياة، فهي تعيش تجربتها حسب رغبتها، ولكن أنا مجبر على هذا العيش، كلانا في نفس البوتقة لكن الفارق شاسع،

الليلة رفضت تضامني غير العقلاني ظلت تحثني على البقاء في العمل. الحياة مراحل فعلى الإنسان أن يأخذ من كل مرحلة أجمل ما فيها، وعلىَّ ألا أنشغل بأمرها، هي تستطيع أن تدبر أمرها، عندما تنتهي فترة رضاعة الطفل ستبحث عن عمل جديد في جريدة أخرى، هي تملك سيرة مهنية جيدة، وتملك علاقات متميزة، حاولت أن تبث في نفسي الطمأنينة.

بعد دقائق فتحت صفحتها على شبكة التواصل الاجتماعي "فيس بوك"، تريد كسر حالة الملل التي أصابتنا، وبدأت تقرأ تعليقات بعض الأصدقاء، على منشور قد نشرته وعليه صورة طارق ابننا، ومرفق به بعض الكلمات، مثل رزقني الله بمولود جديد نسأل الله أن يكون سعيدا، هو طارق صلاح سنجاب، سعدت بأنها كتبت اسم سنجاب، ولم تشعر بغضاضة في هذا الأمر، ظللنا نسخر من بعض متطفلى الفيس بوك، عندما جاءت إليها رسالة على الخاص من أحد المتنطعين يسألها:

– حضرتك متزوجة؟.

قلبت الأمر لمزاح، وأنا ظللت أراقب ما تفعله بهذا المتطفل الذي ردت عليه:

– ألم تشاهد صفحتي؟ عندي طفل مولود منذ أسبوع، لا يوجد أسواق تبيع أطفالاً حديثي الولادة.

– أنا لم أقصد ذلك، بس أنا أشعر أنكِ غير سعيدة مع زوجك.

هنا ضحكنا معا، ولم أتدخل في ردودها واصلت السخرية منه:

– من أين لك هذا الإحساس؟.

– دي اسمها فراسة المحب الولهان.

– طيب حضرتك تعرفني.

– أعرفك طبعا، حد يقدر ينسى العينين الخضراوين والشعر الأصفر، عليكِ قوام رشيق ومثير جدا، جمالك ليس له مثيل.

ما جعلني اصطبر على هذيان هذا المتطفل، أن "سها" لا تملك شيئا مما وصفه، ضاق صدرنا من نطاعته وتطفله، فردت عليه برسالة لعلها تكون الأخيرة، عندما تكون المواقف تافهة أكيد حوار ضرب من الهزل.

– على فكرة أنا سوف أكتب على صفحتي من الغد الحالة متوفية، علشان المتنطعين أمثالك.

– سوف أدخل أقولك أنتِ أجمل جثة شفتها في حياتي.

هنا لم نتمالك أنفسنا من الضحك الهستيري، علقت أنا عليه بأنه حافظ فقط ولا يفهم ما يقول، ضحكنا وقتا طويلاً من هذا الأبله، أظنه ضحكا مفتعلا وليس صادقاً من القلب، وعندما كنت

أتصفح صفحتها، وجدت اسم "ياسمين جعفر" بين أصدقائها، والتي قدمت لزوجتى التهنئة بالمولود الجديد، تضع صورة غلاف صفحتها مجموعتها القصصية الأولى الفائزة بالجائزة، أعطيت "سها" الهاتف وأنا أغمض عينيّ على ذكرى قبلات ياسمين، وحضنها المفعم بالأنوثة، يا ترى إلى أين وصل بها قطار أحلامها؟ عملي الذي كتبته لها هو تاج نجاحها، لا أدري إن كان هذا الأمر يحزنني أو يزيد ثقتي بنفسي.

لم تلاحظ "سها" حالتي التي تغيرت عندما رأيت ياسمين على صفحات التواصل، أو لاحظت وفضلت الصمت، الظرف الآن لا يسمح بخلق جدال لن نجني منه شيئا، أو تركت لي الحبل على الغارب لتضبطني متلبسا هكذا حال النساء ومكرهن العظيم، جريمتي الشنعاء التي لن تغتفر هي التفكير في ياسمين، الحمدلله أنها لا تستطيع قراءة ما يدور داخل صدري، ياويلي لو تعلم الأفكار داخل جمجمتي! لكانت كسرتها لنصفين، للأسف لدى بعض النساء يقين بأن الرجل بعد الزواج ملكية خاصة، فهو لن يذهب أو يتحرك أو يفكر إلا بأمرها، قط أليف تضعه حسب رغبتها، دون أن تفكر في احتياجاته، فعليه أن يرضي بما تعطيه له من بقايا مشاعرها، ولا يهم إن كانت هذه البقايا تكفيه أم لا.

صغيري، إن كنت تريد أن تجتاح العقبات في حياتك، يجب أن تكون صادقا مع نفسك قبل الآخرين؛ لأن الصدق مع النفس يمنحها قوة وجسارة الأسود، التي تستطيع اجتياز عقبات الواقع، وإن كنت تريدها حياة بلا عقد، اجتنب صغائر الأمور وتفاهات العقول، لا تقحم نفسك في صراعات شخصية، اجعل الهم العام هو هدفك الوحيد في طريقك، إن أردت أن تكون صاحب رسالة، لأن أصحاب الرسائل مثل الأنبياء، يعطون بلا مقابل وشاغلهم الأول والأخير في هذه الحياة رسالتهم السامية.

8

انتهيت من كتابة الفيلم السينمائي كاملا، وكتبت الملخص في عدد قليل من الصفحات التي تحوي الفكرة، ثم التمهيد والتطوير وحل العقدة، وفي صفحات أخرى كتبت المعالجة، وهي صيغة طويلة عن الملخص، تحوي وصفا كاملا للفيلم وفقرات متسلسلة تعبر عن المشاهد، أظهرت فيها كل شخصيات الأبطال والشخصيات الثانوية، وشرحت الديكور وشرحت كافة الانعطافات بوضوح، ساعدتني "سها" في كثير من الأمور، عندما كنا نختار بعض المشاهد ونقوم بتمثيلها معا، ولم أتواصل مع المنتج حتى الآن، كانت زوجتي قد انتهت من قراءة كل ما كتبت، من ملخص ومعالجة وسيناريو وحوار، وقد قالت رأيها بوضوح فيها، وتناقشنا حول بعض الأمور، كانت لها وجهة نظر واعية ومدركة، لذلك كنت دوما آخذ رأيها على محمل الجد والاهتمام، ليلة أمس سهرنا أنا وهي نضيف بعض الجمل على المشاهد، وانتهينا من اللمسات الأخيرة عند الثالثة فجرا، حينها شعرت بالسعادة أيقنت بأنني كتبت ما أريد، وقد اتفقت معها على أنني سأذهب لطباعة سيناريو الفيلم اليوم، وبعدها سأتواصل مع المنتج "محمود يحيى"، أشعر بحالة من شبه الرضا عن عملي؛ لأنني لو انتظرت الرضا الكامل لن أنتهي منه طيلة حياتي، أتمنى أن يتذكرني الرجل، أعلم أن ذاكرة هؤلاء البشر تشبه ذاكرة السمك لحد كبير، ومنهم من يدعي ذلك، من كثرة الأشغال والوافدين الذين يحتاجون فرصة مثلي.

في الليلة التالية عدت للبيت كانت الساعة تقريبا العاشرة، جئت من العمل أشعر بالتعب الشديد يداهم جسدي، بعد أن ذهبت إلى مكتبات منطقة بين السرايات، دخلت للبيت أحمل بين يدي مشروع المستقبل، سيناريو لفيلم مكتملا مطبوعا في ملف مكعب من الجانب الأيمن، ملحق به الملخص والمعالجة، دخلت إلى الحمام وتركت أشيائى فوق منضدة تتوسط صالة الشقة، طلبت منها إحضار ملابس داخلية نظيفة، دفعت بجسدي تحت ماء الدش أزيل عني غبار وتعب يوم طويل، كنت قد قررت بعد الدش أن أذهب للنوم مباشرة، منذ أمس مازلت أشعر بحالة إيجابية رغم الإجهاد، لكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، وجدت وجه "سها" متغيرا ليس هو نفس الوجه الذي التقيته عند الدخول، يرتسم عليه الغضب، تتحدث معي باقتضاب شديد، سألتها ماذا حدث؟ هل طارق بخير؟ قالت بفتور شديد:

– بخير.

تبسمت حاولت أن أمسك يدها بلطف شديد، كنت أرغب في كتابة سطر سعيد بكتاب حياتنا:

– هل أنتِ بخير.

تنتزع يدها بقوة، ثم أجابت بضيق شديد:

– هل أنت مهتم بذلك؟.

ضاق صدري من جوابها غير المريح، ماذا حدث؟ ما الذى تخفيه خلف غضبها المثير للقلق؟! تركتها في الصباح وكانت علاقتنا في أفضل أحوالها، قبلتها وظلت تدعو لي بالتوفيق، وأن أعتني بنفسي، أمزجة النساء كليل الخريف دوما متقلبة، لذلك اعتادت نفسي منذ زمن لا أفرح بسعادتهن، ولا أحزن لأحزانهن، فهن يُقَيَّمْنَ الأمور بمقاييس مختلفة، أنا أعترف بأنني لست بالزوج المثالي لكنني لست شريرا بطبعي، ولم ألجأ يوما لافتعال مشكلة معها، هي التي دوما تسعى لذلك، لا طاقة عندي لإثارة المشاكل، لا أريد الشجار معها، لدي رغبة أكيدة، أن أسرق من الزمان ساعات في الحلم الجميل الذي أعيشه، ألا وهو غدي المُشرق الذي ينتظرني، وطال بي التخيل بأن اسمي مكتوب على تلك الشاشة السحرية، رأيته أمامي يا صغيري، وتخيلت نوع الخط وحجمه المكتوب به، "قصة وسيناريو وحوار صلاح سنجاب" تكتب عند البداية ومع النهاية، يأتي بعد أسماء نجوم عظام ويسبق اسم المخرج العظيم، كذلك سمعت كلمات الإعجاب من المشاهدين، أحلام اليقظة تختطفني من واقع "سها" الكئيب، لا أريد أن أراها غاضبة، دوما أتمنى أن أرى ضحكتها، ولكن هي تمارس "لوي البوز" بحرفية أكثر من صانع ماهر يجيد ممارسة حرفته، لذلك قررت أن أعتزلها، ولكن هل هي ستعتزلني؟.

دخلت خلفي إلى غرفتي، قررت مواصلة خلق جو كئيب هي تصارع لعمل ذلك، تشهر سكاكين النكد ولن تهدأ إلا عندما تغرسها في جسدي، وجدتني محتضنا ملف الفيلم، أسبح في بحر أحلام اليقظة، كما قلت لك من قبل يا صغيري، أحببت الكتابة أكثر من كل شيء بهذا العالم، قالت بغضب جامح:

– لماذا لا تحترمني يا صلاح؟! لماذا أنت كاذب مثلهم؟!

– لا أفهم عن ماذا تتحدثين يا سها.

أخرجت ما في جعبتها من حماقات، الحبل الذي تركته لي على الغارب اليوم تضعه حول عنقي تريد خنقي به، بنفس الطريقة العنيفة التي تتحدث بها معي:

– زهرة الياسمين التي أرسلت لك طلب صداقة وتتحدث إليها على الخاص.

لم أدرِ بأن "سها" مخبر أمني، رغم ما تعيشه من تقدم أو هي تدعي ذلك، سمحت لنفسها بالتفتيش في هاتفي الخاص، بعد دخولي إلى الحمام قامت بفعلتها، لم أعلم حقيقة ما حدث.. هل أشار

إليها قبل حضوري "الفيس بوك" بأن أنا وزهرة الياسمين صرنا صديقين؛ لأنها صديق مشترك بيننا، أم الأمر جاء بالصدفة البحتة أثناء التفتيش في هاتفي، كما تفعل معظم النساء؟ هل هذه أول مرة أم اعتادت على ممارسة دور المخبر الأمني؟ أنا لم أسمح لنفسي بعمل ذلك مع هاتفها، ليس إهمالا ولكن ثقة بشخصها، وفي العموم علاقات شبكة التواصل الاجتماعي هي علاقات غير كاملة النمو، لذلك هذه العلاقات مشوهة، هذا ظني بها في هذا الوقت. ما الجواب الذي علىَّ قوله كي أطفئ تلك النار التي أرى وهجها في عينيها؟، أكافح من أجل عدم تعكير صفو تلك الليلة، تذكرت ما كان من تلك الصديقة على شبكة التواصل الاجتماعي:

– أنا لا أعرف من هي؟ صديقة أرسلت رسالة وطلب صداقة، تقول بأن ما أكتبه على صفحتي يروق لها، هل هذه جريمة؟.

– الجريمة أنك تريد مواصلة جرحي بطريقة ساذجة تمارسها معي منذ أن تزوجنا، وهي فرض حسن النية في كل تصرفاتك غير المسئولة، ويجب على تصديقك في كل الأحوال، وأنت إنسان غير صادق مع نفسك.

تحدثت إليها بصوت مرهق مستسلم مشير بيدي أن تبتعد عني:

– رجاء خاص أشعر بالإرهاق الشديد، قولي ما عندك أريد النوم، أنا صادق معكِ في كل ما أقول، لا تحطمي جدار الثقة بيننا بهذه التفاهات غير المنطقية.

جحظت عيناها بصوت ممزوج بالحزن الدفين تعاتبني بشدة:

– صاحبة هذه الصفحة هي حبك الأول أيها الطيب البريء، زهرة الياسمين هي ياسمين جعفر.

هنا كان يجب على التراجع كثيرا، لم أكن أدري أن لياسمين صفحتين على شبكة التواصل، ورغم ذلك لم يحدث شيء بيننا سوى حوار عابر، إنها معجبة بما أكتبه وشكرتها على ذلك ولم أطلب منها الإفصاح عن هويتها، لأن رأسي مشغول بما هو أهم، عندي مشروع أعمل عليه، ولا أهتم بعمل علاقات نسائية جديدة، هذه هي مشاعري الحقيقية، لكن "سها" لم تصدقني وصدقت ظنونها كانت تراقب بحنكة، وانتظرت حتى سقط الفأر في المصيدة، والفأر المسكين لا يعلم أنه بحسن النوايا وحدها لا يستطيع أن يعيش في هذه الحياة، أو يعاشر امرأة تعرف ماضيه، هل ستظل "ياسمين جعفر" تلك اللعنة التي تطاردني، أو الشوكة التي تقلق راحتي، لا أدري ماذا أفعل فيما يحاك حولي، أنا الجاني أم المجني عليه، هل الذنب الذي ارتكبته لأنني أحببت ياسمين سأظل أدفع ثمنه طيلة عمري، همهمتُ لها بضيق شديد:

– يجب أن تثقي بي أكثر من ذلك، أنا لم أعرف أن هذه الصفحة لها، ولم ألتقٍ بها منذ أن صفعتها داخل المقهى، وليس لدي رغبة في لقائها هي أو غيرها.

– أنت كاذب يا صلاح، أنت مثل كل الرجال توعد وتخلف، أنا لن أثق برجل بعد اليوم، حتى السياسي الوقح المخادع أخلف وعده لي، أنا حقيقي أشعر بالقرف لأنني تزوجت إنساناً كاذباً مخادعاً مثلك.

أحاول ضبط النفس بالقدر المستطاع، وهي تستبيح رجولتي دون حدود، ماذا لو قمت وضربتها، هل ستنتهي المشكلة أم سأسقط على جذور رقبتي داخل بئر عميقة، بئر مليئة بالمشاكل التي لا تنتهي، هي مجروحة هذا شعوري نحوها، ويجب أن أتحملها لأبعد الحدود، أكثر شيء يقتل إنسانية أي شخص هو الشعور بالدونية، والغيرة العمياء نوع من الدونية وفقد الثقة بالنفس، هكذا تشعر والدتك تجاه تلك اللعينة ياسمين، التي تسعى لتدمير حياتي، لا أعلم هل بقصد أو بدون قصد منها، ولكن كيف بدون قصد وهناك مؤشرات تشير بوجود سوء النية، كيف عرفت "سها" بأنها صاحبة الصفحة، هل هي من أخبرتها بذلك أم شعورها المتسلط وهي تراقبني؟ هل ما حدث كان فخا تم نصبه بمكر شديد من "ياسمين"؟ رأسي مزدحم بأشياء كثيرة، يشبه ضجيج متواصل على محطة قطارات، كان يجب على التوقف كثيرا أمام ما تقول واسترجاع حديثها، لذلك قمت نحوها أمسكت بها بقوة من معصمها سألتها:

– من هذا السياسي الوقح الذي أخلف وعده معكِ، ومن تواعدين يا "سها" دون علمي؟.

انقلب السحر على الساحر، في حالة من التلجلج وضعف الموقف، انهارت وكشفت كل المستور الذي يحاك خلف ظهري، للأسف كانت تمارس الحرب بالوكالة، وكل المقالات التي كتبتها عن قضية أراضي الدولة المثارة إعلاميا حينها، هي مدفوعة نحوها دفعا، وليس لهدف نبيل، كيف لا أفطن حينها لكم المعلومات الموثقة الذي كانت تملكه، كيف تمكنت من فعل ذلك والجميع كان يشير نحوها بأن مصادرها قوية جدا، من أين جاءت بهذا الكم المخيف من الأسماء والتهم التي يشغل أصحابها المناصب الرفيعة، المصحوبة بأرقام دقيقة جدا، حينها كنت سعيدا جدا أغبطها على شجاعتها، أشعر بالفخر من داخلي أن زوجتي تناهض الفساد، لكن اليوم أدركت أن كفاحها فخ بغيض ووهم كبير عشت فيه، كما كانت دموعها وهمية ليلة البكاء على فقد الوظيفة، نضالها كان وهما، ودموعها وهي في حضني خداع، أخشى أن أستيقظ على كابوس مفجع أن حبها لي وهم أيضا.

اليوم وضحت الرؤية كاملة، خلف ستائر عرض مسرح الحياة، كواليس مخيفة مدهشة للعامة، رئيس الحزب المعارض هو الذي كان يمنح "سها" هذه المعلومات، قد وعدها بأنه سوف يفتتح جريدة وهي ستديرها له، هي تتعجل الجلوس على مقعد رئيس التحرير، وبعد فصلها من العمل أحنث الرجل بكل وعوده، لا يجيب عليها في الهاتف، لكن عندما ألحت عليه، كان جوابه عليها كارثة، أفقدتها إيمانها بكل الرجال، وحطم صرح أحلامها الذي ظلت تبنيه، قال الرجل فيما معناه، أنها كانت جزءًا من مخطط، وأنها أخذت ثمن ما فعلته، أما أمر رفدها من العمل هو شأن لا يعنيه، وأنهى كلامه بأن جهاز أمن الدولة رفض منحه ترخيصًا لفتح جريدة، لكنه سيحاول مرة ثانية، وإن نجح الأمر سيفي بوعده لها، ويترك لها الجريدة تديرها لكن بحسب توجهاته وسياسته، هي تشعر بالضيق والغضب من هذا السياسي المحنك، وأنا حزين عليها مصدوم فيها، ألم تعلم بأنها صعلوك لا يستطيع اختيار مصيره، ولن يسمحوا لها بأن تخالطهم أو تشغل مقعدًا على موائدهم؛ لأن مقاعدهم مشغولة وما خلا منها محجوز لأبنائهم، إن أرادت أن تكون معهم عليها أن ترقد تحت المائدة تنتظر فُتات ما سوف يسقط منهم، وما يسقط منهم لا يسد رمقها أو رمق الصعاليك غيرها.

لكن المؤلم بالنسبة لي؛ حقيقة تبينتها أن هى مثلها مثل ياسمين، هي تتاجر بقلمها وياسمين تتاجر بنصف جسدها الأعلى، كلهن سواء أمام أحلامهن لكن كل واحدة تعزف بطريقتها الخاصة، هذه الليلة يا بني، كانت قاسية، والدتك للأسف ظننتها أذكى من ذلك، لكن اللعنة على الطموح الذي يجعل الإنسان يفصل مبادئ على رغبته، انهار جدار الثقة بيني وبينها، هي ضحية ولكن كانت ضحية برغبتها؛ لذلك لا أغفر لها ذنبها.

نصيحتي لك يا بني، إن دخلت إلى سوق الحياة لا تثق بأحد، لأن داخل السوق كل شيء له ثمن، يربح الملوك ويخسر الصعاليك، ويظل أصحاب المبادئ مشاهدين لا أكثر.

الفصل الثالث

1

هذا الصراع يا صغيري، لم أختره لكنه فرض على ككثير من المفروضات، التي أنا غارق فيها ولا أستطيع الخلاص منها، كيف لي أن أنجو بنفسي؟ هل أستطيع أن أحمل حقيبتي وأغادر المكان، طرحت هذا الخيار على نفسي، ضمن خيارات كثيرة تراودني بين منطقيتها وعدم منطقيتها، ولكن هذا الخيار ظل معلقا بذهني. هل أستطيع أن أعود لبلدتي التي ليس لي مكان فيها؟ للأسف يا صغيري، أصبحت جزءا من هذه المدينة، لكنه جزء معطوب مصاب بالقيح، يجب بتره لكي ينصلح حال مدينتي، لم أنم ليلتها من الصدمة، انتهى الشجار بيننا وأنا أشعر بالأسف، وهى تشعر بالندم وخيبة الرجاء، أظنها ستشحذ همتها لمواصلة الصراع، هي عنيدة وشخصيتها قوية، لكنها يجب أن تفهم أن عنادها هو المعول الذي ستهدم به جدار بيتنا.

رقد كل منا بغرفة مستقلة، هي أخذت الصغير في حضنها ونامت، وأنا احتضنت أحلامي اللقيطة وحاولت النوم، لا أضمر حُبا أو بغضا لها، الحل الوحيد الذي راق لي هو الاعتزال، وكذلك مرت الأيام وكل منا معتزل الآخر، علمتني النساء كيف أخاصم، كنت من قبل لا أعرف كيف هو الخصام، كنت أعتزل الأشخاص الأشرار دون خصام أو صلح فلا أحتك بهم، اليوم من أين جئت بالقدرة على أن أعتزل "سها" بضمير مستريح، كنت في البداية أشعر بضيق الصدر عندما تغضب مني وغضبها يعكر صفو مزاجي، لكن اليوم يتساوى لَدَى رضاها أو غضبها، كل الألوان عندي متشابهة، الأسود كالرمادي والأبيض لا يختلف عنهما كثيرا، علاقتي بها لا تحمل إلا لونا وحيدا هو اللامبالاة، طرقت بابا للمبالاة مجبرا على أن أقيم فيه حتى أستطيع العيش والتعايش، هي تمارس الشر باقتدار على نفسها وعليَّ، كنت حينها أخشى عليك يا صغيري، من حماقتنا، كل منا محتفظ بمكانه، لا أريد هذه المرة التقدم نحوها خطوة واحدة لمد يدي بالسلام، فكرة التجاوز عن الأخطاء بحجة أن الرجل هو من يصالح، كانت وهما كبيرا وقد استفقت منه، الحقيقة التي يجب أن تدركها والدتك؛ أني لست بالرجل المسالم على الدوام.

مرت بضعة أيام حتى تمكنت من أخذ موعد مع المنتج "محمود يحيى"؛ للأسف كنت قد قرأت مقالا عن الرجل، أنه من الذين تلاك حولهم الشائعات بأن نقوده هي نتاج غسيل أموال لعمليات مشبوهة، وآخر قال إنه ما هو إلا واجهة لرجل أعمال أجنبي، وشركة الإنتاج هو مساهم فيها بجزء وليس الكل، لذلك نرى الإمكانات الضخمة التي تملكها الشركة، أما الأعمال التي ينتجها خلال كل

عام تتجاوز أصابع اليد الواحدة، كل هذا اللغط تجاوزت عنه، بحجة أريد تحقيق أحلامي، مبادئي صارت كالقماش أفصل منه ما يحلو لي.

اليوم أحلامي تمنحني القدرة على معانقة عنان السماء، حاولت تخطي كل العقبات لكي أصل إلى هدفي؛ ألقيت بمهاترات "سها" خلف ظهري، أحمل بين يدي ملف الفيلم وأملك جناحين من الأحلام يرفرفان نحو القصر، رغم الغصة التي أشعر بها منذ أن تخاصمنا أنا وهي، أحاول بكل ما أوتيت من قدرة أن أخلع عني رداء أحزاني، ليتلاشى ويذهب بعيدا عني، الحياة ليست دوما سيئة ولا دوما جيدة، بين السوء والإجادة نصبح كدود الأرض نواصل الزحف نحو الهدف، وخلال رحلة الزحف يستسلم أصحاب العزائم الضعيفة. اليوم القصر ساكن إلا من بعض الخدم، جلست على نفس مقعد المرة الفائتة، هناك حقيقة أدركتها أنه ليس أوائل الأشياء هي الحقيقة الكاملة، في الزيارة الثانية فقد المكان رونقه، وجودي هنا ليس بالمغنم بل هو من طبائع الأمور، لأنني لن أزيد عن عابر سبيل، وعابرو السبيل لا يملكون إلا أقداما تمنحهم القدرة على المواصلة، لا يملكون شيئا مما يرونه، تكفيهم الفرجة، بل يحاولون أن ينتزعوا شيئا يضعونه داخل أفواههم الجائعة لمنحهم القدرة على المواصلة.

جلست أتأمل حالي، مازلت أنتظر قدوم الرجل الذي غاب عني كثيرا هذه المرة، جاء يرتدي روبا مقلما أشم منه رائحة عطر مثير جدا، لا أعرف اسمه، لكن رائحته مريحة للنفس، دون مقدمات كثيرة جلس على المكتب، هذه المرة أشعر بأن المقابلة مختلفة، هو على عجالة من أمره، كنت قد شربت قهوة وعصيرا وأنا في انتظاره، عندها لم يطل لقاؤنا أكثر من خمس عشرة دقيقة، نظر نظرات عابرة على بعض المشاهد والملخص، حاولت أن أشرح له وأن أفضي ما في جعبتي كله، كل ما كنت أحمله من أفكار وحوارات أردت إفراغها على طاولته، لكنه صدني بصوت هادئ بأن النص هو خير مدافع عن نفسه، وأجمل ما في الإبداع الجيد بأن حجج محاميه باطلة، النص الجيد لا يحتاج إلى من يدافع عنه، يحتاج إلى من يتعمق في بواطنه ليستخرج لنا المعنى والقصد، طلب مني وهو يبتسم بأن أستبشر خيرا، وإنه سيتواصل معي بعد أيام من الآن، هو مؤمن بموهبتي جدا، وسوف يعطيني الفرصة كاملة، ظل يؤكد لي ذلك وأن الأيام ستثبت لي صدق ما يقوله، وهل يملك الصعاليك من أمرهم شيئا إلا تصديق هذيان سادتهم.

هززت رأسي وانصرفت، رغم أن كلام الرجل في نفس السياق بأنه معي، وسيقف بجواري يمد يد العون لي، لكن أشعر بأنه فقد حماسه، وهناك حجر تم رميه على جناح أحلامي فأصابني وبدأ يؤلمني، لكن رغم الألم مازلت أستطيع التحليق بعيدا عن هذا الواقع السمج المقيت، لا أدري سر

شعوري هذا. هل أنانية الكاتب تسيطر على شخصي، الذي يظن بأنه يجب على العالم كله تبجيل كل حرف يكتبه، وهذا التبجيل حق مكتسب وليس منة من أحد، ماذا أريد منه أكثر من ذلك، هيا أفرح ولا تتاجر في الخسارة، هذا ما انتهيت إليه بعد صراعي الداخلي:

– أحضر لك تاكسي يا أستاذ.

سمعتها من الحارس وهو يشير نحوي، لكن حينها كان يجب على أن أتحسس حافظة نقودي جيدا، ما بها من نقود لا يكفي للقيام بهذه المغامرة، منذ أن توقفت "سها" عن العمل ضاق بنا الحال، وقفت بجوار الحارس لا أدري ماذا أقول له، لا تغرك ملابسي المهندمة، أو وجهي الضحوك، خلف هذه الضحكة تراكمات من الحزن، تشبه تراكم الثلوج في الموسم القطبي، وتحت ملابسي المهندمة ملابس بالية لا تستر ولا تحمي من برد الشتاء، ماذا أقول لك أيها الحارس، وأنت الذي اعتادت عيناك على رؤية ملوك تدخل هذا المكان تركب سيارات فارهة، لا يا رجل الأمن! أنا لست منهم، الذي يقف معك ما هو إلا صعلوك مثلك، ينتظر فتات الملوك، أحضر مقعدا مشيرا نحوي بأن أجلس هنا بجوار غرفة الأمن، لا تسر وحدك في هذه الأماكن ليلا، هم لن يبصروك من خلف زجاجهم المانع "الفاميه" وهم يلهون بسياراتهم الفارهة، قالها الرجل دون أن يتلفظ بها، أجلس وأنتظر صعلوكا من خدم القصور؛ لعله يملك قلبا رحيما يحملك معه خارج هذا المكان المسور عليهم، جلست إلى جواره وأنا أشعر بالدونية لذلك ضاق صدري.

بعد دقائق من التفكير والتدبر ماذا سأفعل وهل سأظل هنا كثيرا، لم تكن لدي رغبة للذهاب للبيت، جبل الثلج يقف حائلاً بيني وبين "سها"، هل لو حكيت لها ما كان من أمر المنتج هل ستسمع لي؟ بل ستحدق نحوي بضيق شديد، وهي تدير وجهها عني وتلومني بسبب صاحبة صفحة الفيس بوك زهرة الياسمين، المسافة تتسع بيننا يا "سها" لماذا تضربين بيد من حديد على جدار الثقة، حتى صار أطلالا، كان يجب عليكِ إخباري بالكواليس، أليس أنا بزوجك الذي من المفترض أن يعرف عنكِ كل شيء، لماذا أنا بالنسبة لكِ كتاب مفتوح وللأسف لا تجيدين قراءته، ولم تعطني نفس الحق والثقة المتبادلة، اختطفني من بحر ظنوني صوت سيارة تخرج من داخل القصر، لم أتمكن من رؤية من يقودها من شدة الإضاءة الخارجة منها، توقفت السيارة عند البوابة، من تقودها رفعت يدها تلوح لرجل الأمن الذي هلل لها بصوت مرتفع:

– مع السلامة يا نجمة.

أنا مازلت جالسًا حزينًا مشاهدًا لا مشاركًا، في البداية لم أهتم بمن في السيارة ولا من صاحبتها، مهما تكن من هي النجمة أنا غير مبالٍ، هذا المكان يلج إليه الكثير مما يسمونهم نجوما ونجمات،

خابت ظنوني السيئة وتوارت خلف جدران الدهشة، عندما توقفت السيارة بعدي ببضعة أمتار، وسمعت من داخلها صوتًا ينادي باسمي:

– أستاذ صلاح أنا ذاهبة لوسط البلد؛ لو هذا هو طريقك ممكن تركب معي.

عيناي مندهشتان تنتقل بينها وبين الحارس، الذي رأيته يبتسم لي بعد أن هز رأسه، لم أكن أتوقع بأن الفرص تأتي سريعا، عودتني الحياة بأن أشحذ منها حاجتي وحالة العوز هي قرين لي، هل كانت "أميرة حسني" فرصة.. لا أدري، قمت من مكاني نحوها، حملت حقيبة يدها من على المقعد الأمامي لكي أجلس بجوارها، في الحقيقة لا يصح أن أجلس في المقعد الخلفي، هذا هو المتفق عليه داخل العرف الاجتماعي عند ركوب السيارات، لكن من يتقاسمون ويتجاورون بالمقاعد داخل السيارات هم من طينة واحدة، هنا تذكرت "ياسمين جعفر" عندما قدمت لي المساعدة، هل سأسأل النجمة نفس السؤال الذي قلته من قبل، لماذا تفعلين معي هذا الخير؟، أم سأصمت، وأحمد الله على هذه التوصيلة المجانية، التي لم تخطر لى على بال، عندما جلست داخل السيارة اشتمت أنفي نفس نوعية العطر الذي كان يضعه المنتج، رغم أنه عطر رجالي لكن لا أدري هل هذه حقيقة أم خيال من داخل عقلي الباطن الذي هو سبب أرقى؟.

جاء الفرج يا صغيري عن طريق سيارة "أميرة" الخاصة ذات اللون الأحمر، أسمع هذا القول جيدا:

– كن على يقين دوما بأن ليس كل الفرص التي تأتي إليك هي الأفضل، لكن إن أتيحت لك فأغتنمها، هناك ما هو أفضل بكثير وعليك مواصلة السعي للوصول للأفضل.

2

هل تعرف الريشة التي تعبث بها الرياح مصيرها؟، وبماذا تفيد الشمعة إن أشعلتها في طريق شخص أعمى، سيظل صاحب الأحلام المشوهة يبحث طيلة عمره عن المرفأ، هكذا كانت مشاعري المهترئة بين مصير مجهول وواقع مخيف، جلست بجوار "أميرة حسني" كأنني حيوان أليف تقتنيه داخل سيارتها، لا يتحرك إلا بإشارة منها، بعد أن شكرتها ظللت صامتا، لا أدري ماذا أقول لها، لم أكن يوما ثرثارا، لا أحب أن أتحدث فيما لا يعنيني، أو من الجائز بأنه لا تربطنا مواضيع ومواقف مشتركة سابقا نحاول الحديث عنها، ظنوني أخذتني إلى سوء الظن، عندما كنت جالسًا بالمكتب داخل القصر لم أرها، أين هي كانت؟، هل كانت بالطابق الثاني هناك داخل غرفة نوم المنتج، يقضيان أوقاتا ممتعة معا، ما حدث بين الناقد وياسمين ترك صورة بشعة وظنونا قبيحة داخل رأسي، فهمت الآن لماذا كان المنتج العجوز ذو الكرش الذى يشبه قربة ماء، يتعجل ذهابي، شعرت أنه كاد يطردني من مكتبه.

هم لهم حياتهم ولنا حياتنا، كيف تعرف سلوكياتهم وأنت لست منهم، يجب أن أكون حسن الظن بهم، كانت في جلسة مع المنتج والمخرج يتناقشون حول دورها الذي ستؤديه في العمل القادم، هذا ما ستقوله إن سألتها، لذلك لن أكون ساذجا وأسألها، لكي تستقيم الأمور يجب أن أصدق جوابها الذي لم تتفوه به، لكن هل تستقيم الأمور والنفوس غير مستقيمة، عاد هذا اللعين يهمس في أذني: أين مخرج العمل الذي كان بصحبتهما؟ ما زال الشعور بالدونية يعتريني نفضت عن رأسي هذه الظنون السيئة، أيها الصعلوك كف عن هذه المهاترات ودع شيطان ظنونك لا يفسد عليك اللحظة، جاءني صوتها الجميل:

– ماذا فعلت مع الأستاذ محمود؟.

تنهدت أشعر بضيق شديد، مشاعري السلبية تجعلني أتحدث بشيء من العفوية دون قيود، قلت لها وأنا أشيح بوجهي فى الاتجاه الآخر، كأنني أهرب من حقيقة الأشياء أو أتحاشى سيل ظنوني:

– الصعلوك لا يفعل شيئا مع ملوكه سوى التصفيق لهم عندما يتحدثون، حتى لو كان حديثهم هذيانا فهو مضطر لذلك؛ لأنه لا يعرف شيئا سوى ممارسة هذا التصفيق والمدح الكاذب، هم يريدون ذلك وهو صار يجيد هذا الدور.

تبسمت وهي تواصل القيادة دون النظر نحوي:

– منذ أن رأيتك أول مرة تعجبني إجاباتك الفلسفية، كنت أنصت لبعض الجمل التي قلتها ردا على المنتج، أعجبتني طريقة تفكيرك.

– شكرا على المجاملة يا نجمة.

قلتها وأنا أختلس نظرة عابرة إلى ساقيها الجميلتين الظاهرتين إلى ما فوق ركبتيها بقليل، بهذا الفستان القصير المثير هي كقطعة زينة معلقة على شجرة الكريسماس، تجذب النظر وتبهج النفس، ماذا لو تحسست ساقيها، هل ستطردني من السيارة، ألم أقل لك يا صغيري، من قبل إن ظنوني السيئة جريمة، ورغباتي الحمقاء مثيرة للشفقة، هل "أميرة" مثلهم أم شيء مختلف؟ هي ظاهرها غير باطنها، ولو كانت مثلهم فبماذا هي تتاجر؟ أسمع صوتها يتواصل معي مرة أخرى:

– لا تنادِني بالنجمة نادني باسمي، إلى أين أنت ذاهب الآن؟

– للبيت.

واصلت حديثها تدعوني لسهرة لطيفة الليلة، هي ذاهبة للمسرح عندها دور صغير ستؤديه في عمل مسرحي سيعرض الليلة، لو عندي رغبة من الممكن أن أذهب معها، الحقيقة عندي رغبة شديدة لكسر حالة الملل التي أعيشها منذ أيام داخل البيت، ها هي الحياة تقدم لي الفرص متتابعة، لكن لماذا أنا أقبلها على مضض، وسعادتي منتقصة، المسرح قيمة كبرى وأعشقه منذ الصغر، لكن لم يرد بخاطري أن أكون من رواده، ليس إلا خوفا من ثمن التذكرة، العرض كان ممتعا الليلة، أشعر بالمتعة عندما أدخلتني "أميرة" مجانا، أجلسني الرجل في نهاية الصفوف، وقف ينتظر البقشيش لكن لم تتجرأ يدي أن تمتد نحو جيبي، هو لا يستحق فقد أجلسني في الصف الأخير، وهل لمثلي مكان سوى آخر الصفوف، بدايات الأشياء دوما مبهرة، جلست متشوقا لفتح الستارة، لكن يا صغيري، تعلمت قاعدة في اللغة العربية بأن كلمة صار تعني التحول من صفة إلى صفة أخرى، منذ هذه الليلة يا صغيري، صار والدك نحو التغيير الجذري في حياته، أقحمتني "أميرة" في عالمها الجديد، الذي كنت أجهله بالمرة، كيف لي الدخول إلى هذا العالم دون أن أتعلم لغة أصحابه حتى آمن مكرهم.

كان العرض جيدا، والمتعة المضافة هي خروج البطل عن النص، ببعض الجمل التي أسقطها على الأحزاب السياسية الكرتونية، بعد نهاية العرض خرجت إلى ممر غرف الممثلين، التقيت بها وقدمت لها التهنئة بالأداء الجيد، رغم صغر حجم الدور، وتمنيت لها أن يكون القادم أفضل، تبادلنا أرقام الهواتف، ووعدتها باللقاء وهي وعدتني بذلك، أرسلت لها طلب صداقة على ألفيس بوك، قبلت الطلب من على هاتفها غالي الثمن ونحن نقف نتحدث، مثلي مثل ألوف تتابع طلتها

البهية وملابسها المتميزة، لكن أنا مختلف عنهم أنها تعرفني وأعرفها، وما بيننا صداقة متميزة، أنا سعيد بها وأظن هي كذلك، ذهبت للبيت وكانت "سها" نائمة، لا لم تكن نائمة هي لم تنم إلا بعدما اطمأنت على حضوري للبيت؛ لأنني عندما دخلت إلى الشقة كانت الغرفة مضاءة، تلك الغرفة التي ترقد فيها بصحبتك يا صغيري، هي تصر على عنادها وعندما فتحت باب الشقة انطفأ المصباح عن قصد، لا أعلم سر عنادها تواصل تحطيم كل شيء في حياتنا، لم تتقدم خطوة واحدة نحوي، اليوم اكتشفت وجهها الآخر، كما قلت لك من قبل؛ لبعض النسوة وجوه متعددة، وأنا مازلت أشعر بالإهانة؛ لأنها كذبت عليَّ، هذا السلوك أصبح عادة، أن أذهب إلى المطبخ أجدها تركت لي وجبة العشاء مجهزة، أحيانا أقوم بتسخين الطعام وأحيانا أتناول لقيمات بطعم المرارة التي أعانيها، هل تعلم أن عليها واجبات أخرى غير الطعام وحوائج البيت، هل تعلم أن زوجها يشعر بالفراغ الكبير في حياته، فراغ متسع أكثر من البقعة الباردة عند أطراف المجرة، دخلت إلى غرفتي خلعت عني ملابسي، أسترجع شريط يوم طويل مررت به، منذ الدخول إلى قصر المنتج، نهاية بـ"أميرة حسني"، لا أدري ماذا بعد؟.

هل تملك أميرة قرارها؟ وما هو سر علاقتها بالمنتج؟ سؤال بغيض لكنه دوما يرد بخاطري، رغم أني عندما كنت بجوارها داخل السيارة شعرت ببعض المشاعر الإيجابية، عندما طال بنا الحديث وأنا أوضح لها تاريخ المسرح، منذ يعقوب صنوع وجورج أبيض مرورا بالريحاني، حتى الوصول لسمير غانم وعادل إمام ومحمد صبحي، ومن قبلهم العظيمان كرم مطاوع وفؤاد المهندس، ظللت أشرح مدارس كل منهم على حدة، ومراحل تدهور المسرح المصري، حاله حال كل الفنون التي تربينا عليها وتعلمنا منها الكثير، اليوم الجميع يحتضر لكن ببطء شديد، منذ أن استبدل الرأسمالي الفنان بالرأسمالي التاجر، والفن فى مهب الريح.

كانت تنصت لي بإعجاب شديد من هذا الكم من المعلومات التى ذكرتها لها، أظن أني أنا في حاجة للحديث؛ لذلك طول الطريق الذي قارب الساعة ونصف الساعة، لم أتوقف عن الثرثرة، وعندما أتوقف تقول ضاحكة:

– أكمل أنا بسمعك، حديثك يروق لي.

أتحدث والسيارة تقطع بنا شوارع المدينة الكبرى، شعرت بأن مركبة فضائية تقلنا، نجوب بها الفضاء، لا تشغلنا تلك الشوارع المزدحمة، التي تنقسم إلى صنفين، شوارع نظيفة واسعة مرصوفة جيدا لا ترى فيها إلا صفوة البشر يسابقون الدنيا للوصول لأهدافهم، وهم خاصة البشر، وشوارع مكتظة بالباعة والسيارات والعراقيل، وبها كلاب وقطط ضالة تزاحم البشر، هذه شوارع عبارة عن

سوق كبيرة، لعرض البشر والسيارات والسلع والدراجات وعربات الكارو، تلك الشوارع هي في صراع مستمر، صراع العامة والغوغاء لضمان البقاء، للأسف من يتشدقون بالتصنيف هم سبب رئيسي في صناعته، مثل دول العالم الأول هم سبب رئيسي في وجود عالم ثالث، وصلنا إلى الجراج الذي تضع به سيارتها الفارهة، نزلنا وهي في عجالة من أمرها؛ لأن موعد رفع الستارة أقترب، همست لي ضاحكة:

– أنت عبارة عن بنك معلومات متنقل، وكنز ثمين –للأسف– يجب أن تأخذ حقك في المستقبل، الطريق بصحبتك مر سريعا، أنا سعيدة بلقائك.

بعد استرجاع شريط أحداث اليوم الذي فيه مشاهد كثيرة مرت وأجملها دخول المسرح، اتثاءب أريد النوم على هذه الجملة التي أجترها بفخر بأني كنز ثمين، لتضمن لي النوم جيدا، دون أن تهاجمني كوابيس عديدة؛ لذلك لم أغمض عيني على وجه أميرة الصبوح، ولكن أغمض أذني على جملتها التي راقت لي، هذه الجملة منحتني بعض الثقة المفقودة، في غياهب الواقع الذي أعيشه، أتدري يا صغيري، أن الإنسان مخلوق ضعيف جدا؟ رغم أنه مكابر دوما يظهر عكس ما يبطن لإثبات أشياء قد لا يحتاج لإثباتها، لكنه مهموم بها، دوما مثير محير، لو خيروك يا صغيري، بين أمرين كليهما محير، اِسْتَفْتِ قلبك، ولا تتردد كثيرا؛ لأن التردد يهدر الفرص ويبددها.

السعادة الحقيقية يا صغيري، ليس فيما نملك، السعادة التي شعرت بها الليلة هي في سماع ما نحب، أحيانا نحب سماع ذلك حتى لو كان مخالفا للحقيقة؛ لأن حقيقة الصعاليك طعمها مر علقم، لو عاشوا فيها بكل حواسهم؛ الواقع يقتلهم ويبددهم، يجب على الصعلوك صناعة أحلامه؛ لأنه لا يملك غيرها، هناك كلمات تمنحنا القدرة على المواصلة، وهي لا تكلف البعض الكثير، لكن بعضنا يستكثرها على من يستحقها، لن أقول لك كيف تكون سعيدا في هذه الحياة لأنني لا أعرف، لكن سأمرر لك هذه النصيحة:

– جالس من يعرف قيمة عقلك، ولا تجالس الذين يهتمون بمعرفة ما داخل حافظة نقودك، "أميرة حسني" جعلت لمعرفتي قيمة، يوم أن أنكرها الجميع.

3

ما أقوله لك اليوم يا صغيري، وأنا في الرمق الأخير من حياتي، هو نتاج تجارب عديدة، مررت بها في هذه الحياة، كنت حينها غير مدرك تماما لحقيقة الأمور، لكن اليوم أستطيع أن أقول لك إن التجربة هي المعلم الأول، ومن لم يتعظ من تجاربه فلا أمل فيه لمعرفة نواميس الحياة، كلما تباعدت الأزمان كانت رؤيتنا أفضل للمواقف؛ لأن الملامسة تتدخل فيها العاطفة وعواطفنا في كثير من الأوقات هي خير من يخدعنا، تحكم وعناد والدتك جعلني أبحث عن مخرج جديد من تلك الضائقة، جعلتني أتشبث بأشياء كان من الممكن أن تمر علىَّ مرور الكرام، يا ليتها كانت تعلم بأني كالبلبل لا يجيد التغريد داخل الأقفاص! صوته وهو داخل القفص ما هو إلا شكوى ونواح، انتهيت من العمل لكن ليس لي رغبة في الذهاب للمنزل، بيتي به حالة من الحداد والعناد، قد ماتت المصارحة والصدق فيه، لذلك قررت البحث عن بديل، أجد يدي تضغط على جرس الاتصال، جاءني صوتها الناعم الجميل بنبرة عتاب:

– جميل أنك مازلت تتذكرني، أين أنت يا صلاح؟.

كنت حينها أجلس في مكاني المعتاد بميدان سفنكس، بجوار تمثال الأديب الكبير، منذ قدومي من بلدتي أحببت هذا المكان لا أدري لماذا؟ كلما ضاقت بي الحياة توجهت نحو هذا المكان، أحب المبدعين والتعلق بحبل وصالهم هو اهتداء نحو طريق الإبداع، دوما يراودني شعور بأنني لماذا لا أكون مثله؟ هو لم يسعَ للجائزة جاءت إليه بعد نتاج سنوات من العطاء، لكن أين أنا منه؟ ما أحتاجه فقط هو البداية أو الشهرة، لكن خذلتني رغباتي، هل الأستاذ عندما كتب كان يتمتع بقدر من الشهرة، أم هو مارس الكتابة للكتابة؟ وهذه هي قمة العطاء، هذا هو العطب الذي أعاني منه، وقد قاله لي من قبل الناقد الدكتور "شكري عبادة" أتعجل النجاح يا صغيري، أنا مثل جيل كامل يتوق لطعم الثمرة قبل بذل الجهد في زراعة الشجرة، في كل المجالات من الممكن أن تنجح في أسرع وقت ممكن، إلا في مجال الإبداع؛ لأنك تخاطب العقول وليس الغرائز، مخاطبة الغرائز هو شيء مثل طلقة المسدس في صحراء شاسعة، له دوي شديد لكن دون أثر إيجابي، لكن مخاطبة العقول كقذيفة مدفع وسط المدينة، بداية الهدم والتلاشي من أجل البناء الصحيح والاستمرارية. لم يطل انتظاري كثيرا أتخبط في ظنوني، وجدت سيارتها تقف بجوار الرصيف، تنظر لي مبتسمة، رفعت يدها تلوح لي، قمت نحوها، هناك قوة مغناطيسية تجذبني إلى خوض غمار التجربة، لا أدري إن كانت هذه هي الحقيقة أم قوة "سها" الطاردة هي التى تدفعني نحوها دفعا، جلست بجوارها

في المقعد الأمامي دون تردد، قد زالت عني رهبة البدايات، بعد أن اطمأن كل منا للآخر، تلك الكلمات العابرة عند اللقاء انتهت، سألتها:

– إلى أين المقصد؟.

– أنا أشعر بالجوع نأكل أولا وبعدها قل ما تشاء.

تحركت بنا السيارة لمنطقة وسط البلد، ما عرفته أن اليوم لديها عرضا مسرحيا، سيحضر الحفل النجم المشهور الذي سبه من قبل المنتج، قالت لي إنها تتمنى أن يعجب بها، ثم شرحت مقصدها من هذا الإعجاب، قد تمت دعوة النجم لحضور العرض؛ لأنه يريد ممثلة لدور مهم في فيلمه الجديد، الذي قالت عنه الصحف والمجلات الفنية هذا أول تعاون له مع المنتج الجديد، يبدو أن جلسات الصلح التي كانت بين النجم وبين المنتج "محمود يحيى" لم تؤتِ ثمارها؛ لذلك ذهب النجم للتوقيع مع شركة إنتاج جديدة بعقد أعلى قيمة، الشركة المنتجة حديثة التكوين كما قالت عنها الصحف والمجلات، لكن الأخبار لا تخلو من بعض المجاملات الساذجة مدفوعة الأجر، أن المنتج الجديد جاء بفكر جديد، يريد تطوير صناعة السينما والمضى بها قدما، كمْ من رأسمالي دخل إلى هذا العالم ولكنه عاد بنا للخلف، الحقيقة التي أريد إخبارك بها يا صغيري، هي أن أميرة اليوم مهتمة جدا، لديها حلم وطموح كبيران، تناولنا وجبة العشاء في هذا المطعم الفاخر، عندما حضر النادل بالفاتورة في حركة وهمية مددت يدي نحو جيبي، تبسمت وقالت:

– أنا اليوم صاحبة العزومة، لا تخرج أي نقود من جيبك حتى لا تشعرني بالضيق.

وضعت ورقتين من فئة مائتي جنيه داخل دفتر النادل، رحل الرجل وأنا أحمد الله أنها صاحبة العزومة، كنت ساذجاً في هذا السؤال:

– هل ما تتقاضينه من التمثيل مربحا جدا.

– أنا لست بالإنسانة التي تملك من المال الكثير، الفن لم يعطني حتى الآن ما أتمناه، ونقودي هذه هي ملكية خاصة إرث عن والدي، لكن لماذا لا أحلم بأن أكون مثل بعضهن يملكن طائرات خاصة.

مازحتها بشيء من الراحة النفسية.

– أنتِ تستحقين ليس طائرة واحدة، ولكن مطارا كاملا ممتلئا بالطائرات.

ضحكت مما أقول:

– وأنت بماذا تحلم يا صلاح؟.

– أحلم بغرفة خاصة أجعلها مكتبا لي مليئة بالكتب، أجلس أكتب دون ضجيج، وليس في رأسي شيء سوى شخصياتي والأحداث، لا تشغلني قيمة الفواتير التي سأدفعها نهاية كل شهر؛ أو بكاء صغيري، أو اهتمامات "سها" التي تبحث عن تأمين مستقبل صغيرها، وهي لا تدري أن مستقبل زوجها في خطر إن بقى على هذه الحالة، للأسف يقولون إن الشدائد تصنع الرجال، أنا منذ نعومة أظافري قرين الشدائد والوحدة منهجي، ولم تصنع مني سوى إنسان حالم، يشبه فرع شجرة في ليلة خريف تتلاعب به الرياح كيفما أرادت، أنا لا أستطيع المقاومة والنأى بنفسي عن تلك الصراعات، من صعوبات الحياة، أن ما يسعدك لا يسعد الطرف الآخر والعكس صحيح، هنا كيف تستقيم الحياة بين هذا التضاد، أسوأ ما فينا أننا نهتم بالصورة أكثر من الأصل، يا عزيزتي، بعض البشر كالوقود يجب أن يحترقوا لكي تستمر الحياة.

تحجرت دمعة في عيني رغم أنفي، ربتت بيدها على كتفي تطلب مني أن أهون على نفسي، ظلت تتحدث ببعض الكلمات التي تطيب الخاطر، ثم رفعت عينيها للقادم خلفي وقالت:

– أنظر من هنا معنا في المطعم الإعلامي هيثم أبو القمصان؟.

جاء إلينا "هيثم" تبسم ابتسامته المعهودة "أزيك يا أميرة أيه الصدف السعيدة دي"، تلك الابتسامة التي لا تعبر عن حقيقة صاحبها، ابتسامة مزيفة، يطل علينا يوميا من شاشة التليفزيون، صافح "أميرة" بشيء من الاحترام الشديد، ثم نظر نحوي تصافحنا، مجرد سلام عابر، وأميرة تقدمني له:

– الروائي والسيناريست الأستاذ صلاح سنجاب.

الزمان خبير في صناعة الصدف المدهشة، أنظر عن يميني لأجد "ياسمين جعفر" بصحبته لكنها تقف متأخرة عن المقعد الذي أجلس عليه خطوتين، كأنها عرفتني من ظهري، لذلك وقفت متراجعة بعض الشيء لا تريد المواجهة، لم أرها منذ الوهلة الأولى، بل كنت أنظر أمامي إلى أميرة التي ظلت جالسة وهو يصافحها، الإعلامي قدمها لنا بفخر:

– الكاتبة والروائية الكبيرة ياسمين جعفر خطيبتي.

ثم تبسم كأنه يمنحها صك الشهرة أو فرضيتها علينا:

– أكيد أنتما تعرفانها أو سمعتما عن مؤلفاتها العبقرية.

4

لا ولن أتعجب مما يحدث، "ياسمين" تمارس البرجوازية بشكل متقن أكثر من الكتابة، هل هي تستحق لقب الكاتبة الروائية، لماذا نسمي الأشياء بغير مسمياتها؟ لماذا أنصاف الأشياء صارت هى كمالها؟ وضعت يدي في يديها نعم صافحتها، وهي لم تنظر إلى عيني، بل نظرت إلى الأرض لا أظن أنها تداري خجلها، هي لا تخجل لكنها تداري هذا العطب من ماضيها القبيح، كيف نلتقي بعد هذا الوقت كالغرباء، ألم تتذكر قبلاتي لا أظن بل تذكرت صفعتي على وجهها، كحالهن جميعا عندما يختلفن، هل انصرفت ياسمين بصحبة الإعلامي الشهير؟ لا يا صغيري، هي ظلت معي بل بداخلي، تصر اللبوة على تمزيق أحشائي بمخالبها، أتألم بصمت مخيف ووجه مكفهر. تراقب أميرة تقلبات وجهي ونحن بالسيارة متوجهان نحو بيتها:

– ماذا حدث لك؟ هل تعرف البنت التي كانت مع هيثم أبو القمصان؟.

كانت قد طلبت مني أولا مرافقتها إلى بيتها قبل الذهاب للمسرح؛ لاستبدال ملابسها، وتغيير مكياجها، فمازال أمامنا ثلاث ساعات ونصف الساعة على رفع الستارة، هززت رأسي يا صغيري، دون أن أبالي بالعواقب، والدتك دفعتني بقوة بقدمها إلى منتصف الطريق، كأنها رجل مصارع يملك من غلظة القلب أن يضرب بقوة دون أن يبالي، سقطت على وجهي في منتصف الطريق، أنتظر أي قادم يترأف بحالتي، أعيش هذه الأيام حالة من التشرد النفسي، نعم يا صغيري، هناك متشردون نفسيون رغم هيئتهم المهندمة، وهم من تضيق بهم الطرق، ولا يجدون لأنفسهم سبيلا، هم كالعاهرات يفتحون أبوابهم لكل طارق يملك ثمن التذكرة، خابت آمالهم في كل قريب وحبيب، وكانت "أميرة" أول من طرق الباب، فدخلت دون إذن لأنني لا أملك القرار، لا يا صغيري، بل كنت سعيدا بدخولها حياتي، هي تجربة ويجب أن أعيشها، بماذا أجيب عليها بخصوص سؤالها، الذي نكأ جروحًا كنت ظننت أنها قد برأت:

– تقصدين ياسمين جعفر؟.

هنا صمت بعض الوقت وهي كذلك صمتت، كلنا نمارس الهروب لكن بطرق مختلفة، كما هربت أنا من الصعوبات والعراقيل، بهذه الحالة من شبه الاستسلام، أذهب لكل مأدبة أُدْعَى إليها لا يهمني إن كانت فضيلة أو رذيلة، أشعر كأنني قطعة خشب نخر السوس بداخلها، تطفو على سطح ماء البحر لا تملك مصيرها، يدفعها الموج أينما أراد، هكذا حالي يا صغيري، بعد طول الصمت قلت بصدر ضيق:

– نعم أعرفها وأعرفها جيدا، لكن اكتشفت بعد هذه السنوات من القراءة والمعرفة، أن العلاقات البشرية لغز محير أكثر من مثلث برمودا، أو أكثر غموضا من جزيرة مور الشهيرة بجزيرة الأشباح، التي لا أحد يستطيع البقاء بها ليلا لوجود أشباح ومخلوقات صغيرة، النفس البشرية مخيفة أكثر من هذه الجزيرة، يا "أميرة" أعرفها وأعرف طعم شفتيها، قد تحسست يدي تضاريس جسدها، وأعرف ماركة ملابسها الداخلية، لا تتعجبين من وقاحتي ليس كل ما يلمع ذهباً، لا يا سيدتي، أنا لست وقحا، بل هي من جعلتنى كذلك، دون قصد جعلت من نفسي دمية مضحكة في بداية علاقتنا، حتى حولتني إلى الدمية "أنابيل" مثيرة للرعب في أفلام هوليود، قلتها من قبل وسأظل أقولها دوما، أنا إنسان لست شريرا بطبعي، حيرتي التي لا تضاهيها حيرة تستنزف قدراتي، كيف هي تستطيع تبديل الأقنعة؟! سأقول لكِ في النهاية، كنت أجاهد لأجعل منها قيمة، لكن هي حولت نفسها لسلعة لها ثمن، أيكفي هذا الاعتراف مني بعظيم أخطائي؟ أنه يكفي يا أميرة، لا تتخيلين أن الأمر قصة حب مراهق وقد فشلت، لا يا سيدتي، ما مارسته معي "ياسمين" هو نوع من السموم غير الأخلاقية، الذي يقتل فطرتنا، الانتهازية في أبشع صورها.

لم أستطع الذهاب مع أميرة للمسرح، بعد أن جلست بشقتها ذات الأثاث الفاخر، وتركتني جالسا في الصالون، من بعد أن أحضرت لي كوبا من العصير، ودخلت تغير ملابسها وقناعها أقصد مكياجها، أمسكت هاتفي وجدت على صفحات الأصدقاء في الفيس بوك خبراً جعلني شبه منهار، صورة مطوقة بإكليل من الحزن للناقد "رأفت مرعي"، والنعي مكتوب تحت الصورة، اختار الرحيل عندما أوصدت أمامه كل أبواب الدنيا الخادعة، الصحفي النبيل والناقد الفني الكبير رأفت مرعي في ذمة الله، وعرفت من التعليقات أن الرجل انتحر داخل شقته، كان الخبر صدمة حقيقية، لم أتمالك نفسي تحجرت دمعة داخل مقلتي لا تريد أن تسقط حتى أستريح، وأنا أحوقل وأدعو له بأن يرزقه الله الجنة، لأنه فشل في دخول جنة الدنيا، لذلك على الذين لا يستطيعون دخول جنة الدنيا لا يحزنون كثيرا؛ لأن مصيرهم جنة الآخرة، الله هو العدل أيها الصعاليك، لا تحزنوا من قدركم في الدنيا؛ لأنه رحلة وستنتهي.

كما انتهت زيارتي لشقة "أميرة"؛ دون إذن خرجت، قمت متوجهًا نحو الباب وأنا أسمع خرير الماء على جسمها، قررت الرحيل، الصدمة كانت أكبر من كل الاعتبارات الشخصية، مثل الاستئذان أو أي شيء تظنه بي صاحبة الشقة لا يهم، الحزن الذي دفعني للرحيل كان أقوى، لا أرى أمامي إلا صورة الرجل، عندما جلست معه على المقهى، وفي مخيلتي صورته وهو منتحر بالشنق لقد شنق نفسه، هو شنق نفسه هذا قراره، وأنا أنتظر السجان الذي سيشنقني وهذا قراركم، من طبيعة أفعالنا

تأتي نهايتنا، جرجرت قدمي في شوارع المدينة، شعرت أنها ضاقت بي لم أجد مكانا يسعني لكن واصلت السير، حتى عندما مررت بتمثال الأديب نظرت إليه برهة، ثم وليت منصرفا عنه مازالت الدموع متحجرة داخل مقلتي.

مَنْ قتل "رأفت مرعي"؟. هل الرأسمالي الكبير صاحب الجريدة، أم المنتج محمود يحيى صاحب الفكر والنقود الملوثين؟ عندما اهتممت بأرشيفه الإنتاجي، تبينت شيئا خطيرا جدا في معظم أفلامه، وأدركت سر الإيرادات العالية التي يحققها، يطرح الشذوذ الجنسي والسحاق والسادية، ويروج للأفكار الغربية بشكل فج، مثل علاقة الرجل بالمرأة قبل الزواج؛ ممكن أن ينجب منها وبعد ذلك يتم الزواج ولا غضاضة في ذلك، وكثير من الأفكار المستجدة على مجتمعنا العربي، وهي تهدم لا تبني، كل الأشياء صارت مباحة تحت مسمى الإبداع، وفي النهاية يجب أن تتعاطف مع أصحاب هذه العلل جميعا، السادي والشاذ والمخنث، وتعاطفك وحده لا يكفي، يجب أن تقلدهم بل تتبنى أفكارهم، تلك الأفكار التي يروجون لها بطريقة السم في العسل، مثل الديمقراطية الأمريكية منهج احتلالي جديد للدول الفقيرة.

أم القاتل الحقيقي هو رئيس التحرير؟ هذا الجبان المخادع، هو عبارة عن أداة في يد صاحب رأس المال، أم زوجته التي أنكرت فضله عليها هي القاتلة، الحقيقة ليس كل هؤلاء هم وحدهم القتلة، القاتل الحقيقي هو من سمح لهم بممارسة الشذوذ الأخلاقي تحت مسمى أخلاقي، والتلاعب بمصائر البشر على حسب رغباتهم الشاذة، يمارسون ويستبدلون الأفكار الشاذة كما يستبدلون ملابسهم، هذا القاتل أنا شريك معه في هذا الجرم الشنيع عندما تخليت عن دوري، لم أتواصل معه أو حتى أتذكره، ولم أذهب إليه زائرا كما وعدته، بل أدخلت نفسي في دوامة من الصراع والرغبة؛ لذلك لم أجلس ولو دقائق معدودة أحاسب نفسي وأقيم اتجاه بوصلتي، كما كنت أفعل وأنا صغير، ولكن كل المعتادات تركتها لأثبت للجميع أنني لست بظل، لو تركت عاداتي الطيبة لكي أثبت لنفسي بأنني كاتب يستطيع لكنت قد نجحت، صغائر الأمور اختطفتني، كما أختطف الموت روح "رأفت مرعي.

النهاية التي أختارها كحياته مليئة بالشجاعة، قرار الهروب من هذا العالم غير المنصف كان قرارا حتميا له، هل وصلت رسالته لكل من شارك في ممارسة الظلم عليه؟ لا أظن؛ لأنهم لا يقرؤون الرسائل الإنسانية، ولا يهتمون بإشارات القلوب والعقول، الحياة فى هذا الزمان بها صنفان من البشر، ظالم ومظلوم، ومن سخريتها أن من يرفع صوته مناديا بالعدل هو الظالم، ثم يحملهم ثمن جرائمه بأنهم هم من دفعوه لممارسة الظلم، يجب علينا التخلي عن منطق الأسماك في البحار،

الحقيقة يجب ألا يأكل كبيرنا صغيرنا؛ لأنها أشياء تسقط يا أستاذ رأفت، وأشياؤنا سقطت في بئر مظلمة وأحكموا قفل فوهتها، ضللونا عندما تركونا نبحث عن أشيائنا في أماكن أخرى مضيئة مبهرجة، ونعلم جميعا أننا لن نجدها، وبالرغم من ذلك نحن مستمرون في عملية البحث الوهمية، ولم نفكر يوما الذهاب إلى البئر المظلمة نشعل قنديلا ونخرجها، رغم علمنا بأن أشياءنا هي العضد الذي سينصرنا، كما أهال الناقد التراب على النظريات العربية في السرد وأستشهد بالغربية، وكما فعل المنتج محمود يحيى عندما أتى لنا بالمنتج السينمائي المعرب الذي لا يمثلنا، الخداع البصري منهجهم. فيا صغيري، لا تحزن لو منعوا عنك دفتري هذا؛ لأن شريعتهم المنع كما منعوا وتاجروا في علب اللبن المجفف الخاصة بك؛ ومنحوك ثمرة فاكهة مسرطنة، وعندما أصابك السرطان، تباكوا عليك وهم يحملون باقات زهورهم التي تربت على المزابل.

يا صغيري، نحب الفراشات ونكره الجراد وهذه هي مصيبتنا، الجراد يسير في صفوف منتظمة ويعرف أين يذهب، لكن الفراشات تحلق بفوضوية فوق العشب، لذلك نمتدح الفراشات ونعشق الطريقة الفوضوية التي تمارسها.

يا صغيري، لا تحزن، اليوم أقولها لك دون خوف ومواربة؛ لأنني أحتضر، وكما اتفقت معك من قبل لن أجمل الأشياء، ولا يضيق صدرك من هذه اللغة الخطابية التي أكتب لك بها، لكن هذه لغة الرسائل يا صغيري، يجب أن يكون المكتوب مباشرا وصريحا، حتى يصل إلى فؤادك، لن أمارس الإسقاط والمواربة في دفتري كما مارسته فيما كتبته من روايات ومجموعات قصصية، لعله يصل لك ما أريد أن أقوله، وإن قالوا لك والدك يتاجر بالشعارات، فهم لا يفهمون قيمة دفتري هذا! لعلهم يفمهون دفتري ويفقهون قولي:

– لا تصدقهم عندما يتحدثون، هم لا يهتمون بالإنسانية بقدر الاهتمام بذكورتهم الوهمية، الرجل الحقيقي هو الذي يناصر الحق أينما كان، لا تخدعك المسميات البراقة.

5

كيف سأنجو وكل الطرق شائكة وكل الأبواب مغلقة، لم أجد إلا مكانا وحيدا يحتمل حماقتي ويروض نزواتي الطائشة، ضغطت بأصابع مرتعشة على جرس الباب، لا أريد فتح الباب بمفتاحي، لكن أريدها كما كانت من قبل عند الخروج تودعني وعند الحضور تنتظرني، سقطت في حضن سها أواصل البكاء بشدة، بعد أن فشلت في البكاء في حضن "أميرة"، لا أدري لماذا لا أستريح إلا في حضنها هي وأمي؟! قلت بصوت متحشرج:

– رأفت انتحر يا سها.

تناست الخصام والعناد، أسوأ ما فينا عند الموت فقط من الممكن أن نتسامح ونتجاوز، كأن الحياة مباراة ملاكمة لا نتصافح إلا عند النهاية، حضنُها يمنحني الدفءَ، ربتت بيدها الطيبة الجميلة، وأخذتني إلى السرير، كم اشتقت لغرفة نومنا، أجلستني ثم خلعت عني حذائي وملابسي، وهي تتزأف بحالي، كنت شبه منهار إثر هذا الخبر المفجع، الحقيقة شعرت بالذنب الشديد تجاه المنتحر وتجاه زوجتي، الاثنان لا يستحقان مني هذه القسوة والتناسي.

لا أستطيع أن أصف لك ما حدث بعد أن مرت نوبة الحزن والبكاء، تناولنا العشاء معا، وكانت زوجتي تنتظر عودتي إلى حضنها، لذلك أغدقت عليَّ كثيراً من حنانها، شعرت ليلتها بأنني ملك متوج على جبينها، قضينا ليلة ممتعة من أجمل الليالي التي تشاركنا فيها السرير. صغيري، لا يصح أن أطيل عليك أكثر من ذلك فيما حدث في هذه الليلة، لكن ما أستطيع أن أقوله لك:

– أحيانا، سر سعادتنا فيما نملك، لماذا غضضنا الطرف عنه؛ لأننا أعتدنا على النظر بعيدا إلى كل بهرج يختطف أبصارنا، وما بيد غيرنا هي النعم العظيمة المُرجاة..

6

الحياة عادت جميلة بجوار سها، لم نختلف كثيرا، ورويدا رويدا عُدنا كما كنا، نتحاور ونتجادل في مواضيع مختلفة، نسعد في نهاية الحديث بهذا الاختلاف، وأنت يا صغيري، أصبحت تتجاوب معي تملك ضحكة رائعة، عندما أحملك عن أمك وهي ذاهبة لقضاء شيء من حوائج البيت، لك صوت ضحكة أجمل شيء في هذه الحياة، لك نظرة بريئة ولكن تشعرني بقشعريرة كلما حدقت في عينيك الصافيتين، أشعر بعدالة السماء؛ لأن وجهك خليط بين وجهي ووجهها، تحمل عيني أمك الجميلتين ذواتَى الرموش الطويلة، حمدت الله أنك لم تأخذ منها أنفها، شعر رأسك يشبهها ناعم جميل طويل، وحمدت الله أنك لم تأخذ مني شعري الخشن المجعد، أو لون بشرتي القمحاوي، كانت بشرتك بيضاء بياض الثلج كأمك، رأت "سها" صورتي مع أميرة حسني داخل المسرح، على صفحة أميرة وهي تنشر صور معجبيها بعد عرض مسرحيتها، لم تتوقف كثيرا كأنه خبر عابر في الجريدة، لا يخطئ الخطأ مرتين سوى الأحمق، شرحت لها بأنني يوم أن ذهبت للمنتج وجدتها هناك، وقد عرفني عليها، وقدمت لي الدعوة لحضور تلك المسرحية، ذهبنا ليلتها مع المنتج محمود يحيى بسيارته إلى المسرح، ولم تأتِ فرصة أحكي لكِ؛ لأننا كنا متخاصمين، كذبت في جزء من الحكاية، لم أستطع أن أقول لها ركبت السيارة مع امرأة أخرى ليلاً، بل ذهبت إلى شقتها وحيدا، هنا لو أقسمت لها أنه لم يحدث شيء بيننا فلن تصدق، لكن الأمر مر دون مشاكل أو لم تهب رياح غيرتها الحمقاء، لتقطع أطناب خيمة الاستقرار.

"سها" تجاوزت هذا الحدث، كما تجاوزت وقبلت "أميرة" عذري الذي قلته لها عن سبب رحيلي عنها دون إذن، يوم أن كنت عندها بالشقة، وتواصلنا بعدها أكثر من مرة في الهاتف، قدمت لي الدعوة منذ ثلاثة أيام لتناول قدح من القهوة في مقهى بوسط البلد، تريد الحديث معي، قدمت لي وقتها عرضا جيدا، إن كنت أملك سيناريو وأرغب في التقدم به للشركة الجديدة، التي وقعت عقودًا معها، هي ستساعدني في ذلك، كانت ليلتها سعيدة جدا، وأنها ستقف أمام النجم الشهير في أول بطولة مطلقة، يبدو أن ليلة المسرح بعدما ذهبت عنها وتركتها أتت ثمارها، هل هي تخلت عن محمود يحيى أم هو الذي تخلى عنها؟ سؤال راودني وهي تحكي لي لكن لم أبح به، وكذلك لم أخبر "سها" بما كان من أمر "أميرة حسني" التي تحدثت لي بثقة ونحن داخل المقهى، إنها تستطيع أن تفعل. ألم أقل لك يا صغيري، إن المرأة معها مفاتيح كل الأبواب الموصدة..

كنت جالسًا ألعب مع صغيري وهاتفي يواصل رنينه، لا أهتم به أياً من كان المتصل، فسيتصل مرة أخرى، أو أنا سأتصل به، لا أرغب في أن أمنع نفسي من متعة اللعب معك يا صغيري، لكن خرجت "سها" من المطبخ تعاتبني على عدم الاهتمام بالهاتف، جاوبتها من الممكن أن يكون زميلا من الجريدة، فأسهل شيء عندهم الاتصال، ولا يجهدون أنفسهم في البحث عن المقالات التي انتهيت من تصحيحها، لكن خابت ظنوني، عندما أخبرتني أن المتصل هو المنتج "محمود يحيى" هرولت إلى الهاتف التقطه من يدها، وأنا أقول بسعادة:

– جاء الفرج يا طارق جاء الفرج يا سها.

الرجل يبلغني بصوت جاد وحازم، بأنه يريد أن يراني في الغد، ويؤكد علىَّ بأن أحضر وحيدا، هذا الأمر قاله في جملتين، ثم قفل الخط فوقفت شاخص البصر، قد طلب حضوري وحيدا من قبل الناقد الدكتور، واليوم يطلب حضوري وحيدا المنتج، بت أخشى هذه الأشياء التي تحاك في الظلام، لا أريد أن يكون جزءا من حياتي في نفق مظلم، وضعت الهاتف في مكانه، ولم أستطع أن أخبئ عن "سها" التي تقف بجواري، تراقب وجهي مندهشة من ردة فعلي غير المبررة لها، وهي تقف تنتظر تبريرا لحالتي الشمعية هذه، تسألني ماذا كان من أمر هذا الرجل:

– يطلب مني الذهاب إليه في الغد.

تبسمت وهي تدعو لي بالتوفيق، لكن أنا لم أسترح للطريقة التي تحدث بها معي، مازلت أقف مكاني لكن تجاوزت الأمر، وأوجدت مبررات له، بأنه مشغول؛ لذلك هذا الصنف من الناس وقتهم ضيق جدا، هم لا يفعلون مثلنا يجترون الكلام، ومن الممكن يتحدثون عن الأمر ذاته أكثر من مرة بنفس النهم، لا يرغب في حكي ما يريد في التليفون، ثم يعيده على غدا مرة أخرى، كانت الليلة طويلة بين حلم يولد والخوف من موته وهو جنين، كم جنين قتلناه دون أن نبالي، أتقلب على فراشي كأنني دجاجة داخل شواية معلقة على قضيب أسطواني من الحديد، لا تملك من أمرها شيئا، "سها" طلبت مني أن أحاول النوم، ثم قالت:

– يجب عليك الذهاب للرجل وأنت في كامل تركيزك الذهني، عليك ترك التفكير، وخذ قسطا كافيا من النوم.

– لا أشعر بالراحة!

قامت وجلست بجواري، أمسكت بيدي تقبلها:

– لا داعي للخوف، ما أسوأ ظنونك.

– من الممكن أن يرفض السيناريو.

– حتى لو حدث هذا الأمر فهو ليس نهاية المطاف، بل بداية، وسنحاول مرة أخرى في شركة إنتاج أخرى، لا ترتكب الخطأ مرتين، تترك مصيرك بيد شخص واحد، كما فعلت مع الناقد الدكتور "شكري عبادة"، الكاتب يجب أن يكون كالطير متحرراً، حتى في قراراته يجب أن تتسم بالحرية والعقلانية، ألم يكن هذا هو كلامك، لا تتعجل النجاح يا صلاح، إنه أتٍ لا محالة، إن واصلت بنفس العزيمة.

تبسمت وقبلت يدها وأخذتها في حضني، دفء حضنها لم يمنع عني الأفكار التي تتصارع داخل رأسي، صدقت زوجتي؛ لو رفض السيناريو أملك عرضا ثانيا، وهو جيد عن طريق "أميرة" لماذا هذا الكم من الخوف والقلق؟ صائد الغزلان دوما تخطئ أولى سهامه، وعندها لا يترك الغابة ويرحل، يجب على صائد الفرص أو الباحث عن فرصة أن يتعامل بمنطق صائد الغزلان، لا أدري متى داهمني النوم، في الصباح ودعتها كوداعي القديم، بعد أن تناولنا وجبة الإفطار معا، قالت صاحب البيت جاء أكثر من مرة يطلب قيمة الشهرين المتأخرين علينا، والنقود التي أعطيتها لها قاربت على النفاد، علينا فواتير متأخرة يجب أن ندفعها، وتريد الذهاب إلى الطبيب بطارق الذي يعاني، طيلة هذه الليلة يتقيأ كل ما يرضعه من لبن، ثم ختمت حديثها بجملة ماكرة، أو غير ماكرة أنا ظننتها ماكرة، تتمنى ألا تجد نفسها مضطرة للذهاب إلى والديها تطلب منهما نقودا، وهي تكره فعل ذلك، لكن إذا اضطرت فلن تفعل قبل أن أسمح لها، واصلت شكواها لأن الظروف صارت سيئة، وطارق يحتاج مصروفا مثلنا، هي الآن تبحث عن عمل في إحدى الجرائد، انتهت من بث شكواها السمجة الثقيلة على قلبي، حدثتها بثقة:

– لا تطلبي من أحد شيئا أنا سأتدبر الأمر، ولن أعود إلا بالنقود.

انتهى بيننا الحوار وذهبت للعمل ومنه كنت أنتوي الذهاب للقاء المنتج، وخلال ساعات العمل تذكرت وعدي لزوجتي بألا أعود إلا ومعي النقود، أمسكت بالهاتف النقال، لم أجد أمامي إلا "أميرة حسني" هي التي من الممكن أن تقضي لي هذا الأمر السمج، الاقتراض يراه البعض مذلة وأنا أولهم، لكن هناك دولاً تعيش على الاقتراض، عندما يتشدق ساسة هذه الدول بأنهم نجحوا في مخاطبة البنك الدولي، ليمنحهم قرضا بقيمة كذا، هو نفس ذات الشيء، ولكن عندما يفعله الساسة يكون نجاحا، وعندما يفعله العامة يكون مذلة وهوانًا، لكل شيء في عالمنا مقياسان، هم يجيدون تفصيل المبادئ كملابسهم. تواصلت مع "أميرة" ظلت تثرثر معي دقائق كثيرة، ستبدأ تصوير مشاهد فيلمها الجديد خلال أيام، وهي الآن عاكفة على قراءة الورق في البيت، وتدرس الشخصية والبعد النفسي لها وتحاول أن تذاكر كل مشهد، وقد عقدت جلسات أولية مع المخرج والنجم،

والمنتج الجديد، واعتذرت عن عدم أداء دورها في المسرح للتفرغ التام، فهي تعتبر هذا الفيلم نقلة في حياتها، أخذت منها موعدا بأنني سأزورها الليلة من العاشرة إلى الحادية عشرة، ولم أبلغها بموعدي مع المنتج.

لا أدري لماذا أخفيت عنها ذلك، هل لتلبية طلب المنتج بأن أذهب إليه وحيدا، أم هذه طبيعتي الجديدة، لا أثق بأحد بعد ما رأيت منهن ومنهم، الحقيقة يا صغيري، لا هذا ولا ذاك بل هي لم تعطني فرصة للحديث، دوما تقاطعني وأيضا لم تسألني، لذلك لم أخبرها، علاقتي بأميرة جيدة، حسب ما أشعر به تجاهها وهي إنسانة جيدة، لا أرغب في إخفائها عن "سها" سأصارحها بكل شيء عند عودتي، لا أحب أن أعيش جزءا من حياتي في الظلام، وعليها أن تتفهم ذلك الأمر وألا يكون بيننا تكلف في الحديث، أريد أو أتمنى أن يكون بيتي هو المكان الوحيد الذي أهرول إليه، لكي أتخلص من أوجاعي، هذه هي رغبتي وليس تحقيقها من المستحيلات، يجب على الجميع أن يفهم بأن الحياة مشاركة حتى تستقيم الأمور، وليس حربا أو جولة مصارعة لا نتصافح أو نتسامح إلا عند النهايات، كما كنا نفعل من قبل لم نتصالح إلا عندما مات الأستاذ "رأفت مرعي"، الذي صار موته عبئا جديدا يضاف على عاتقي، صورته تطاردني وقت أحزاني، هي ثقب جديد في جدار القلب هل أشفي منه، سنرى في القادم.

يا صغيري، تعلمت منذ الصغر أن الصدق ينجي، لكن مع النساء الصدق مهلك فيه سم قاتل؛ لأن بعضهن لا يفكرن إلا بالأذنين، ألم تعلم والدتك بأن صدقي معها كفيل بأن يمنحني الراحة النفسية، هل هي تستكثر على أن أعيش مع نفسي في سلام، وأن أحررها من ربقة الحيل والصراع، ألم تعلم والدتك أن ما تزرعه في قلبي هي ما ستحصده في المستقبل، عليها اختيار البذرة الجيدة الطيبة. أسمع عني جيدا:

– إياك يا صغيري، وأحذر من الزهور الجميلة التي تنبت على المزابل؛ لأنها ملوثة وتفكيرها يشبه ما نبتت عليه.

– لو خيروك بين الاقتراض والفقر، فاختر الفقر؛ لأنه عرض زائل مقابل الجد والاجتهاد، لكن الاقتراض عرض لا يمكن الشفاء منه، لأن ممارسته هي عادة وداء مستفحل.

7

جلست أمام المنتج وقتا طويلا، لأول وهلة يبدو حزينا جدا يذكرني بحالتي عندما رأيت "ياسمين" داخل شقة الناقد، نتشابه في حالة الحزن لكن رد فعلنا لا يتعادل، لا مساواة بين البشر، أخيرا أمنت بفرضية الطبيعة الربانية، الرجل منذ أن رأيت حالته بث في نفسي الضجر، ظننت أنه مريض، لكنه اتضح لي أنه يعاني، هل الأغنياء يعانون مثلنا، أم لهم معاناة لا تشبهنا أيضا، نحن معاناتنا حرمان وهم معاناتهم رفاهية سوء الاختيار، أشعل سيجارته الفاخرة الكبيرة، قال ضاحكا بحسرة شديدة مشيرا نحو سيجارته:

– هذا السيجار يا صلاح، ثمن الواحد منه خمسون دولارا، هو مزيج بين التبغ المكسيكي والنيكاراجوي الملفوف بأوراق الهابانو، هي ممتعة عندما أشعلها، لكن عندما أنتهي منها لا أشعر إلا بضيق في التنفس، بسبب حالتي الصحية، هكذا بعض البشر يشبهونها، يجب أن تتعامل معهم بنفس منطق هذا السيجار، كان يتوجب على شخص مثلي أن يكن حريصا، لا يدفع قيمتها إلا عندما يتأكد من كم الضرر الذي سيصيبه منها، عندها سيستطيع تحديد مكانها المناسب داخل سلة المهملات أو تحت حذائه، ولا يحبها ولا يقربها منه؛ بل هي شيء للتسلية فقط، لأنني شخص مشهور كما ترى، والشهرة لعنة ويجب أن تكون بين العامة كبرج الجزيرة الجميع يعرفه ولكن لا أحد يتملكه، أشعر بالخذلان والضيق.

أنا الذي شعرت بضيق من حديثه الهزلي، هل جاء بي إلى هنا ليحكي لي عن نوع السيجار الذي يدخنه، الرجل في حالة شبه هذيان، يبدو أنه أفرط في شرب الكحول، شعوري القديم صار يقينا بأن معظم الأغنياء أوغاد، هم لديهم شعور قاتل مهلك هو الأنا، كل شيء هو ملكي لأنني أستطيع دفع قيمته، هذا ما فهمته من هذيانه المتواصل، لكنه رفع رأسه نحوي مرة أخرى وقال بصوت محقق في جريمة:

– ما سر علاقتك بأميرة حسني.

السؤال كان صدمة بالنسبة لي، كل الظنون كانت واردة إلا هذا الأمر، قلت له بوجه مندهش:

– علاقة صداقة بريئة.

ضحك ضحكة مخيفة كأنه مارد خرج لتوه من القمقم، اهتز كرشه على إثرها.

– بريئة نعم بريئة، هل ضاجعتها؟ أعلم إنها تضاجع كل رجل يعجبها.

حاولت القيام من مكاني أشعر بالخجل:

– أنا سأنصرف الآن وآتي لحضرتك في وقت لاحق تكون فيه بحالة جيدة.
أشار بيده ضاحكا، وهو يميل بنصف جسده إلى الأمام، كادت رأسه أن تصطدم بسطح المكتب، كأنه يعاني من تقلصات في البطن، رفع رأسه ببطء شديد، يحاول أن يترك حالة الهزل، يرسم الجدية على وجهه بعينين حمراوين مخيفتين:
– لا تغضب، اجلس يا صلاح، ما أريده منك لم نتحدث عنه بعد، يجب أن تتحملني الليلة، هل وقعت أميرة على عقد فيلم جديد مع هذا الممثل المغرور؟
– نعم كما قالت لي هذا، وسيبدءون التصوير خلال أيام، وهي تركت المسرح لتتفرغ لقراءة السيناريو.
– الكلاب أولاد... عموما أنا كنت أعرف ذلك جيدا.
– لو حضرتك كنت تعرف. لماذا تسألني مرة أخرى؟ ما الأمر يا أستاذ محمود؟ لماذا تقحمني في أمر أميرة؟ وأنا جئت إليك بخصوص فيلمي.
– فيلمك جيد ويستحق المغامرة، قرأت منه النصف وأعجبني، سنجلس معا بعض الجلسات لتعديل بعض المشاهد أريدك سيناريست محترما قويا، سأعلمك كيف تكتب سيناريو متميزا لا تتعجل، أريد معرفة كل أخبار أميرة.
– ماذا تقصد؟ هل تريد مني أن أكون مخبرا سريا لك؟!
– افهم ما أقوله لك جيدا، ولا تتسرع في الحكم.
قام من على مقعده، وقف خلفي بضع ثوان، ثم صار بضع خطوات نحو الصور التي تزين جدران مكتبه، وكل صورة تمثل عملا اشترك فيه سواء كتابة أو إنتاج، ثم قال بصوت فيه لهجة تحدٍ:
– أترى يا صلاح، هذه الأعمال التي أخرجتها للنور، يعتبرها البعض نعمة، لكنني أعتبرها نقمة؛ لأنها أخذت عمري كله، ولم تعطني النجاح أو المردود المنتظر منها، الجميع يريد منك، وهذا شعور سخيف، يسعون إليك ليس لشخصك إنما لتلبية رغباتهم المادية، مشاعرهم مزيفة، الحقيقة يا بني، هم ينبهرون بما يرونه من الخارج، لكن داخلنا أحزان كثيرة، وآخر هذه الأحزان تسببت فيها صديقتك "أميرة حسني"، السيارة التي تركبها هي ملك لي، والشقة التي ذهبت إليها معها ورحلت عنها متعجلا هي بنقودي، وملابسها وأدوات التجميل التي تتزين بها الآن لغيري هي بنقودي، جعلت منها نجمة، الآن هي لا ترد على هاتفي وتريد قطع علاقتها بي، رغم أنني كنت أريدها زوجة لي على سنة الله ورسوله، لم أساومها على جسدها وأغدقت عليها الكثير من المال، وقد طلبت منها الزواج فقالت دعني أفكر، لكنها لم تفكر بل ذهبت إلى هذا النجم المغرور، الذي

أخذها معه مكايدة فيَّ، ليعطيها دورا في فيلمه الجديد، أليس الآن من حقي أن أستعيد أشيائي التي أعطيتها لها؟ لن أذكر لك قيمة المبالغ التي أعطيتها إياها، كانت دوما لا تريد أن تأخذ مني شيكات مكتوبة باسمها، كانت رغبتها أن تأخذ نقودها نقدا، حجتها أن بطاقة الرقم القومي منتهية، وهي لم تجددها بعد، فهي لا تستطيع صرف الشيك، ظلت تسوق لي الحجج وأنا أصدقها، حتى اعتدت على ذلك، حتى عندما اشتريت لها الشقة والسيارة طلبت مني أن يكون عقدهما باسمها، كنت لا أستطيع رفض طلباتها، كنت مطيعا لها لأنني أحببتها، كانت تصفني بالحوت وهي السمكة الصغيرة الجميلة، لا تستطيع السمكة الإفلات من الحوت؛ لأنه سيد البحر، هي كانت دوما تقول لي ذلك، تمارس معي سحر ضعف الأنثى والاستكانة، هي سمكة صغيرة أنصحها لا تتدخل في صراع الحيتان، ولا تكون طعما لاصطيادي به، أو سهما يصوبه نحوى هذا المغرور نصف الموهوب، سأنهي حياته الفنية كما صنعتها، أنت رجل قروي تحب الحق، قل ما تراه منصفا في هذا الأمر، هي تحترمك كثيرا وتقدرك ذكرت ذلك أكثر من مرة؛ لذلك اخترتك أنت لتتحدث معها وتزيل سوء التفاهم هذا، بلغها بأنني لا أريدها، بل كل ما أريده هو شيء واحد هو ما أخذته من نقود يجب أن تعيده.

ثم توقف عن الحديث متألما، ثم أشار إلى طبق الفاكهة ذي الأصناف المتعددة، طلب مني تقطيع برتقالة له، هرولت أمسكت بالسكين قطعت له حبة البرتقال، تناول منها شريحة واحدة ثم تناول كوبا من الماء وصمت قليلا، بعد أن رفض إحضار طبيب له، كلمات الرجل صادمة ويحملني فوق طاقتي، لماذا أنا دون غيري؟ هذا العالم متسع، لماذا اختارني أنا ليحكي لي هذه الحكاية الساذجة التافهة؟ هل أصدقه؟ لم أسمع من الطرف الآخر، لكن قلت له بحسن نية:

– من أين عرفت أنني ألتقي بها؟.

شعر بالضيق، قال بصبر نافد:

– أوه سؤال ساذج، لا تجعلني أشك في ذكائك.

قلت بمشاعر متناقضة بين الثقة والضيق، كأن هذا الجواب سوف يقربني من حلمي الذي أنتظره:

– أنا سألتقي بها الليلة وسأخبرها برغبتك وأسمع منها رأيها فيما قلت.

– جيد.. أنت إنسان جيد يا صلاح، ولا تقلق على فيلمك سيخرج إلى النور قريبا جدا، عندما أنتهي من تصوير عملي سأتفرغ له، ونعمل جلسات مع المخرج، سأحضر لك يا ولد يا صلاح، مخرجا عالميا يخرج لك عملك، أنت تستحق؟.

شكرته على هذه الكلمات المحفزة، لكن خذلني ما قاله عن أميرة، قررت الانصراف وأنا أشعر بخيبة الأمل، وكذلك عدم الذهاب لأميرة على الأقل الليلة. هل لأنها مراقبة من المنتج، ليس لهذا السبب فقط؛ لا أريد حياتهم المليئة بالصراعات، سأذهب للبيت كفي مفاجآت حزينة الليلة، رأسي مزدحم بكثير من الأحداث، أريد فترة هدوء نسبي، حتى أستطيع ترتيب الأفكار، لا أعلم رد فعل أميرة إن ذهبت إليها، من الممكن أن تكون قاسية لأبعد الحدود، يجب الحيطة مع النساء هكذا علمتني الحياة، عجبت لأحوال الناس، من جئت إليهم لكي يحققوا أحلامي، أصبحوا عبئا على عاتقي بمشاكلهم، لماذا يقحمونني للاطلاع على أسرارهم؟ هل لأنني ساذج بريء كما قالت لي من قبل ياسمين، ثم كررت هذا القول أميرة، أم حقيقي أنا أهل ثقة لدى الجميع، يرتاحون عندما يتعاملون معي؟ لا أدري يا صغيري، لماذا هم يضعونني رقما داخل حساباتهم، والحقيقة أنني رقم سلبي لا يضيف لأحد شيئا.

حتى لو واجهتها بما قاله الرجل عنها، أعلم أنها ستقول لي عكس ما قاله، وتدثر جسدها بثوب البراءة والطهارة، خرجت من القصر، لم أسلم على رجل الأمن، كنت تائها في بحر الفوضى التي أعيشها، السمكة الصغيرة الجميلة أميرة حسني تمارس سلوك الفراشات الفوضوي، والمنتج يمارس سلوك البطريق، يتغذى على صغار السمك، ركبت تاكسي أجرة من أمام القصر، مهما يكون الأمر فلن أنتظر مرة أخرى، طلبت من السائق إخراجي بأقصى سرعة من هذه الأماكن التي لا تشبهني، أريد أن أكون خارج هذا السور الذي يحميهم، إلى الطريق العام فقط، ومن هناك سأستقل حافلة نقل عام بعد أن قررت ألا أذهب إلى أميرة، أسراب من الخيالات الحزينة تهاجمني عندما قررت العودة خالي الوفاض لا درهم ولا دينار، سمعت صوت بكاء صغيري يتزايد من شدة الألم، وتخيلت وجه "سها" أمامي مكفهرا، بعد أن خلفت وعدي لها، ما هذه الحيرة، نقود أميرة ملوثة كما هو حال نقود محمود يحيى، كيف لي بهذا التناقض؟! أرغب فيهم بالرغم أني أشم رائحتهم النتنة، أسعى أن أكون مثلهم وأخاف عقاب الله! وأخشى على صغيري من حماقة رغباتي! في النهاية استجبت وأمليت على السائق عنوان أميرة. هل من الممكن أن تذهب بي لهذا العنوان.

يا صغيري، أعلم جيدا حقيقة ما سأقوله لك:

– لا تفعل ما يرضيهم؛ لأنك لن ترضيهم، وأفعل ما يريح ضميرك حتى لا تدفع ثمنا باهظا.

8

– اصدقيني القول يا أميرة، هل أنتِ كما قال عنكِ الرجل.

قلتها وأنا أشعر بضيق شديد، بعد أن أسمعتها ما كان من المنتج، الذي حملني رسالة لها، مضمونها أنها لصة، وتتلاعب بالرجال من أجل هدفها الأسمى النجومية، وأنهيت كلماتي بهذا السؤال القاسي:

– كنت أحترمك يا أميرة حتى زيارتي إلى محمود يحيى.

قالت بعينين شاخصتين يكسوهما الحزن الدفين:

– والآن لم تعد تحترمني ومعنى هذا أنك صدقت العجل السمين، أسهل شيء أن أقول لك أخرج ولا تعد لهنا مرة ثانية، كنت سأفعل هذا الأمر بسهولة مع شخص لا يهمني، ولكن أنت تهمني كثيرا يا صلاح.

"العجل السمين" قالتها أميرة عن المنتج، وهي منفعلة جدا، واصلت حديثها، هذا العجل ماذا يريد منها؟، هو يعيش في دور المظلومية لكنه يشبه الثعبان، لا يحمل بداخله لها سوى سم، هي تتمنى أن يتركها لحالها، هي تريد الفن وهو يريد جسدها، هذا ملخص ما قالته أميرة في ثورتها، لكن الحقيقة يا صغيري، أنني اكتشفت ليس الرجال فقط من هم غير أشرار بطبيعتهم، بل أميرة كذلك غير شريرة، الأشرار من الرجال هم من دفعوها لذلك، رغم قوة الدفع لكنها مازالت تقاوم دفعهم، توقفت عن الكلام بانفعال شديد تحاول أن تتسم بالهدوء، شربت من كوب زجاجي كان أمامها، ثم تنهدت كأنها لفظت شيئا ثقيلا داخل صدرها، قالت لي بعينين مليئتين بالدموع:

جميعهم يريدون الدفع مقدما، أو لأكون دقيقة في التعبير كل من التقيت بهم يريدون ذلك، يا صلاح، لا تفقد ثقتك بي، أنا أحترمتك كثيرا منذ أول لقاء لنا داخل مكتب العجل السمين، لم يكن لك فضول لتتطلع لجسدي ولم تتصورني مثلهم جميعا، يروننني عاهرة ترتدي الضيق وتبرز مفاتنها، مهمتهم في حياتي هي إطلاق الشائعات، لقد قالت.. فعلت.. خلعت.. لبست.. ضاجعت.. يكذبون كما يتنفسون دون الشعور بأي غضاضة، ولكن عندما اقتربت منك اكتشفت أنك إنسان حقيقي ذو قيمة، مثقف نبيل يحلم بالخير، نفتقد أمثالك في هذا الزمان الذي ضاعت فيه القيم، تم حصر الرجولة في اعتلاء جسد المرأة، ألم تسأل نفسك لماذا أنا التي اقتربت منك؟، أولا لأن نفسك غير ملوثة، أحتاج شخصا مثلك في حياتي، أي إنسان منا يحتاج لنقطة مضيئة داخل حياته، لتمنحه القدرة على مواصلة الصراع، كنت أنت هذه النقطة المضيئة في حياتي منذ

أن دخلتها؛ لذلك كلما تحدثت إليك أثرثر كثيرا، سأكون سعيدة لو أنا أختك وأتشرف بذلك؛ لأنك تضيف لأي إنسان إضافة غنية جدا لا تقدر بأموال الدنيا، لو كنت زوجتك للأسف كنت سأتمرد عليك لتحقيق حلمي، وعلاقتنا كانت ستفشل، هذه الحياة مثل الآلة والناس كالمسامير بداخلها، وكل مسمار يصبح نافعا في مكانه، وإن غيرت مكانه ستتوقف الآلة أو يحدث خلل، وهذا ما نراه هذه الأيام الخلط بين المشاعر، لا تصح أختك مكان زوجتك، تحب الاثنتين ولكن كل واحدة رائعة في مكانها، أنها معادلة صعبة يا صديقي النفس البشرية، أحضرتك إلى شقتي بضمير مستريح، وصدق ظني بك، كنت تعلم أني عارية تماما خلف باب غرفتي أو داخل الحمام، ولم تفكر مرة واحدة أن تدفع الباب وتدخل، أو تتلصص عليَّ، يا صديقي، أنا لست بالقديسة ولكن أيضا أنا غير شريرة، لدي حلم... لماذا هم يتاجرون بأحلامي، لا تلمني وألقي باللوم على من يستحق المساءلة، أحببت السينما والفن هل هذا جريمة؟! أم ما يفعله من يملكون مفاتيح الشهرة هو الجرم الأكبر! خذ يا صلاح هذه النقود التي طلبتها مني في الهاتف صباح اليوم، وارحل لزوجتك وطفلك اللذين ينتظرانك، عش حياتك يا صديقي ولا ترحل بعيدًا عني، حتى لو صَدَّقْت قول العجل السمين وأردت الرحيل لن أغضب منك، بل سأحزن على نفسي، ولو قررت الرحيل فمازال العرض الذي قدمته لك قائمًا، أنتظر منك سيناريو فيلم، سأقدمه للمنتج وأنت بصحبتي، لن أتاجر بأحلامك مثلهم، لأنني لست مثلهم، هيا اذهب يا صديقي.

كنت جالسًا أراقب انفعالات وجهها، هي لا تمثل على المسرح، بل ما تقوله هو حقيقة، أنا صدقتها بل بكيت من الداخل لأجلها، لأننا متشابهان لدينا أحلام، كما حكت لي من قبل كيف جاءت للقاهرة؛ تحمل على عاتقها أحلامها، منذ أن التقى بها المنتج بمدينة المنصورة أثناء عرض مسرحي كان يقام هناك، قد منحها طرف الخيط بطاقة التعريف الخاصة به، مكتوب عليها عنوانه وأرقام هواتفه، لم تفكر كثيرا جاءت خلفه لتحقيق أحلامها، حينها كانت مغامرة غير محسوبة منها، لأنها جاءت وحيدة وللأسف ظلت كذلك، ابتلعتها المدينة الكبرى وتعلمت كيفية عرض جسدها داخل فترينة، معتقدة أن هذا العرض يقربها نحو الوصول للنجومية؛ لم تتحدث لي كثيرا عن نشأتها لكن كانت دوما تثني على مسقط رأسها، قالت بفخر إنها هربت من أهلها من أجل الفن، وظلت تؤكد لي أنها عندما تلج إلى أبواب المجد والشهرة حينها تستطيع العودة مرفوعة الرأس، بصوت أكثر حزنًا يقينا ستسامحها والدتها عندما تصل لهدفها الأسمى، أشعر أنها نادمة على قرار رحيلها لكنه ندم مؤقت ينتابها فقط في أوقات الانكسار والأحزان.

ما تعانيه هي قد عانيت منه بشكل مختلف، المساومة القذرة نهج، رغم بهرجتها هي عبارة عن صعلوكة مثلي، للأسف ذنبها الوحيد أنها صدقتهم وهم يتحدثون على الشاشات، لكن عندما اقتربت منهم وسقطت الأقنعة، صارت كالقطة لها مخالب في أحيان كثيرة، لديها القدرة على التحول من قطة منزلية أليفة، إلى قطة شوارع تخربش إن اقتضى الأمر، كما حاولت أن تفعل مع العجل السمين، أنهت "أميرة" حديثها الطويل المثير، رغم إحساسي بصدقها وتألمت من أجلها ورغم ذلك لم أستطع مد يدي لأخذ النقود، ظللت أتنقل بين عينيها الدامعتين وبين النقود الملوثة بين يديها، أيهما أختار؟ تبادلنا النظرات في صمت.

لم تتمالك نفسها وبكت بشدة ثم قالت:

– نظرات الشك تقتلني يا أخي الطيب، دع نفسك بنقائها ولا تكن مثلهم، خذ النقود وأرحل بالله عليك لا تحملني فوق طاقتي! لي عندك رجاء أخير لا تشغل بالك بما هو خلف الكواليس، أشغل بالك بالذي في يدك ألا وهو قلمك، أجعل منه سياطا تجلدهم..

أتعلم يا صغيري، ماذا اخترت؟ لا تفكر كثيرا..

حضنها، رميت بجسدي في حضنها وهي تبكي، لا ندري لماذا نفعل هذه الأفاعيل غير المنطقية، وما الداعي لذلك، هي اعترفت بجمال دواخل نفسها، وهذا الأمر جعلني أعيد النظر إليها وتقييمها بشكل مختلف. يا صغيري، حضنتها وودعتها، ولم أعلم أنه سيكون الوداع الأخير، واستجبت لرغبتها أخذت النقود ورحلت عنها، كنت قد طلبت منها ثلاثة آلاف من الجنيهات، هي أعطتني خمسة آلاف، وقالت ردهم في أي وقت ظروفك تسمح، وإن لم تسمح ظروفك فهذه النقود هدية لصغيرك طارق من عمته، جففت دموعها بيدي المرتجفة، قلت لها لن أرحل قبل أن أرى ضحكتك، حاولنا سرقة ضحكة باهتة من هذا الجو الكئيب الذي يحيط بنا، تبادلنا بعض الكلمات القليلة عن دورها الجديد، عندما أشارت نحو الورق الموجود على المنضدة التي تتوسط الصالون، أنها تريد أن تكمل القراءة الليلة، كنت أريد الحديث معك عن العمل لكن أظن الوقت غير مناسب لنا لقاء آخر عما قريب، هنأتها مقدما وتمنيت لها النجاح. خرجت بضع خطوات نحو الباب وتوقفت ثم نظرت إلى عينيها الجميلتين:

– الحقيقة التي يجب أن تعرفيها، لم أجرب من قبل إحساس الإخوة الحقيقي؛ لأنني وحيد أبوي، ولو خيروني بين بنات الدنيا أختار أختا لي، دون تردد سأختارك أنتِ يا أميرة، كوني حريصة على نفسك.

قالت وهي شاردة الذهن مشغولة البال:

– أشعر بالقلق من الغد.. بالأخص بعد حديث العجل السمين عني، هذا الرجل ليس سهلا أو متسامحا.

– مم تخافين؟ لو تعرض لكِ سيكون خصما لي، لا يغرك صبري أنا في الخصومة شرس.

هزت رأسها ضاحكة وعاد وجهها صبوحا، ابتسامتها كعادتها صافية جميلة، هي لا تريد قطع الخيط الأبيض الجميل الذي يربطنا، قالت بصوت رقيق:

– لا تشغل بالك أنا بخير وسأظل قوية، وعندما أنتهي من القراءة، سآخذ قرصا مهدئًا للأعصاب وسأنام، هذا الدواء مفعوله عجيب أعطاني إياه محمود يحيى في إحدى زياراتي له، وقد جربته من قبل، مفعوله جيد.

كانت نظرتها الأخيرة قبل الرحيل مقلقة تشعرني بالخوف، أخاف عليها من الغد، وأخاف على نفسي من القرب منها أكثر من ذلك، أشعر بشيء يقلقني كلما اقتربت من أميرة، كل خطوة نحوها تبعدني عن زوجتي وطفلي.

أسمع يا صغيري:

– لا تتغير من أجل أحد، إن تغيرت ستكون مسخا وتضيع قيمتك الحقيقية، من يريدك يقبلك على هيئتك وعيوبك؛ لأنه عندما قدمت نفسك إليه قلت له معرفا نفسك: أنا الإنسان ابن الإنسان، يخطئ ويتوب ويثور ويهدأ، ويحزن ويفرح.

9

ألم أقل لك من قبل كنت أتمنى أن أعيش حياة هادئة في البيت، ولا أريد أن أجعل جزءا منها في الظلام كانت هذه هي أمنيتي، رغم ذلك لن أندم على صراحتي رغم العواقب الوخيمة، التي ضربت استقرار بيتنا، اليوم أرى من "سها" الوجه الثالث للمعنى الحقيقي للحماقة، عندما قلت لها ما حدث بيني وبين أميرة والمنتج. صرخت في وجهي وهي تلقى النقود على الأرض:

– ستعيش طيلة عمرك صبيا للعاهرات، تتنقل من ياسمين إلى أميرة، خذ نقودك وأرحل بعيدا عني أيها الديوث القذر.

– أميرة التي تقولين عنها إنها عاهرة هي أشرف من أمثالك، أنتِ تتاجرين بقلمك؛ وإن كانت هي عاهرة فأنتِ سيدة العاهرات.

– اخرس يا جربوع.

كان يجب على أن أضع حدا لهذه المهزلة الجنونية، صفعتها بقوة على وجهها، ثم صفعتها مرة أخرى، سقطت على الأرض ركلتها مرتين بقدمي، وأمسكت بها من شعرها، أجذبها بقوة وأحذرها إن تمادت في إهانتي سأقتلها، بيتنا صار مسرحا للسب والقذف وتبادل الشتائم، هذا البيت به كاتب وصحفية، أرأيت يا صغيري، سخرية القدر منا.

وضعت النقود في جيبي ورحلت، آخر شيء تسمعه أذني في بيتي بكاءك وبكاء والدتك، الجو كان ملبدا بالغيوم في شهر إبريل، الساعة تجاوزت منتصف الليل بساعة تقريبا، حياتي الضبابية لا تجد مرفأ أحط عليه حمل أحزاني الثقيل جدا، إلى أين يا طريق العذاب ستأخذني؟ لا أعرف، الحياة ترفضني بل تلفظني بعيدا عنها، أم أنا الذي اخترت الطريق الخطأ، واليوم سأدفع نتيجة أخطائي، لم يكفر الدكتور شكري عن أخطائه، بل مازال على ضلاله القديم، يتاجر بالفضيلة والمعرفة في العلن، وكذلك "ياسمين" خبر زواجها من الإعلامي الشهير يملأ صفحات الجرائد، وتمت استضافتها هي وزوجها في أحد البرامج، يحكيان عن قصة حبهما، ألم تعلم أيها المذيع اللامع بأن نصف جسد زوجتك الأعلى ككف اليد، صافحت به كل من فتح لها بابًا نحو الشهرة! الجميع يخطئون ويكافأون؛ رئيس التحرير يطل على المشاهدين يوميا، كأنه جرعة دواء يجب أخذها بانتظام، وهو يدعي البطولة والفروسية، وهو ومن يستضيفه يعلم أنه مأجور ابن مأجور، أما أنا فلا أريد أن أخطئ وإن أخطأت فالعقاب يأتي سريعا، كما حدث معي ليلتها، وهناك ابتلاء دون أن أخطئ، ما فعلته والدتك جريمة، وما فعلته أنا جريمة كبرى، لماذا صفعتها، هي جردتني

من كرامتي فأنا ليس بجربوع يا "سها"، هذا الجربوع الذي سعيتِ للزواج منه، هو يقولها لكِ رغم معرفتك ووضعك الاجتماعي الذي تتفاخرين به، فوالداكِ الطبيبان، لم يعلماك أن هناك فرقا شاسعا بين الزواج والسبي، أنا لست ملكية خاصة لأحد، لا يغرنكم طول صبري، لن أكون يوما حيوانًا أليفًا داخل منازلكم، أو دمية موضوعة على المقاعد داخل ندواتكم لأصفق لكم وأهز رأسي، لن أكون خروفا في قطيعكم أو ممسحة لأحذيتكم، إن أردتم بي ذلك فسأتحول إلى أسد يلتهم أحشاءكم، فلتكفوا أذيتكم عني، أريد العيش في سلام، هل هذا مستحيل؟.

السماء بدأت تمطر رذاذا خفيفا، أواصل السير لا أتوقف لا أهتم، أهرول كمجذوب القرية الذي لا يعرف طريقه، لكن لا يتوقف عن الهرولة، الناس لا تهتم به وإن اهتموا به جعلوه مادة للسخرية، للأسف هم لن يرحموا المجذوب، وكذلك لن يتركوه لحاله، أول مرة أشعر بالندم يا صغيري، لأنني قطعت كل جذوري بالقرية، عندما خالفت وصية جدتك، التي كانت بفطرتها النقية ترى المستقبل، أو هي تعرف ما لا أعرفه، شعرت بالعجز ذلك اليوم واعترفت أن المعرفة ليست قراءة فقط، بل هناك جزء مهم هو الموروث قيمة كنت أتجاهلها منذ الصغر، لم أعرف يا صغيري، أن هذا الموروث هو عصارة تجارب أجدادك في الحياة، وهو الجزء الصلب من الأرض الذي نستطيع الهرولة عليه للمواصلة، ولن يخذلنا أبدا، لو بحثت عن مركب نجاة لكنت خلطت بين العلم والموروث، كلاهما مكمل للآخر، التاريخ يا صغيري، قيمة والقيم لا تقدر بثمن، للأسف الرأسماليون في هذا الزمان يسعون لتحويل كل القيم لسلع، حتى تكون لهم السيادة، يا صغيري، حلتي المستوردة الناعمة التي اخترت أن أرتديها لم تستر عورتي.

ضاقت بي السبل، لم أجد مكانا يسعني إلا الجلوس بجوار تمثال الأديب الكبير، قلبي منقبض بشدة، حاولت أن أحتمي به من رذاذ المطر، لكن دون جدوى، جلست مستسلما لأقداري، وتنهش من عافيتي الظنون، كيف سأواجه والدتك يا صغيري، بعد الذي حدث بيننا والتعايش معها، نظرت إليه وقد قررت ألا أتحدث معه اليوم، صوتي محتبس داخل صدري، لكن إن تحدثت ماذا سأقول له؛ أأشكو الناقد وما يفعله من المتاجرة بأحلام الناس؟ يستغل الجميلات والجميع بالنسبة إليه عبارة عن أرقام، أم أشكو له من المنتج الذي يصنع لنا عالما موازيا وهو مضلل للحقيقة، هذا العالم لا يمثلنا، جاء بمال ملوث وفكر أكثر قذارة يريد فرض أجندته على الناس، وللأسف يصدقون من يتاجر بمشاعرهم أكثر من الذي يواجههم بالحقيقة، أم أشكو له مدينتي الغراء التي غرّتني بماضيها الأغر، وعرقلني حاضرها ذو البهرج الخداع، مصيبتنا أن الكاتب وطنه الوحيد هو الكتابة، والكتابة في زماننا خطيئة، لأنها بضاعة كاسدة، ومصيبة المصائب، إنني أزن الأشياء بغير موازينها..

هل الكذب هو أفيونة هذا العصر، هناك فرق شاسع بين الكذب وبين الحديث عن الأحلام، الوهم يقتل والحلم يبني، نريد أحلاما لا أوهاما، إن أردت أن تكون مثلهم عليك فعل ما يفعلونه وممارسة ما يمارسونه، أم أشكو من رئيس التحرير الذي ارتضى لنفسه دور الكومبارس، أم صاحب دار النشر الذي أجهض حلمي الصغير بحجة أنني غير مشهور، يا سيدي الناشر، القارئ لا يريد مشهورا؛ بل يبحث عن قيمة؛ قدم له القيمة ولا تطلب منه أن يكون تاجرا مثلك وأنت تدفع النقود لكي تتكسب من ورائها، وهو يهدر وقته وثمن الكتاب من أجل المعرفة! هو يبحث عن المعرفة الحقيقية ومن الأمانة أن تقدمها له، ولا تقدم له كتبًا جنسية أو إلحادية لا تمثلنا بحجة الأكثر مبيعا. سيدي الناشر، أنت كبائع الطعام كن أمينًا على ما تقدمه للناس؛ حتى لا تسمم عقولهم كما سمم المسئولون أجسادهم، أم أشكو له نفسي التائهة كطفل صغير، لا يتخذ موقفا إلا في النهايات، تغريه دوما البدايات البراقة فينصاع دون مبدأ، أنا يا سيدي الفاضل، صاحب مبدأ مطاطي يصلح لكل الأوقات والمواقف، هذه هي مصيبتي يوم أن عرتني أمام نفسي ياسمين بالمقهى، كنت أريد مضاجعتها في السر، لكن أنكرت رغبتي أمام "سها"، لا أختلف كثيرا عنهم، ولكن تنقصني البجاحة والصفاقة أو الفرصة، لأمارس العهر في وضح النهار، لذلك هُزِمْت؛ هُزِمْت منذ أن نسيت صوت آذان مساجد قريتي وأجراس كنائسها؛ هُزِمْت منذ أن شعرت بضيق من رائحة تراب قريتي؛ هُزِمْت لأنني لم أهتم بشجرة الصفصاف التي كانت أمام دارنا، وتركتها للرياح الغربية السوداء تعبث بها، هُزِمْت لأنني لا أعرف لماذا أجدادي شيدوا هذه الأهرامات، أنا خذلت نفسي، وهم خذلوا أحلامي، هل لو قلت لك هذا الكلام سيدي الأديب، هل سأجد عندك الجواب؟.

وكل ما أريد قوله لن يجدي في شيء، أصعب شعور يؤلم الإنسان عندما يكون على يقين بأن حديثه لا ثمرة منه؛ لأن أزهارنا تربت على المزابل، موسيقانا هي الطرق على علب صفيح فارغة، ونهيق الجهلاء صار طربا يمتع، الأديب المعلم قال الكثير والكثير، ولكن للأسف "آفة حارتنا النسيان".

يا صغيري، اليوم أقولها لك بضمير مستريح "آفة مدينتي النزاع"

النزاع قائم من خاتم الزواج إلى المقابر الجماعية، وبينهما ملايين النزاعات التي قتلت فطرتنا، إنسان العصر يمارس نزاعه بضمير مستريح..

10

هل كنتِ تعلمين أنه وداع ولم يكن مصارحة يا أختي الفاضلة، أيتها الزهرة الجميلة البريئة التي لم تتربَّ على المزابل، لم أكن أدرى أن هذا الحضن هو الوداع الأخير، "أميرة حسني" قُتلت في شقتها بعد أن تركتها وحيدة، الجريمة تمت بتدابير شيطانية، جثتها الجميلة التي كانت تتفاخر بها تحولت إلى جيفة نتنة، هيا أكملا صراعكما عليها أيها النجم الشهير وأنت أيها المنتج الكبير، خذا جيفتها وأكملا الصراع عليها، لكن روحها الطاهرة السمحة لن تطولاها؛ لأنها أسمى منكما.

تم القبض علىَّ بتهمة قتل الممثلة الشابة، في البداية كنت أظن أنها عثرة عابرة من عثرات الزمان وستمر، وتتضح الحقيقة للجميع، لكن يا صغيري، كانت هي النهاية؛ الكاميرا المعلقة على باب العمارة التي تسكن فيها القتيلة دليل، والنقود التي كانت في جيبي لسوء حظي، والسكين التي عليها بصماتي دليل ثانٍ وثالث، كل هذه الأدلة كانت ضدي، السكين التي قطعت بها حبة البرتقال كانت مغروسة في قلبها؛ كما يقول أهل القانون دليلا قاطعا، فعلها العجل السمين بحرفية بمساعدة ضابط الشرطة، الذي جمع كل الأدلة ضدي، كل هذا كان مرتبا له جيدا، وأنا غافل أواصل السير في طريقي دون حِيْطة، المادة 32 من قانون العقوبات "إذا كون الفعل الواحد جرائم متعددة، وجب اعتبار الجريمة التى عقوبتها أشد، والحكم بعقوبتها دون غيرها"، وإذا وقعت عدة جرائم لغرض واحد، وكانت مرتبطة ببعضها بحيث لا تقبل التجزئة، وجب اعتبارها كلها جريمة واحدة، والحكم بالعقوبة المقررة لأشد تلك الجرائم، هكذا رأت النيابة العامة فى مذْكرتها بمطالبة القضاء بتوقيع أقصى عقوبة على "صلاح سنجاب"، القاتل مع سبق الإصرار والترصد، كما كُتِبَ بمحضر الضبط، بأن الجريمة مدبرة بدافع القتل، وسرقة مصوغات ذهبية بالإضافة إلى مبالغ نقدية التى أخفاها القاتل، فضلا عن بعض الشهود، الذين اعترفوا بأنني كنت دائم التردد على القتيلة، كل هذا كُتِبَ فى محضر الضبط بواسطة رجل الشرطة، تحولت القضية إلى قضية رأي عام، القنوات والجرائد والمواقع تتناول خبر "الشاب الانتهازي قاتل الفنانة"، صفة الانتهازية ألحقها بي العجل السمين فى التحقيقات، فأتخذها الجميع عنوانًا للتشهير بى، يا صغيري، كل هذه المؤامرات ضدي لم تفقدني إيماني، بأنني سأسترد حقي وتظهر الحقيقة، كان هذا يقيني، لكن عندما تخلت والدتك عني، هنا أيقنت أنها النهاية. لماذا يا "سها"، لم تنسي أو تتناسي صفعاتي؟ لأشد ما كنت أخشاه، أن تصدقى محاضرهم، تم انتداب محامٍ للدفاع عني كما نص المشرع، مرافعة الدفاع لا أدرِي إن كانت مرافعة جدَّية أما شكلية، النهاية يا صغيري، حتى لا أطيل عليك في تفاصيل المحاكمة، تم

صدور الحكم بأن والدك قاتل مع سبق الإصرار والترصد، كما عشت وحيداً في هذه الحياة، اليوم أواصل الوحدة بين جدران زنزانتي، بعدما فعلها العجل السمين ومد يده القذرة ودمر حياتي، وقد أحضر بدل الدليل مائة دليل أنه لم يلتق بي هذه الليلة، كذلك بدل الشاهد ألف شاهد أنه كان متواجدا في هذا التوقيت بمكتبه، بعيدا عن القصر الذي لم يعد إليه إلا في الساعات الأولى من الفجر، "لا يصح أن نلقي التهم جزافا على شرفاء القوم".

قالها العجل السمين للمحقق، كيف نصدق هذا الصعلوك، وقد أحضر ألف دليل بأنني شخص انتهازي متملق، الحقيقة أن الرأسماليين هم سادة هذا الزمان، هم يمنحون البعض الحياة ويجعلون آخرين وقودا لتستمر نار حياتهم متأججة، هذه هي الحقيقة التي لم ولن يصدقها أحد، لم أقتل "أميرة حسني" لغرض السرقة كما قيل عني في محاضرهم، لا تصدق أوراقهم، وصدق دفتري هذا، النهاية يا صغيري، حتمية والدك لم يكن يوما ما قاتلاً، جريمة والدك الحقيقية أنه أراد شيئا غير مشيئتهم، جريمة والدك الحقيقية أنه صعلوك أراد أن يجالس الملوك، صعلوك أراد أن يكون له صوت.

اليوم أنا وحيد بين جدران زنزانتي؛ بدلتي الحمراء تزين جسدي، نعم تزينه لا تكبله، لا أملك من حطام الدنيا شيئا سوى قلم.. دفتر.. وخلف الأبواب مشنقة.. في انتظاري..

الحمد لله يا صغيري ها قد وصلت معك للنهاية، ومهما تكن النهاية، اليوم أدركت أن العمر قصير جدا، لا وقت لإهدار الفرص، لا تهدر الفرص في حياتك، ولا تصدقهم بأنني شخص يجلب العار لك، أو مشوها نفسيا، أنا أمثل جيلا اغتيلت أحلامه عندما رسموا له مستقبلا بالقلم الرصاص واحتفظوا لأنفسهم بالممحاة، ارفع جبينك لأعلى لأنهم هم الملوثون وليس والدك، اليوم أنا راحل إلي دار الحق، أصدقك القول يا صغيري، أنا غير حزين أو بي علة نفسية، أو من الذين يحقدون على أحد لكي أعري نفسي أو غيري، جريمتي هي نسج أحلام كنت أظنها منطقية، للأسف منطقيتها تحتاج إلى مواربة ومخادعة، ظننت أني أسد لكنهم جعلوني بلا أنياب، أعلم أن ما قلته لك في دفتري هذا، هو القليل من الكثير الذي يمارسونه بكل بجاحة، ينْظرون إليك على أنك جيل غير مهذب ألا يخجلون من أنفسهم؟! يلوثون سمعك وبصرك وفطرتك، ويريدون منك يا صغيري، أن تقف لهم احترامًا، كان يجب عليهم أن يدركوا أنك ستكون حصاد ما يزرعون.

– سألتقي بأجدادك.. أعلم أنهم سيلقون باللوم على ضعفي، لكنهم سيسامحونني على كل أخطائي؛ لأنني جزء منهم، وليس كأمك لم تستطع مسامحتي على صراحتي.

– سألتقي بالسمكة الصغيرة "أميرة حسني" صغيرتي لم أكن أعلم بأن مصيرنا واحد، سامحيني قد خلفت وعدي لكِ مجبرا، وعدتك بألا أنشغل بشيء غير الكتابة، لم يعطوني فرصة أن أفي بوعدي بتروا لي ذراعي وحطموا قلمي. صغيرتي، كنتِ صادقة معي أكثر من "سها" التي جعلت من صراحتي ذنبا لا يغتفر وجعلتني أدفع ثمنه، لو كنت ذهبت للبيت حسب رغبتي ليلتها، كان من الممكن ألا يتمكن العجل السمين بمساعدة الأشرار من نصب شراك المؤامرة، لو كنت أعلم أنها ستسمع لي كنت هرولت للبيت أشكو لها، ونتبادل الحوار حول المستقبل، "لو" يا صغيري، لن تغير الأقدار. فاحرص على ألا تفعل فعلا يجعلك تتفوه بها.

لمن اليوم تشكين حالك يا "سها"؟ يا صغيري، والدتك اهتمت بدفع الفواتير أكثر من اهتمامها بزوجها..

– سألتقي بالناقد الفذ "رأفت مرعي" أما هذا فأنا سألوم عليه لأنه رحل وترك لهم الساحة يمرحون فيها ويضعون على جثته أوراقاً قذرة مكتوباً عليها، رحل لعدم تطابق صلاحيته مع الحياة؛ حتى إن عاتبني لعدم التواصل معه! أكيد سأجد مبررا مقنعا له، مثل مبرراتي الكثيرة غير المجدية، والدك لم يتعلم الدرس جيدا للأسف، هناك لا يوجد كلمة لها معنيان، هناك الحقيقة واحدة والحق واحد، وميزان العدل لا يحابي ولا يجامل.

خبر لن يضيف لك الكثير ولكن سأكتبه لك، التقيت بالشاب الذي كان في الحفل، هو بشخصه لم تخطئه عيناى بنظارته الطبية السميكة، طالت لحيته ونحف جسده، لم يعد لسانه سليطا أجده دوما صامتا، وعندما حاولت التقرب منه نفر مني، كما تنفر شاة من الذئب! لا أدري ما جريمته، هل كانت لديه أحلام، أم جاء ليسدد دين أحدهم، الحقيقة يا صغيري، يوجد داخل السجن قصص كثيرة وعجيبة؛ بنيت السجون للإصلاح والتهذيب، لو أردنا إصلاحا لتعاملنا بمنطق السجن على الكرة الأرضية جميعا، من في السجون قلة من مجرمي العالم، الفرق بينهم وبين باقي المجرمين الطلقاء أننا عرفنا جرائمهم.

صغيري، أخيرًا أقولها لك بصدق، وأنا لا أضمن إن كان هذا الدفتر سيصل لك أم لا، الحقيقة الوحيدة التي أضمنها لك في هذه الحياة أنك راحل وهم راحلون، دون ذلك فهو نزاع مختلق لا قيمة له بجوار قيمة الحياة الحقيقية، وقيمة الحياة أن تعمل لما خلقت من أجله..

بعضنا خلق من أجل الجنة وبعضنا خلق من أجل النار، فليعمل كل منا لما خلق.

أسمع صوت أغنية للمطرب محمد منير، لا أدري من أين مصدره؟ قد يكون أنين جدران زنزانتي، أو صوت مساجين كانوا قبلي هنا، أو صوت عقلي الباطن الذي لم أسمع له من قبل هو وصوت

ضميري، بل هرولت خلف ملذاتي، والحقيقة مصدر الصوت كان السجان، جالسًا أمام باب زنزانتي يشعر بالطرب، ويهز رأسه من جمال الكلمات..

جى من بلاد البعيدة

لا زاد ولا ميه

وغربتى صحبتى

بتحوم حواليا

وانتي تقوليلى بحبك

تحبى ايه فيا

وده حب ايه ده

اللى من غير أى حرية[IV]

لا أدري إن كانت هذه هي الليلة الأخيرة لي في دنياكم، أظنها الأخيرة.. لو تسمح لي أيها السجان قبل أن تحكم وضع حبل المشنقة حول عنقي، وتكسر رقبتي بعد أن يتدلى جسدي كجوال ممتلئ بالرمال؛ هناك حلم يطاردني، سأنام هذه الليلة بضمير مستريح بعد أن انتهيت من كتابة الدفتر، ولن تسمع بعد اليوم صرير قلمي، الذي يعزف على الأوراق البيضاء ليخلق منها سطورا فياضة، أعلم أن صريره كان يزعجك طيلة كل ليلة، هو وأنين قلبي المنفطر. لا تشغل بالك بصرير قلمي ولا بأنيني، كلاهما لا قيمة له، سأرقد وأحلم هذا الحلم الجميل المبهج، وأعدك بأنني سأحلم في صمت، وداعًا صديقي السجان، لي عندك رجاء صغير وأخير؛ لو جاء صغيري لك في يوم من الأيام بأي جريمة قد ارتكبها أو لم يرتكبها، ترأف به؛ لأنه من أبناء القدامى داخل سجونكم، يجب أن يكون له ميزة؛ لأنه سجين ابن سجين، قد تعلمنا في دنياكم أن ابن السجان يرث أباه؛ فمن طبائع شرائعكم أن يكون ابن السجين سجينا! والآن دعني أغمض عيني هناك حلم ينتظرني..

الحلم..

كنت نائما داخل زنزانتي بعد أن سلمت أمري لأقداري، فُتح باب الزنزانة على غير عادة، أظنها ساعة التنفيذ، لم أرتعش أو أتبول على نفسي كما يفعل الممثلون بمشاعرهم المفتعلة؛ لأنني مت من قبل مرات عديدة. دخل إلى زنزانتي رجل النيابة يقف شامخا ويزف لي تلك البشرى.

[IV] **كلمات الشاعر عبد الرحمن الأبنودي**

تمت إعادة فحص جثة القتيلة "أميرة حسني" وتبين بعد الفحص بأن سبب الوفاة الخنق، وليس الطعن بالسكين، وتلك السحجات الظفرية حول عنقها تحمل بصمات قاتل محترف هي ليس لك؛ لذلك سيعاد التحقيق في القضية من جديد، لظهور أدلة جديدة.

بعد أيام عاد نفس ذات الرجل، طالبا من السجان أن يسمح لي بالرحيل، وأقلني رجل النيابة داخل سيارته، ولم يتحدث معي طيلة الطريق، توقف بجوار تمثال الأديب "نجيب محفوظ"، وطلب مني أن أغادر السيارة، لكن المدهش وجدت التمثال يبتسم لي، وشامته التي على خده كوردة يفوح منها العبير، وتبادلنا أنا وهو الابتسام وقلت بصوت حالم.. لنا عودة، وهرولت نحو البيت أشتاق لحضن "سها" وضحك طفلي.

هنا انتهى الحلم يا سيدي السجان..

– هل راق لك حلمي، أم ستتاجر بأحلامي مثلهم؟

تمت

ما لم يذكر داخل الدفتر

بعد سنوات كثيرة مرت؛ تم نشر روايتين ومجموعة قصصية للكاتب "صلاح سنجاب"، وهي الآن ملقاة على الأرصفة لم يقتنها أحد، يا أهل الثقافة والمثقفين الأجلاء. هل سمع أحدكم عن كاتب يحمل اسم صلاح سنجاب؟! لم ولن تسمعوا عنه.